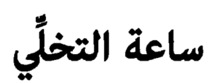
ساعة التخلّي

عبّاس بيضون




ساعة التخلّي

هذه الرواية من نسج الخيال وإذا اتّفق أنها شابهت وقائع وشخصيّات فإنّ هذا من غريب المصادفات.

صورة الغلاف: تجهيز للفنان اللبناني سمير خدّاج
تصميم الغلاف: شذا شرف الدين

عبّاس بيضون

ساعة التخلّي



ISBN 978-1-85516-928-9

الطبعة الأولى، 2013

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114
هاتف: 866442-1-961+، فاكس: 866443-1-961+
e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

القسم الأول

حصار



فوّاز أسعد

القصف منذ ثلاثة أيام على المخيم الذي يتمدد وراء الشارع الرئيسي في طرف المدينة. منذ ثلاثة أيام ونحن نتسقّط القذائف التي تقع في الغالب وسط أكوام الزنك التي تقف حيطاناً غير متوازية، تنتشر بلا أي حساب على امتداد المخيّم. لم نكن راضين بقصف المخيّم لكن دويّ القصف لا يترك أي أهمية لمشاعر عدم الرضا بحيث كنا نلوي أنفسنا عنها ونكبسها في داخلنا. أحياناً كانت تفلت قذيفة وتقع على الطريق فنشعر بالغضب من المخيّم إذ لا معنى لمشاعر من هذا النوع ضد الإسرائيليين. لم نكن نكره المخيّم رغم أننا كنا بلا إرادة، حيال تمدده. لا نكره المخيم فقد انتهينا إلى امتصاص مشاعرنا السيئة تجاهه منذ زمن. لا نكرهه لكننا حين تسقط قذيفة بيننا نشعر كما لو أنه رماها عن نفسه علينا، كما لو أننا عوقبنا محله. عندئذ نكون أقررنا، خفية عن أنفسنا، بأنه يستحق. أخيراً سقطت قذيفة في السوق وقتلت طفلة. غضبنا من المخيّم كما لو أنه تأخر عن حمايتنا، لم نلق غضبنا على الإسرائيليين فحين تنفجر قذائفهم وسطنا لا جدوى من أن نرسل

هذه الفقاعة في وجوههم. إنه واجبهم كأعداء ولا جدوى من اللوم أو العتب أو حتى الكره فحين يداهمك شخص رافعاً سكينه ليقتلك، لن تجد وقتاً إلا للخوف، بل ربما لن تجد فكرة أمام الخطر الذي ينتظر. لن تجد فكرة وبالطبع فإن الشعور بالظلم لا يجدي أمام القذيفة. القذيفة وحدها حاضرة والشخص الذي يرسلها سيبدو له ذلك في ذات اللحظة أنه صاحب حق. القنبلة في لحظتها حجة دامغة. قذيفة تسقط وسط السوق وتقتل طفلة لا تترك لنا مجالاً للغضب إلاّ من أنفسنا. بالطبع لن نغضب من الطفلة لكننا لن نعدم شخصاً يوشوش، بعد يوم واحد، بأن أباها يبيع لبناً مغشوشاً وبالتالي فإنه يستحق. العداء ليس شعوراً ولا حتى فكرة، إن كان كذلك فهو الشعور المتحجر والفكرة الفاصلة، شعور بلا شعور وفكرة لا تفكر. العدو هو النقيض ومن لا يعرف نفسه، كما هي الحال دائماً، لن يعرف نقيضه. العدو الأقوى هو كالموت أو كالقدر لا نستطيع أن نتبادل معه سوى القوة المجردة، المشاعر والأفكار نتقاسمها مع آخرين غيره. العدو نقدر عليه أو يقدر علينا. يتحيَونْ أو يتشيطن وكلما صار أسوأ كان نفسه وليس من حقنا أن ننتظر منه شيئاً آخر. حين سقطت القذيفة على السوق كنت عائداً منه وسمعت بالخبر وأنا على الطريق. لقد سبقني فأنا علمت ذلك من صاحب استوقفني. كان واقفاً في الشارع والخبر في فمه، ويريد أن يلقيه على أيّ كان. لوّح لي بيده وحين جاوبته بيدي واستمرّيت في سيري. عجل إليّ. كانت خطواته أوسع لذا أجبرني على أن أتوقف له. وصل إليّ ورمى بالخبر فور وصوله. كان طويلاً لكنه انحنى وهو ينقل الخبر وكأنه ينوء به، وما إن قاله حتى اعتدل في

وقفته. لقد رمى خبره عليّ وانتظر بالتأكيد أن أهتزّ تحته. لم أشعر بأي شيء، لقد كانت طفلة مجهولة واختفت كأنها لم تكن. لذا صافحته وتركته واقفاً وما إن ابتعدت بضع خطوات حتى التفتُّ إليه لكني لم أجد أحداً. عندئذ بقيت وحدي أنا والخبر الذي سمعته هذه المرة من داخلي واضحاً، فتاة مجهولة تقتلها قذيفة، ليس هناك حضور للقدر أكثر من ذلك. جميعنا مجهولون أمام القدر وأنا أيضاً شعرت بقدري أمامي. تداركت خوفي وأكملت الطريق. وجدتني قدام بيت صلاح الذي بتُّ فيه ليلة البارحة فالقصف جعلني أكره أن أبيت وحيداً في بيتي. طرقت الباب ففتحت لي زوجته. لم تكن مبغوتة لكنها تعمّدت أن ترفع صوتها حين رأتني:

- وينك. حدا بيروح على السوق بهالوقت؟

لم أجب ودخلت فأشارت لي، قبل أن تختفي في غرفة على اليمين، إلى الغرفة المقابلة وقالت:

- فوت ناطرينك.

دخلت فوجدت صلاح في الداخل جالساً على كرسيّ واطئ. كان رأسه بشاربيه الكثيفين منكفئاً إلى الأسفل، هذه حاله وهو يتكلم فهو عندئذ يبدو وكأنه يفتش عن الكلمات في رأسه. كان كلامه كذلك تعليماً مسترسلاً مليئاً بالالتفافات والعودة إلى الكلمات نفسها كأنه بذلك يدخل الضوء رويداً رويداً إلى غابة أفكاره الشائكة. كان جنبه على كرسيٍّ أعلى نديم النحيل الطويل ذي العينين المقوّستين. وكان ساعة دخولي يلقي كعادته أحجية على صلاح.

- ليش ما بنعلن هلق الثورة؟

لم يكن صلاح الشيوعي غريباً عن أحاجي نديم، لكنه لا يفوّت نقاشاً. إذا كانت متعة نديم في تأليف قضايا مستحيلة فإنّ متعة صلاح في تفكيك أهرام النقاش والبدء بتهديم مسلماته الأولى، كان هذا بالنسبة له لعبة متكاملة، لا يصعب أن تغدو درساً، لذا التفت إلى نديم ولا تزال يداه مضمومتين في حضنه. كانت عيناه تلمعان من وراء نظارتيه وشبه ابتسامة على شفتيه وسأل:

– شو بتعني بالثورة؟

كان صلاح هكذا يقترح نقاشاً لساعتين. يبدأ بزحزحة شريكه الذي لا يعود يجد كلمة لنفسه في وسط النقاش، فيتسلمه صلاح كله ويمضي الوقت الباقي في الكلام وحده. عندئذٍ يبدأ الدرس. كنا أحياناً نصغي إليه مفتونين وهو يخرج أحجار الخصم واحداً فواحداً من اللعبة ويتركها خلواً له. لكن نديم لم يكن مستعداً لحديث طويل عن الشروط الموضوعية للثورة لذا قال:

– شو بدّك بالثورة. يللا نطلع على الجبل. كاسترو بلّش بسبعة، نحنا أكثر من سبعة.

لم ييأس صلاح. كان مستعداً لهذا أيضاً، مستعداً لكل نقاش. وضع رأسه بين يديه وكأنه يساعده على العمل. فجأة سمعنا دوياً، كان قريباً جداً كأن القذيفة سقطت وسط المنزل حتى إن طرفاً من الدخان هجم علينا في الغرفة. جفلنا جميعاً واتّسعت أعيننا لكن نديم كان أوّل من تمالك نفسه. استقام عوده على الكرسيّ وقال لصلاح الذي كان لا يداري اضطرابه. عبوس فظيع ملأ وجهه، عيناه تغضنتا، أنفه ارتفع وخدّاه كذلك وفغر فمه:

- هذي الثورة، إجا الجواب.

لم يبدُ على صلاح أنه سمع. ربما كره في الأساس هذا المزاح. كان العنف بالنسبة له نوعاً من التابو لا يجوز مسّه أو التهكّم عليه، فيما كان نديم يعتبره لعبة شخصية. لكم أحب أن يكون الأول الذي يتمالك نفسه، إنه امتحان شجاعة وقد استعجل أن يربحه. أنا الذي تتأخر ردود فعلي عادة بقيت في موضعي لم أتغيّر، لكني، والانفجار لا يزال في أذني، لم أجد كلمة أقطع بها الصمت. أما بيار الذي لم أنتبه له من قبل فقد بدا وجهه الجميل شاحباً. كانت عيناه مملوءتين بالخوف وإن لم يتغير سمته على الإطلاق. بقي يضع رجلاً على رِجل، وبقي قميصه تحت بنطلونه مفروداً بدون ثنية واحدة، وبالطبع لم تتأثر طيّة بنطلونه المستقيمة كحد الموسى، لكن اللون يكاد يصرخ في وجهه. كان معتكر العينين والخدّين وعندما تلاقت أنظارنا زاد اعتكاراً، لا بد أنه كان في حاجة إلى من ينظر إليه. ترطبّت عيناه فحوّلت وجهي عنه خشية أن يجهش، هو أيضاً كان يكزّ على أسنانه ليمسك دمعته. كنت أنظر إلى يديّ المتماستين وأنا أدير إبهامي على إبهام اليد الثانية، حين وصلني صوت نديم يكرّر سؤاله:

- ليش ما بنعلن الثورة؟

نظرت إليه وتلاقت عينانا فثبت عينيه على وجهي، كان يريدني أن أتكلم. لم أكن أعطي بالاً لأسئلة نديم إذ لا يخطر لي أنه يعنيها، لكني أجبت بدون أن أفكر:

- أنا ما بتهمني الثورات، وبعدين الثورة على مين؟

على مَنْ فعلاً، فالدولة شبه غائبة والميليشيات تملأ البلد والسلاح

في الأيدي وفي كل مكان. غير أن لساني سبقني وأنا أقول إن الثورات لا تهمني فذلك لا يليق أن يقوله شيوعي قديم مثلي. لم أكن مستعداً للنقاش فالحفرة التي أحدثتها القذيفة في الجو لا يمكن تخطيها بألهيات نديم. لكن نديم، ربما ليكمل الدورة، طرح السؤال نفسه على بيار الذي كان الدم عاد إلى وجهه، فلاح ظلّ ابتسامة على وجهه وهو يجيب.

- ما تسألني. بتعرف إني ما بحب العنف.

كانت فرصة نديم ليسخر:

- ما بتحب العنف. هاي قضية تانية، مش عارف كيف بدنا نحلّها. أنا كمان ما بحب العنف بس عندي قدرة على العنف. قول ما عندك قدرة، العنف ما بيجي بالحب، في أسباب تانية. العنف موجود كل ساعة وبكل شي، المهم شو بنعمل فيه. المهم نحوّله من ظلم، من عدوان، لشي إيجابي، لمطالبة بالعدل.

لم أسمع جواب بيار الذي لا شك أن وجهه اصطبغ وهو يجيب. لا بد أنه تعثّر بكلامه قبل أن يوافق نديم على ما قاله. كانت فرصة صلاح ليتكلم عن العنف. هذه المرة ألقى درساً حقيقياً وسكت الجميع أثناءه. كان حديثه، تقريباً، جملة واحدة وتقريباً من ست أو سبع كلمات يبني عليها باستمرار. يلعب بست أو سبع كلمات ويشوطها أحياناً إلى المرمى. كنا نتابعه، بيار أقلّنا انتباهاً وأنا متنبّه فقط لفنّه وتدويراته الكلامية. بالتأكيد كان نديم أكثرنا انتباهاً فهو لاعب كصلاح الذي لا يبدو عليه أنه يلعب ولا يريد أن يبدو لاعباً. ارتكز صلاح إلى عبارة نديم "العنف الايجابي" وحبك منها، كما لو أنها

وحدة زخرفية، نصّاً منمنماً. كان نديم صامتاً لكنه استغلّ وقفة من صلاح ليقول:

- بس أنا ما قصدتش هيك. ما في عنف إيجابي. الإنسان بس يملك بارودة بيفكّر يقتل.

كان صلاح قد أنهى درسه، وهو في مجال المزح لا يساوي نديم. لذا ضحك وقال فجأة:

- خلينا نشرب.

كانت فوق الطاولة التي لصق الحائط قنينة ويسكي عملاقة معلّقة من جانبيها بقوس بحيث يمكن إحناؤها للصّب منها. ذهب صلاح وأحضر كؤوساً مقعرة وسطل ثلج وسكب لنديم أوّلاً ثم لنا جميعاً وأخيراً لنفسه. شرب بيار الويسكي صرفاً بدون ثلج فيما سكب نديم فوق الويسكي كثيراً من الماء وأنا الذي لا أشرب في العادة الويسكي وجدت هذه الساعة في القنينة العملاقة دعماً لا يمكن رفضه. صلاح وضع كأسه في قبضته التي جمعها على الطاولة كأنه يستند إليها. مرّت برهة صمت ثمّ فاجأتنا الكهرباء المقطوعة منذ الصباح بأن أضاءت دفعة واحدة، واشتغل التلفزيون فجأة. كان الغروب قد بدأ يخامر جوّ الغرفة وأفرد كلاًّ منا عن الآخرين، لكن الكهرباء عادت فجمعتنا. التفتنا إلى التلفزيون. كان هناك إعلان عن حليب تترا، بعد الحليب إعلان عن بطارية، ثم إعلان عن عصير البندورة. داريت ضجري بالنظر إليها فيما الآخرون انصرفوا عن التلفزيون. وحده بيار الذي عاد لونه إليه بقي شارد النظرات. سمعنا دوياً بعيداً قال نديم إنه غالباً في المخيّم، ثم فوراً انقلبت الصورة على الشاشة وظهر المذيع

على التلفزيون ليعلن أن "قوّات العدو الإسرائيلي تجاوزت الشريط الحدوديّ المحتلّ وهي تتابع زحفها معزّزة بالآليات على ثلاثة محاور ودخلت قرى..." بقي المذيع يعدّد القرى التي على طريق الجيش الإسرائيلي. لم نكن مهتمّين بهذا التعداد فليس لدينا شك في أنه ما دام قصد، فسيصل.

خرج نديم وبيار وبقيتُ. كنا ثلاثتنا نديم وصلاح وأنا مدرّسين في ثانوية المدينة بخلاف بيار الذي يُدير مختبراً. صلاح أكبرنا سنّاً ويزيدنا جميعاً ببضع سنوات على الأقل. ربما لذلك كان المتزوّج وربّ العائلة الوحيد بيننا.

نديم السيّد

خرجت أنا وبيار من بيت صلاح. انقطعت الكهرباء بعد الخبر بقليل، ولم يتذمّر أحد فالاحتلال يحتاج إلى ليل كامل وطويل. كانت البيوت أيضاً مطفأة. لم نسمع حسّاً في الظلام، خلا الشارع بالتأكيد تماماً ولم نصادف أحداً حتى في الزقاق المؤدي إلى بيت بيار أو الزقاق المؤدي إلى بيتي. أودعت بيار في بيته وكان يجرّ قدميه إلى جانبي وبالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه. بعد الخبر أحضر صلاح الشموع لكني لاحظت أن بيار لا يطيق نفسه. كان وجهه يابساً بل إن جانبه الأيمن كان يرف فانتظرت قليلاً ودعوته للخروج. هل بيار جبان، إنه مهذّب لكنه ليس جباناً. كان معي في الصفّ وكان يحامي عن أخيه ولا يخاف من أحد. كان يحترم أوقات الآخرين ومشاغلهم. قد يكون أول شخص أعرفه يواعد أصحابه قبل لقائهم ويزورهم في ساعة محددة. إنه مرتّب وكتبه ودفاتره نظيفة وإذا استعار شيئاً أعاده كما أخذه. كان رياضياً وفي اللعب يهتف الطلاب له حين يرمي الكرة إلى السلة أو حين يشوطها إلى المرمى. وسامته ورشاقته

واجتهاده جعلته نجماً وتهافت الطلاب على صحبته. ليس جباناً، إنه فقط لا يطيق العنف، لا يحتمل كلمة خشنة حتى ولو سمعها في الشارع، تؤذيه كلمة كما تؤذيه ضربة، يخاف عنف الآخرين لأنه لا يملكه. لا يعرف لماذا تخرج الكراهية فجأة من صدر إنسان، لماذا يريد واحد أن يكسر عنفوان الآخر، أن يهينه ويقلّل منه. كان في الصف العاشر عندما تحطّط عليه معلّم مجنون، قد يكون كرهه لوسامته، وضربه بمنفخ البيسكلات على أصابع يده. أعطاه يده طوعاً و لم يفهم لماذا كرهه إلى هذا الحدّ. ظلّ غضبه في داخله و لم تخرج منه كلمة واحدة. حين حضر والده إلى المدرسة ليسأل المدير، شاهدناه وكان بعينيه الخضراوين ولونه القمحي نسخة عن ابنه، لكننا علمنا أنه طلب مقابلة الأستاذ وأغرقه بتهذيبه حتى أنه اعتذر له، واعتذر في الصفّ، وظلّ يعتذر شهرين كلما سُئل. كان بيار جنبي وشعرت بأنه يرتجف فحضنته وألقى رأسه على كتفي ونشج، هكذا خرج من صدره كل عكره. لكني أسأل نفسي لماذا بيار صديقي. هل تكفي الطفولة لنكون صديقين. نحن الذين لا يصدق الآخرون أننا معاً. تهذيبه مع، ماذا أقول، جرأتي. حياؤه مع جسارتي، لطفه مع طبعي الساخر. أحياناً لا أحتمل كل هذه اللياقة فأسخر منه، أقصد أن أجرحه، أقول له إن ليس فيه دم، لو كان فيه لأشهَرَ غضبه، لو كان فيه لفار قرفه من الحياة والناس، ليست الحياة حلوى لنأخذها بأطراف أصابعنا. يسمعني ويمتقع وأحسب أنه لن يعود لكني أراه في اليوم الثاني على بابي. هل هو، كما يقولون أحياناً، مثليّ، هل يظنوننا عشيقين، ليفعلوا، لست أهتم، ليقولوا ما شاؤوا، ليست

الكذبة الأولى التي يصدقونها. لا أهتم، بل أنا مرتاح لأنهم كالعادة يغرقون في شبر ماء. هل يكفي أن تكون عيناه خضراوين وأن نكون معاً لنصبح عشيقين. إنها صدمة لهم أن نكون كذلك وصدمة أيضاً أن لا نكون. لكني لا أهتم، حيرتهم تجاهنا تريحني في الحقيقة، أريد أن أبلبلهم، أشعر أن حيرتهم تجعلهم يبدون لي احتراماً زائداً، تجعلهم يخافونني. إنهم هكذا يظنونني لست من جنسهم، يظنونني خارج عرقهم كله. أصرّ أنا أيضاً على أن أكون دائماً مع بيار. رؤيتنا معاً تخيفهم لذا يحاولون، بأي طريقة كانت، استرضاءنا. يحسبون أنهم هكذا يروّضون الشرّ الذي يحسبونه فينا. يرون أن قواعدهم ليست سوى عيدان كبريت وبمجرد أن نطلّ معاً تتكسّر. يخافون هكذا من أنفسهم ويسترضوننا لكي نبتعد، لكي لا نجرّهم إلى حلبتنا.

لا أعرف تماماً ردّة فعلي تجاه الغزو الإسرائيلي، ماذا سأفعل حين أراهم صباحاً تحت شرفاتنا، لقد تجاوزوا الشريط الحدوديّ الذي لا أعلم لماذا ظلّوا طوال هذه السنين قابعين فيه. لا بدّ أنهم ضجروا من أنفسهم كما ضجرنا نحن منهم. لقد انتظرناهم أطول مما قدّروا واليوم يأتون، إنهم يتمددون هنا وهناك لكن رقعتهم تبقى مع ذلك صغيرة وأملهم يبقى صغيراً. أكره إسرائيل، أنا سعيد بذلك. هذا واحد من الأشياء القليلة التي أؤمن بها، إنها قليلة جداً لكني أخاف أن أفقدها، إني أدعم وجودي بها، أحياناً أستزيد منها، أخترع إيمانات من الهواء، أنا هكذا أتسلّح بها. الكلام يعني أن نخادع وأنا لا أهتمّ إذا خادعت، أنا في الحقيقة لا أتوقف عن أن أخادع، أفرح كثيراً إذا نجح خداعي لكني لا أهتم إذا لم ينجح. أبقى مصرّاً عليه وأترك

للناس فرصة وحيدة هي أن يقعوا أو يهربوا. أعتصم بخداعي ولا أتخلى عنه، لا أجفل ولا أقع على وجهي إذا انكشف، إذا انكشف أملك وقاحة التشبث به، حين أتمسك بخداعي أضع نفسي فوقهم، إنهم مجرّد مستهلكين لكذبي، مجرد ضحايا لخداعي. إذا لم يصدّقوني أعرف أن هذا مديح لي، إنني بالنسبة لهم لغز وسيحتارون كثيراً في أمري، سيتخبطون فيّ، سأكون أنا الطين الذي يغرقون فيه. أخادع وأرتجل خداعي. أرمي أول خدعة وأتركهم يتزاحمون عليها. أتركهم يدورون حولها. أن نسايرهم، أن نصْدقهم الكلام، ذلك يعني أننا من جنسهم! لست من عرقهم، لا أعرف من أين جئت، لكني من عرق آخر. لست من دم مختلف ولا رتبة أعلى، أريد مثلهم أن أجني مالاً وأن أحتلّ منصباً. أريد أن أجني كثيراً من المال حتى لو اضطررت لسرقته. المال وحده قيمة ولا يمكن أن نشتري شيئاً بالطيبة أو الإخلاص. أفعل كل شيء لكسبه لكني لا أكذب من أجل المال. أكذب فقط لأضحك على الناس أو لأحيّرهم، مجرد أن أفعل ذلك يجعلني أهم. حتى لو صدّوني أكون سخرت منهم، أكون برهنت أنني لا أدفع قرشاً لإرضائهم، أنني لا أشتري تقديرهم بفلس. كم أشفق على أولئك الذين يفعلون كل شيء ليكسبوا الرضا، الذي ربما يظهرونه لهم ليبادلوا به، محاباة بمحاباة. إنهم يتصنّعون ويتملّقون ويهينون أنفسهم، الآخرون يشمّون رائحة نذالتهم ويساعدونهم على أن يبدوا أصغر وأقلّ. يكافئونهم على ذلك بشيء لا يملكونه أساساً، تقدير رخيص، تربيتة كتف من النوع الذي يكونون أصدق وهم يفعلونه لحيواناتهم. أنا لا أطمح لأن يعطيني أحد من طرف يده

شيئاً بهذا الرخص. لست شحاذاً ليتصدّق عليّ أيّ كان، ولن أسعى إلى رضا يمكنني أن أحصل على خير منه ببهلونتي وخداعي. لا بدّ أن من يُخدعون يعبرون عن إعجاب صحيح لا يملكه من يتصدقون به على من يتسوّلونه منهم.

أعلّم تحت جمل قليلة فأبدو كمن قرأ الكتاب، لكن الذين يكدّون في قراءته بكل إخلاص لن يجدوا في ذاكرتهم منه جملاً أكثر. الثقافة لا تنفصل عن الخدعة، هنا يتبادلون الخدع ويسرقون من بعضهم البعض. أنا غشاش لكني لست ملحداً، أنا لا أؤمن فقط بالله ولكن أيضاً بالقومية والعروبة والدين وحتى الأدب، أنا محتاج إلى أن أدعّم نفسي بإيمانات كثيرة. أؤمن بالله، هكذا أتفوّق على المثقفين الذين يظنون أنهم أذكى حين لا يؤمنون. أؤمن أيضاً بالطائفة والمنطقة والعائلة، هكذا أسخر من المثقفين الذين يحسبون أنهم أهمّ منها. لكني مع ذلك مستعدّ لأن أزيد عليها الشيوعيّة والثورة والتحرّر الجنسي وحقوق الأقليات وأيضاً العمل الفدائي والعمليات الانتحارية، أنا محتاج إلى أن أجهّز نفسي بكل ذلك. أتأكد بسرعة من الأشياء، طالما أنها على طريقي. أتأكد منها ولا أطلب برهاناً فالثقة ضرورية ومن المهم أن لا نبدأ بالخوف منها. هذا يسمّم علاقتنا بالأشياء، وبعد ذلك لن يستطيع حتى الايمان أن يجعلنا آمنين في وجودها. أنا بحاجة إلى أمان كامل وإذا لم يكن فإن في وسع فرشاة أسنان أن تشكل تهديداً. لا نستطيع أن نبني على الشكوك فإنّ هذا يمرضنا ويجعلنا بلا أمان. لست قوياً لكني لست في معركة مع نفسي. أنا لا أخاف من الكذب وإن كنت لا أسميه كذلك، أنا أكذب فقط لأكون أهم، أكذب لأن

ليس لدي أي التزام ولأني لا أريد احترامهم ولا أحتاج إليه. لكني لا أكذب فأنا فقط أبتكر، أحياناً تكون الحقيقة مزرية وكريهة ومن الأفضل أن يقال شيء آخر. أنا لست في محكمة أحد ولا ألقي بالاً لأحكامهم. ليس خداعهم صعباً ولكني لا أكترث. إنهم نكرات فلماذا أجتهد لتسليتهم، لماذا عليّ أن أبهجهم، أي دَيْن لهم عليّ وأيّ حق، لم يفعلوا شيئاً لي فكيف أجعل لهم سلطة عليّ، لماذا أهتم بأن أكون عاقلاً أو عادلاً بالنسبة لهم، ما الذي يجعلني أسعى لتقديرهم. أنا مع إلهي وعروبتي وأدبي أقوى منهم، فلماذا أقف في محكمتهم كما أقف أمام الله. أنا حرّ تماماً منهم وفي وسعي أن أفعل أي شيء. يمكنني أن أدسّ وأن أخادع وأن أخون، بدون حساب لأحد وكل مرة أفعل ذلك أشعر أكثر بحريتي. أشعر بأني لست مسؤولاً أمام أحد وفي وسعي أن أفعل ما أشاء.

بيار مَدْوَر

عدت إلى البيت. ما إن علمت بأن الإسرائيليين بدأوا الزحف حتى صرت لا أطيق نفسي. حصت في مطرحي وشعر نديم بتوتري فوقف وخرجنا معاً، وحده نديم يشعر بي رغم ما يقال عن فظاظته، وحده نديم يقرأ وجهي بمجرد أن يراني. أستأذن وخرجنا، لا أعرف كيف كان وجهي عندها. لا أعرف إذا كان الرعب يجعله قبيحاً. أخاف أن تكون عيناي جحظتا وتجعّد جلدي، أخاف أن يتساقط شعري من الصدمة أو أن يلتوي وجهي. لا بدّ أنه رأى حنكي ساقطاً وكرهني، لماذا إذن سار جنبي صامتاً ولم يسايرني بكلمة. مشينا في الظلام وكنت أتمنى لو شبك ذراعه بذراعي، لكن هذه ليست حركات نديم ولا هذا نمطه. أشعل سيجارة وأخذ يسحب منها أنفاساً طويلة جعل اللهب يمشي بسرعة في جسمها ولم يسايرني بكلمة. فكرت أنه رأى الرعب في وجهي وكرهه، رأى وجهي قبيحاً وكرهه. كانت خطواته ورائحة تبغه تصلني ولم أعرف ماذا أفعل إلا أنني ذقت فجأة طعم دموعي التي سالت على أنفي وأسناني وشهقت. جاء إليّ ولفّ ذراعه

حول عنقي وأنا أسندت رأسي إلى كتفه وانتحبت، اندسست جنبه وبكيت وكنت أتمنى لو يأخذني إلى صدره لو يأخذني إلى حضنه، لكن هذه ليست حركات نديم ولا هذا نمطه.

فتحت الباب بالمفتاح. وجدت كتاباً متروكاً على كنبة في الصالون. إنها سميرة أختي تفعل ذلك دائماً. كان كتاب **حي بن يقظان** لابن طفيل. حملت الكتاب وأعدته إلى مكانه في المكتبة العربية، قسم الفلسفة وحسب الترتيب الألفبائي. دخلت إلى الحمّام لأغسل دموعي فوجدت تمثال فينوس دو ميلو من الجص وقع إلى الأرض وخسر قطعة منه، شعرت باستياء من هذا الإهمال. غسلت وجهي ووجدت أمي وأختي في غرفة الجلوس تشاهدان التلفزيون. كانت الكهرباء لا تزال مقطوعة لكنها مقطوعة معظم الأوقات، والبيوت استعاضت عنها بجهاز من النيون يقوم بتشغيل بطارية سيارة. سألتهما عن التمثال فقالتا إنهما وجدتاه هكذا ولا تعرفان ما الذي أسقطه إلى الأرض. لم أقتنع لكنني لم أجب. كانتا تعشيتا في غرفة الجلوس والصحون لا تزال على الطاولة، وما إن دخلت حتى عجلت سميرة إلى جمعها وحملها إلى المطبخ. جلست إلى جنب أمّي على الصوفا وكانوا لا يزالون في التلفزيون يذيعون خبر الزحف الإسرائيلي بدون أي جديد. تنقّلت بين عدة محطات لكن الخبر ظل هو هو. عزمت على الدخول إلى غرفتي. أضأت النيون ونظرت إلى لوحة فان غوغ التي تصور سريره وحذاءيه. نظرت أيضاً إلى تمثال بوذا الضاحك البدين. أفعل ذلك كلما دخلت إلى غرفتي، إنه واحد من طقوسي. خلعت ثيابي وارتديت بيجامتي المعلقة على المشجب. تناولت كتاباً

عن الفن الروسي من وسط سلسلة عن الفن وتأملت طويلاً لوحة لمالفيتش وأخرى لكاندنسكي، مع ذلك لم أشعر بالرضا. تناولت أيضاً كتاب **مذكرات دينار** للدكتور داهش وفتحته من وسطه وككل مرة أراجعه فيها شعرت بركاكة الأسلوب لكني عزيت نفسي بأن ذلك أشبه بحفظ جوهرة في خرقة مهلهلة، وأن هذه الركاكة هي طريقة الدكتور داهش في حفظ جواهره الحقيقية.

بالمناسبة أنا داهشي. والدي التقى في أوائل شبابه بالدكتور داهش وروى لي أنه أحيا أمامه عصافير ميتة، وأبلغه قبل يومين من السحب بالرقم الرابح في اليانصيب، ووجده مرة ساهماً ولما استوضحه عن السبب وقال له إنه مشتاق إلى خطيبته أعطاه علبة بافرا وصورة الخطيبة، التي لم يكن شاهدها، على غلافها. كان أبي داهشياً وفي كل صباح، أول ما يقوم به حين ينهض من نومه يحرق ورق كتبَ عليها الصلاة الداهشية. أنا داهشي حزين لا أمارس الطقوس، داهشي غير ممارس لكني أجمع كل الأديان في داهشيتي ولا أستنكر أياً منها. حتى لو أصبحت داهشياً كافراً فإن جميع الأديان تظل مألوفة لي وكأن لي ماضياً فيها كلها. لم أستطع النوم. الإسرائيليون يزحفون، وفي الصباح، ربما، ستقع القنابل وتنفجر وسط البيوت. سيطرطش اللحم البشري الحيطان. سنجد بقع الدم تحت الأسرّة والدماغ البشري على النوافذ. سيكون مألوفاً أن ينزع رأس إنسان، أن تسقط عيناه على التراب، أن يغدو أربع قطع، أن يختنق تحت الأنقاض. أخاف كالجميع وربما أقل منهم. لم أتربَّ بالعنف لكني لا أطيقه. والدي لم يرفع يده عليّ وأمّي لم تقاصصني بالضرب، لكني

لا أطيق العنف. لا أحتمل أن يتدهور إنسان إلى حدّ أن يصير تحت إرادة إنسان آخر، لمجرد أن هذا يلوي إرادته بالقوة. لا أطيق أن أرى رجلاً ينقلب إلى أظافر وأنياب. أن أرى حياة كاملة تتحول إلى بقعة دماء وعظام مكسورة. لا أطيق أن يعوي إنسان كالكلب أو يتحول فعلاً إلى كلب مضروب، أن يصير كلباً للآخر ويشمشم قدميه. أن يصبح علبة للألم ويغدو الألم في لحظة نقطة وجوده. في الصف كنت حين يضربون تلميذاً أمامي أشدّ على أسناني لأمنع دموعي من النزول خاصة وأنا أشعر أن عيني تندتا بها. لكن المرات القليلة التي ضربوني فيها لم أصدر صوتاً و لم أبكِ. لقد وقفت أمام الأستاذ الذي ضربني بمنفخ البيسكلات ساكتاً. لم أشد على أسناني لكي لا أبكي فمنذ اللحظة الأولى لم أهتم بالألم و لم أجعل منه مركز وجودي. لقد نقلت نفسي إلى مكان آخر فصار الضرب لا يقع على صميمي وصار الألم في أطرافي و لم أعد أشعر به في عقدة وجودي.

حبيبي، نديم حبيبي. أناديه في سرّي هكذا. لو رفعت صوتي به، لربما ضربني. ألاحظ أنّه يتجنب أن يعانقني، يتظاهر بأنه لا يعرف، بالتأكيد هو يعرف ويغطي على معرفته بأن يتجنب معانقتي. إذا اضطر لذلك، كما حدث يوم عدت من موسكو، يحاذر أن يتماسّ جسدانا ويمسّ بشفتيه جبيني. لو أستطيع لأكلتهما. التقينا أول مرة في الصف. كنا معاً في التاسعة، أنا طالب جديد وهو، تقريباً، بل فعلاً، الزعيم. لم يكن عنيفاً ولا مشاكساً لكنه الزعيم. يومها لم أعرف لماذا سحرتني عيناه المقوستان، لماذا أعجبني جسده الممشوق الذي كان رغم نحوله مرصوصاً من الداخل. من اللحظة الأولى

بسط عليّ حمايته وأنا استسلمت تماماً لها. عشت في ظله منذ ذلك الحين وصرنا نكبر معاً، سنة بعد سنة، وصرنا شباناً. كان عوده يشتدّ، وعودي يمتلئ. حين كنا نبدّل ثيابنا لساعات الرياضة، كنت ألاحظ عضلات صدره التي تقسو وتتوتر وبطنه التي تتصلّب وعضلات يديه التي تنفتل وكتفيه اللذين يعرضان. كنت ألاحظ أكثر ما ألاحظ حوضه الواسع والحاضن وأتمنى أن يحيطني به. نعم حوضه بساقيه المشدودتين وعمقه الغامر وسعته، وأشتهي أن يحيطني به. كبرنا سنة بعد سنة وعرفت أثناءها نفسي. عرفني، كما أظن، على حقيقتي وحين يقول لي من وقت لآخر "يا بيار قول لأهلك يجوزوك" أعرف أنه هكذا يغطي على معرفته. أنني في ظله ولا أزال. الآن أنا تابعه ولا أريد شيئاً أكثر. أعرف أنني أحرجه أمام الجميع. أحياناً يغضب مني ويطردني، يقول لي "حل عني، روح من وشي، ما بعد بدي شوفك" وأنا أنسحب من أمامه وأذهب إلى بيتي. لكني مصمّم على أن لا أتركه. إنه حبيبي، صحيح أنه لا يعرف، لكن أنا أعرف ولا أريد منه شيئاً. لن يحصل أي شيء بيننا، أنا لا أزال فقط تحت حمايته. يكفيني أن أرى كل يوم عينيه المقوستين وكتفيه المديدين ومشاقته وخاصة حوضه، يكفيني أن أكون بقربه، أن أكون في ظله. لا أطمع في حبه، أعرف أنه ليس مثلياً لكني أريد أن أبقى تابعه. الحب الأفلاطوني، الحب العذري، قرأت عنهما، لماذا لا يكون ما بيننا حباً أفلاطونياً أو عذرياً. على الطريق تحرّش بي أكثر من واحد، سايرتهم لكن فهمت بعدئذٍ أنهم يريدونني فقط هدفاً لاحتقارهم، يريدونني لإذلالي. انسحبت وفهمت أنه أنسب لي أن لا أتورّط مع أحد، أنسب لي هذا

الحب الأفلاطوني العذري مع نديم. إني أضع نفسي في ظله، أسمح له أن يتصرف، بي، كما يشاء، يريدني فآتي، يطردني فأنصرف، لكنني دائماً بانتظار إشارته. إنه يتظاهر بأنه لا يعرف ما أنا فيه، أعرف أن هذا من صداقته لي. الآخرون يتكلمون وكلامهم يصله، لكنه لا يهتم. إنه فظّ قليلاً وساخر فهذا العالم يريده أن يكون كذلك، لكنني أعرف أنه نبيل. أفكر أحياناً أنه قد يكون يغطي على نفسه، قد لا يكون يعرف نفسه إلى الآن. لكن هذه مجرد أمنية. سأبقى إلى الأبد تابعه وفي ظله.

الإسرائيليون يتقدمون على ثلاثة محاور. أنا خائف، إنه الخوف الذي يشبه انتظار وباء. الخوف الذي يجرّد الحياة من كل حصانة ويجعل من كل يوم مخاضاً صعباً. يعيدني إلى العمر الذي اكتشفت فيه أنني في لحظة ما لن أعود موجوداً أو إلى ذلك النهار الذي أوهموني فيه أن ثمة غزواً من مصّاصي الدماء الآتين إلى المدينة لشرب دماء الأولاد. عندها جمدت في موضعي ثلاثة أيام طالما أن لا سقف ولا حائط يحميني. لم أقدر على النوم هذه الليلة فأمضيتها صاحياً. لم تكن آلياتهم أو أسلحتهم هي التي تخيفني بل هم. ثمة سوء تفاهم مسبق سيعمل ما إن نتقابل، لن نتبادل كلاماً ولن نتعارف، لا حاجة إلى ذلك فالعداوة تعني أن بيننا تاريخاً وأننا تقابلنا طويلاً قبل أن نلتقي. العدو، من الأفضل أن نختفي عنه. إنه جزء من أسطورتنا الشخصية، نخترعه كما نخترع الشيطان. أنا بالطبع مهتم بفلسطين التي جاء منها الدكتور داهش كما جاء منها أنبياء التوراة، لكننا جماعة صغيرة جداً وأصغر من أن نتشبث بوطن أو بأمّة. الجماعات

الصغيرة كجماعتنا ولاؤها لنفسها ولا تعيش بسهولة في مكان يطلب منها فيه ولاء آخر. إنها تهاجر باستمرار وبالفعل اختارت جماعتنا كندا وفي بضع سنين صارت كلها هناك. وأنا، يتصلون بي دائماً ويلحّون عليّ أن ألتحق بهم، لا أعرف متى أفعل ذلك. حبي لنديم هو كل ما أملكه هنا، وأنا باقٍ لأجله. المختبر الذي ورثته عن أبي لا يهمني كثيراً، غيري ترك ما هو أثمن منه وهاجر. أختي تعيش أيضاً هناك، مع زوجها وأولادها. أمّي وأختي الثانية يريدانني أن أبيع كل شيء وأسافر. لا أعرف إلى متى أمانع، هل يكفي هذا الحب غير المتبادل لأبقى. ربما نجد الإسرائيليين غداً تحت شرفاتنا. سيصلون بعد معركة وقتلى. سيصلون بعد أن يشربوا من دمائنا. سيصلون أعداء، وأنا الذي يبقى هنا، سأرى العداوة في عيونهم. سيكون هذا سبباً لأبقى لكني لن أبالي. إذا لم يكفني الحب فلن تكفيني العداوة.

صلاح السايس

ما إن تأكدت أن الإسرائيليين قادمون حتى تعرضت لواحد آخر من امتحانات الايمان. اهتزت ثقتي بحزبي الشيوعي وبنفسي. الإسرائيليو ن سيصلون. ماذا فعل الحزب الذي قام منذ سبعين عاماً لهذه الساعة. ماذا فعل لكي لا تحصل. لم أقل شيئاً لفواز الذي بات ليلتها عندي لكنه، لا بد، لاحظ أني لم أردّ على تشاؤمه وعلى سخريته. نهضت وحملت له حراماً صوفياً ووسادة وضعتهما له على الصوفا ودخلت لأنام. بقيت وقتاً أسمع طحشته في غرفة الجلوس المقابلة لغرفة نومي ثم غلبني النعاس، لكني وأنا على حافة النوم سمعت دويّ انفجار أظنه في المخيم فصحوت. هذه المرة عدت إلى التفكير في الحزب والحركة الوطنية. تضعضع إيماني، لكنها ليست المرة الأولى، يحصل لي أن أتساءل عما إذا كان الحزب أخطأ، إذا كان الحزب يمكن أن يخطئ. لكني سرعان ما اعتصمت بفكرة أن الحزب في موقعه التاريخي المتقدم لا يستطيع أن يخطئ، إنه على صواب حتى حين يغلط لأنه حينئذٍ يفعل الأفضل ضمن

تعقيد الشروط الموضوعية، أفضل ما تسمح به تلك الشروط وما تتيح رؤيته. فواز يرى أن هذه هي العصمة وهي مبدأ شيعي. فالإمام لا يخطئ وإن لم ينجح لكن الحزب كما يقول فواز لا يميز بين الصواب والنجاح، إنه يريدهما معاً. لم أقل لفواز إن تشبيهه لا يقلقني. المقارنة بين الحزب وبين الحركة الشيعية لا تزعجني. الحركة الشيعية هي مثالنا التاريخي وعلينا أن نتعلم منها ومبدأ العصمة هو بالتأكيد مبدأ ثوري. الشيعي بل الصوفي هما من نماذجنا الثورية وعلينا أن نبني عليهما. لم أقل ذلك لفوّاز ولم أقله لأحد. لست حتى متأكداً منه لكني متأكد من أن تربيتي الثورية استمدت كثيراً من هذه النماذج. سمعت دوياً آخر، هذه المرة كان قريباً وشعّ من خلال الفتحات التي في خشب النافذة. اهتزّ البيت لكني شعرت بأنه يحرّرني من نقاشي الداخلي، وبالفعل داهمني النوم بعد قليل.

الإسرائيليون قادمون. دباباتهم وآلياتهم تزحف. ثمة زورق حربي يرابط في البحر في مواجهة المخيم وهو يقصف من هناك. شعرنا في الليل بهدير المروحيات فوق المدينة. الحزب مقتنع بأنهم سيحتلون. الأمين العام اتصل بي الحادية عشرة ليلاً وقال بتقديره إنهم سيدخلون غداً، وبعد غد. قال إن المكتب السياسي قرر أن أنسحب أنا وقيادة الحزب من صبح غد، قرر أن لا نترك في المدينة أيّ حزبي معروف، فالمكتب يقدر أنهم سيعتقلون من فورهم كل مؤيدي المقاومة، وسيبقون إلى أن يطمئنوا إلى خلوّ المنطقة الكامل من المقاومة وأنصارها. يريدني الأمين العام أن أغادر. هذا أمر، عليّ فقط أن ألبّيه، لكني لم أقله لفوّاز. تلقيت قرار الحزب وسكتّ عليه.

فواز رفيق سابق لكنه منذ أعوام بعيد عن السياسة وليس عليه أن يغادر، ثم إنني خشيت من ردّة فعله. سيقول لي بالتأكيد لماذا أيّدنا المقاومة إذا كان قرارنا أن نتركها وحدها، بل لماذا تمركزت أساساً في البلد وعرّضته للاحتلال إذا كنا سنخرج لدى أول مواجهة ولن ندافع عنه. أنا متأكد من أنه سيقول لي لأني أنا أيضاً قلته لنفسي، لنفسي وحدها لا للأمين العام. ما دام هذا قرار القيادة فلا بد أن وراءه سبب نجهله. لا بد أن تقدير المكتب السياسي ليس اعتباطياً. الاحتراس ليس باستمرار مبدأً غير ثوري إذا كان المقصود منه حماية جسم الثورة ووقودها، هكذا قلت لنفسي. عدت للفكرة الأساسية: الحزب لا يخطئ ولو لم يكن قراره ناجحاً. لا بد أنه أفضل المتاح في لحظته وفي ظرفه. الحزب لا يخطئ، قلت لنفسي ساخراً: إنه الإمام، إنه قطب الزمان، هكذا علينا نحن الحزبيين أن نؤمن. فواز غير واثق، أنه يقول لي إن من يقرر شخص واحد، الأمين العام وهو كما يعلم لم يجتز امتحان البكالوريا، يقول لي إنه لو كان لا يخطئ كان أقلّه نجح في البكالوريا. أضحك له حين يقول هذا لكني في قرارتي مريد والطاعة، نعم الطاعة، لماذا أنكر، جزء من تربيتي الثورية، علينا أن نطيع، لا نستطيع أن نمتحن الأمين العام في الأدب وفي أي مادة دراسية أخرى، عند ذاك سيكون هو نفسه الذي يجيب. إنه يغلط بدون شك ما دام لم ينجح في البكالوريا، لكنه حين يقرر سياسياً، سيكون الأمر مختلفاً. حين يقرر عن الحزب الذي هو في موقع تاريخي متقدم، الحزب الذي هو في الموقع الذي نرى منه أفضل وأصحّ، لن يكون هو نفسه، طالب البكالوريا

الفاشل. سيكون إرادة هذا الموقع ولسانه، سيكون الحزب هو الذي يقرر وهو الذي يتكلم، سيكون فعلاً قطب الزمان والإمام.

فوّاز أسعد

في الصباح لم نجد الدبابات الإسرائيلية تحت الشرفات، الإسرائيليون صعدوا إلى المعلية وتوقفوا هناك، وصلوا إلى السماعية وتوقفوا، إنهم على مسافة 30 كيلومتراً من المدينة ولا نعرف متى يقتحمونها. بقيت المدينة مفتوحة من جهة الجسر ومن يريد النجاة بجلده عليه أن يسلكه. لكن الصباح حمل أنباءً أخرى، غادرت قوات فتح المدينة قبل أن يحكموا حصارها. انسحبت في ظلام الليل. كثيرون استيقظوا على حركة الآليات ووقفوا على شرفاتهم يتفرّجون. شاهدوا رتل شاحنات وعربات تغص بالمسلّحين المستندين إلى سياجاتها وبعضهم عاد إلى نومه ما إن أرخى ظهره على السياج. كانت الأسلحة مسجاة على الركب، لولا المناسبة لكانوا لوحوا بها من فوق رؤوس المارة. بعضهم لم يشعر بالفرق ولوّح بها للواقفين على الشرفات. في الصباح كانوا صاروا في بيروت. بدت الشوارع قفراء فقد تأخر الناس عن النزول من بيوتهم، حتى الدكاكين تأخر أصحابها عن فتحها. عند الصباح الباكر لم يكن هناك ظل إنسان في الشوارع، وعندما حميت

الشمس بدأ الناس يتوافدون وبسرعة امتلأت الشوارع بزمر صغيرة تتكلم، وليس بدون غمز، عن رحيل المسلحين. طويت الحرام على الصوفا وانسللت من الباب قبل أن يستيقظ صلاح الذي لا يصحو قبل العصر وصادفت ما إن صرت في الشارع جاره نبيه الذي بادرني "وينو، الأستاذ مش شايفو، قولك راح معن"، ولما قلت له إنه لا يزال نائماً لم يكتف:

"نايم إي الله يهنيه، نحنا المش جايينا نوم من خوفنا. كيف بدّك ننام والقنابل فوق روسنا. ولادنا مش قادرة تنام. الطفالى خايفة. واللي جابولنا هو المصيبة تاركينها علينا. هلق جايين الجماعة واللي هني أصل المشكل هربوا بليلة ما فيها ضو قمر".

لم أجب، تركته يرفع عنقه من بزة الرياضة التي لبسها ويهزّ جذعه النحيل ويقلب عينيه وشفتيه. كان منذ عام منخرطاً في الجبهة الشعبية - القيادة العامة وكان كلما لاقاني يرفع عنقه الطويل من ياقة قميصه ويقلّب أصابعه وعينيه وشفتيه وهو يقول لي:

- قال تنظيم لبناني. حاج يعتلوا على ظهر الفلسطينيي. أحسنلن يفوتوا جوّاتهن. شو الفرق، كلنا عرب.

هو الآن يقطر عصبية لبنانية وأنا، الذي احتفيت مثله بدخول المسلحين الفلسطينيين إلى جنوب لبنان، شكرتُ في سرّي فتح لأنها وفّرت معركة كهذه على البلدة. لكنني كنت أيضاً أسأل نفسي ما جدوى دفاعنا عن السلاح الفلسطيني إذا كنا نشكر لهم أنهم يغادرون في ساعة الصفر، أو إذا كنا لا نجدهم في هذه الساعة. كان

نبيه واقفاً وسط جمعة من أربعة أشخاص، صادف أنهم جميعهم كانوا معه في الجبهة الشعبية - القيادة العامة. كان أحدهم القصير المرتدي ثياباً كاكية شبه عسكرية أكثرهم حدّة، يكاد يقفز وهو يقول "بدهن يانا نحارب عنهن وهنّي يتمخطرو ببيروت، قوايا علينا بس" والجملة الأخيرة ينطقها من بين أسنانه التي يكزّ عليها. وقفت معهم ولما استحثني أحدهم لأقول كلمة، صعب عليّ أن أقول الآن ما لم أقله منذ عامين، لذا أجبت مداورة.

- بعد بكير نقول رأي. خلينا نشوف إذا عندن سبب ليتركوا البلد. الحرب فيها كرّ وفرّ.

أجابني القصير وهو ينتفض.

- أيّا كرّ وفرّ يا أستاذ. هَوْ جابولنا الإسرائيلي وتركونا، شو بدّك أكتر.

كانت الأصوات عالية، وفي كل زمرة من يرفع صوته ويؤشر بيديه كمن يلقي خطاباً. وإذا مرّ واحد قريباً يلقى عليه السؤال نفسه، وفي الغالب ينضم هذا للزمرة ويشارك قبل أن يتابع سيره.

- شو قولك يا أستاذ. معن حق يجيبلونا الإسرائيلي ويتركونا.

كانت الأصوات تتقاطع بين الزمر وتتفق على نفس الكلام تقريباً "ما إلهن حق، ما بيسوا، هاي مش بلادهن ليدافعوا عنها. نحنا اللي فوّتنا الدبّ عكرمنا ومن هلق ورايح لازم نلقى".

فجأة وصل شاب صغير ذو وجه منقّر وشاربين بالكاد تخططا. كان يرتدي قميصاً رمادياً بياقة بيضاء وبنطلوناً أسود وقف في الشمس وصاح وسط الزمر:

- "الجبهة" كمان عم تترك.

ومشى فمشى وراءه الموجودون وقطعوا البورة التي تفصل عن الشارع بخطوات عجولة. كان الشاب في المقدمة وما زال يصيح "الجبهة كمان عم تترك". نفذنا إلى الأوتوستراد هناك رأينا قبالة مركز الجبهة ثلاث شاحنات مليئة بالمسلحين أولاها ترفع علم الجبهة، ورابعة مملوءة إلى نصفها وما تزال مفتوحة، فيما كان بضعة مسلحين يعدون باتجاهها وأحدهم وضع كلاشنكوفه في مقدمتها ويحاول أن يصعد إليها على يديه. تجمعنا تحت شجرات السرو المرتفعة أمام المركز. لم يثر وصولنا فضول المسلحين ومعظمهم لم يرشقنا حتى بنظرة. بقوا متبلدين في مواضعهم فوق الشاحنات، أما نحن فوقفنا ساكتين ننظر إليهم. ابتلعنا احتجاجاتنا ما إن رأيناهم، تجاسر أحدنا، كان كهلاً يضع منديلاً وراء ياقة قميصه ويضع فوق عينيه نظارتين سميكتي الزجاج، سأل لا أحد:

- لوين الشباب، انشا الله؟

لم يأتِ أي جواب، لكن بضعة شبان التقطوا السؤال وتردّد السؤال نفسه من مواقع عدة على الطريق:

"لوين الشباب، لوين الشباب، لوين انشا الله".

لم يصل أي جواب. وصل شخص مستعجل وضع كلاشنكوفه على حافة الشاحنة الرابعة وصعد بسرعة. أغلقت الشاحنة، وبعد قليل سمعنا هدير الشاحنات التي بدأت بعد قليل سيراً بطيئاً ما لبث أن تسارع. مرقت بسرعة سيارة جيب، كان في داخلها رومل قائد الجبهة وسرعان ما صارت في مقدمة الموكب. بقينا. كان تردّد همس

بأن المنظمات الأخرى تتهيّأ أيضاً للرحيل. امتد الوقت حوالى نصف ساعة، بعدها وصلت شاحنتان مسرعتين و لم تتوقفا حتى للتصفيق الهازئ الذي علا من جانب الطريق. تعاقبت الشاحنات وسيارات الجيب واختلطت الأعلام وعلا التصفيق المفتعل لكن بلا ردود من جانب المقاتلين. لكن في لحظة وقف أحدهم فساد صمت، كان طويلاً ونحيلاً وذا وجه مبثّر. رفع كلاشنكوفه في الفضاء فتراجعنا إلى ما وراء الشجيرات، أطلق رشقاً في الفضاء، وعاد فجلس بين زملائه. بعده وقف شخص قصير وسط الشاحنة وأطلق رشقاً في الفضاء. تبعه ثلاثة ثم صرنا نسمع الرصاص غزيراً من الشاحنات المسرعة. وصلت شاحنة ومن فيها يرفعون كلاشنكوفاتهم وينشدون. لم يعد للتصفيق المفتعل المعنى نفسه، توقفنا عنه وأخذ الواقفون ينصرفون، واحداً واحداً في البدء ثم زرافات، وخلا الشارع فيما الكميونات لا تزال تمرّ ناقلة المسلّحين.

قطعنا البورة وتراجعنا إلى الشارع الخلفي. كنت أسير و لم أنتبه إلى أن جار صلاح ذا البزّة الرياضية يسير جنبي. كان مطرق الرأس مستغرقاً في حاله وحاولت أن أستفزّه إلى الكلام:

– قولك وين بيكونو رايحين؟

لم يكن هناك أمامهم سوى بيروت، لكن نبيه نظر إليّ بعينين فارغتين و لم يجب.

– رايح فيّق جارك، هيئتو بعدو نايم.

مرة ثانية لم ينجح استفزازي. نظر إليّ نبيه ثم جرض بريقه وبدا أنه يبتلع صوته، خرج منه صوت لم يلبث أن حبسه. لم أفهم أنا هذه

الطلاقة التي واتتني. في مكان ما من نفسي كنت مرتاحاً للانسحاب الفلسطيني... لقد وفّروا على المدينة معركة. لكن الوضع كله كان تعيساً وباعثاً على البكاء. كانت هذه أعجز مدينة في العا لم، لقد غلبها السلاح الفلسطيني أما السلاح الإسرائيلي فسيدمرها. كنا كحالنا تحت الشجيرات مجرد متفرجين على عجزنا، ضاحكين من أنفسنا. حولنا البؤس إلى زمرة مهرجين، قتل فينا الإحساس وجعلنا فخورين بعجزنا. كنت أمشي إلى جنب نبيه وقد أعتم داخلي، حين سمعت نهنهة من خلفي. ظلت النهنهة تتصاعد وتحولت إلى أنّة عالية تبعها إجهاش ترجّع في صدر صاحبه وما لبث أن انفجر في نحيب اختلط بالأنين. نظرت فوجدت سليمان السيّد الأحمر الشعر الذي يعمل مدرّس رياضة في ثانوية "العلوم" ويدرب فريق "التعاضد" للفوتبول. كان سليمان في البدء حلاقاً يعمل في دكان عمّه، واستطاع بشهادة الموحدة السورية أن يدخل إلى الجامعة وأن يتخرج منها. لم يكن سليمان طلقاً في الكلام، ربما لذلك حبس مشاعره التي انفجرت في نوبة بكاء، ما لبثت عدواها أن وصلت إلى شريكه في السير حمزة المصري الذي بدون استعداد غرق في البكاء. بقي شهيق الاثنين وتنهداتهما يترددان في الموكب وقتاً قصيراً تبعه بكاء في الوسط مع أصوات مبهمة، ثم تسارع انتقال البكاء فانفجر اثنان معاً في الوسط وتبعهما اثنان في المقدمة. التفت السائرون إلى الذين يبكون وما لبث البكاء أن شمل البعض الذين تكسرت أصواتهم واجتلبت معها بكاء من كل ناحية. وفي لحظة تحت شمس البورة الساطعة وفي وضح الصباح تحوّل الموكب الذي ينتقل إلى الشارع الخلفي إلى موكب

باك. وحين قطعنا البورة وصرنا في الشارع الخلفي، رأيت الشرفات ملأى بأشخاص معظمهم من النساء والأطفال، كان الأطفال أول الذين صعد بكاؤهم وما لبث النساء أن بدأنَ ينتحبن على الشرفات. كنا في الشارع ننتحب والناس في الشرفات ينتحبون وصعد صوت باك يعاتب الله "يا الله. ليش عميصير فينا هيك". هذه الصيحة كانت إيذاناً بموجة ثانية من النحيب الذي لم يعد أحد يحبسه أو يقطّعه، لقد غرق الجميع تقريباً في بكاءٍ حرّ. حجبت غيمة الشمس فضلّل المكان فيء كسف النور الساطع وبدا أن حزن الجمهور كوفئ وأن السماء تلقته. هبت نسمة باردة في الشارع فبدأ البكاء يتراجع، وبقي هناك ثلاثة أو أربعة أصوات ما لبثت هي أيضاً أن انطفأت. أخذ الحاضرون يتفرقون ولم يبقَ في الشارع سوى زمرتين أو ثلاث، ابتدأت كأنما تواصل حديثاً انقطع:

- الشباب رايحة تحرر. خوش شباب.
- رايحين ع المعركة. عميقوصوا ويغنوا.
- يا الله، تاركينّا على الله.
- الله كبير ما بيقطع حدا.

* * *

كان صلاح يتثاءب ويسد فمه الفاغر بيده كأنما يخشى أن تفلت ذبابة إلى داخله. عيناه اللتان نادراً ما لا أراهما من خلف النظارات كانتا أقل مضاءً وحدة وسط جرنين خابيين. كنا قبل الظهر، في الحادية عشرة تقريباً وليس من عادة صلاح أن يستيقظ في هذه الساعة، فهو يقضي

الليل ساهراً يقرأ ويكتب ويمضي ثلثي النهار نائماً. أما الآن فكان وراء طاولة الطعام الكبيرة وعلى كتفيه عباءة بلون القرفة لكن رأسه محصور في قبعة عسلية. ذلك يعطيه سمت حاج ورع، و لم يكن هو غافلاً عن هذا الالتباس أو كان بالأحرى يتقصده، إذ لا يسوؤه على كل حال أن يبدو إماماً أو شيخ طريقة، ففي حزبه الشيوعي كان بلغ درجة الاجتهاد وبات مرجعاً في المسائل النظرية يستفتيه الرفاق فيها. كانت كأس الشاي أمامه حيث وضعتها زوجته وهو ينتظر أن يتوقف حنكه عن التثاؤب وأن يتوفر له الجَلَد على شربها. صبّحته فردّ بطرف يده قبل أن يجد صوته ويرد تحيتي بغمغمة مبهمة. جلست وأحضرت لي زوجته التي لا تزال بالبيجاما الزهرية كأس شاي، جلست أشربها مترقباً أن يتكامل صحو صلاح الذي لم يستمع إلى زوجته وهي تقول له إن الشاي برد. كان يبذل جهداً حقيقياً ليصحو وبصعوبة استطاع أن يمسك كأسه التي مسّها تقريباً بشفتيه قبل أن يعاود حملها إلى فمه والشرب منها. أخبرت صلاح بانسحاب فتح والمنظمات الفلسطينية فلم يتفاجأ، قال إنه قرار اتخذته المقاومة الفلسطينية والأحزاب اللبنانية وقلت محتداً:

– هذا مش قرار، هذا مسخرة. مش حباً بالحرب. أنا ما بدي ياها. بس إنو يجيبوا سلاح ويعملوا عمليات، شو ناطرين إنو الإسرائيليي يسكتوا. لشو إجوا إذا وقت الحرب بيهربوا وبيتركونا لوحدنا.

بدا لي صلاح محرجاً لكنه لم يطق الحرج طويلاً. سرعان ما وجد جوابه.

- هيذي طفولة يسارية. شو بدك نتذبح كلنا. هيذي مش حرب كلاسيكية. هيذي حرب حركة بيهجموا بنفل، بيفلوا بنهجم. ميزان القوى مش لصالحنا. نحنا بنعرف وهني بيعرفوا. ما إلنا قدرة عليهم. بس هذا ما بيعني إنو نسكت وما نقاتل.

كان صلاح وجد حجة، وسيكون بالتأكيد أول من يقتنع بها. إنه الآن متحمس لها، لا بد أنه قضى ليلة وهو يفكر فيها، يقلبها على وجوهها وفي النهاية يخترع الدفاع الذي لا تجد قيادة الحزب أفضل منه. لم أرد أن أستسلم. أجبت:

- حرب حركة، يطلعوا عَ الجبل، مش يحملو سلاحهن بين الناس.

رويت لصلاح النحيب الجماعي الذي حصل قبل قليل، تأثر كثيراً وسقطت دمعة من عينه فيما شهقت زوجته بالبكاء. بدا الدمع متناسباً مع عباءته وقبعته، بل بدا متناسباً مع شخصه، فبالرغم من ثوريته كان القهر والعجز أقدر على مخاطبة روحه، بل كان الشعب بالنسبة له هذا الكمّ من القهر والعجز. شيوعيته كانت تقريباً كذلك ففي أعماقه كان التفجع يغلب على الغضب.

لم يطل تهيؤ صلاح وزوجته للسفر، دخل وعاد مرتدياً ثيابه، أمضى وقتاً قصيراً ينتظر زوجته حتى تنتهي من استعدادها. لفتني أن الاثنين ارتديا سترة جلدية من اللون البني الغامق نفسه، دسّ كتابين وأوراقاً في حقيبة صغيرة، ودّعتهما وخرجا.

ذهبت إلى بيتي المطلّ على البحر وكان الزورق الإسرائيلي المواجه منذ أيام عدة قد اختفى، لكن الخبر الجديد الذي لهج أهل الحيّ به

هو أن الإسرائيليين وصلوا إلى الجسر، صارت المدينة مطوقة من كل الجهات، لن يستطيع عصفور أن يعبر خفية عن الإسرائيليين. فكرت بصلاح، لست أكيداً من أنه اجتاز الجسر قبل احتلاله. تلفنت إلى بيته، لم يجب أحد. بعد ربع ساعة عدت وتلفنت، هذه المرة أجابتني زوجته هالة. قالت إن السائقين الذين صادفوهم على الطريق ردّوهم قبل الوصول إلى الجسر، كان الإسرائيليون هناك من ساعة. صلاح فور عودته دخل ونام ولا يزال نائماً.

نديم السيّد

الإسرائيليون على الجسر. المدينة تحت الحصار. هرب الفلسطينيون فماذا يريد الإسرائيليون منا. خرج الفلسطينيون لكن اللبنانيين الذين حملوا البنادق معهم ما زالوا يبرطعون في الأحياء القديمة. ما عدنا نسمع فرقعاتهم لولا رشق من هنا أو هناك كل ساعتين. هكذا يغدو الجو أهدأ ويكون في مقدورنا أن ننام ملء جفوننا بدون أن نستيقظ فزعاً في أنصاف الليالي على مطاردة بالرصاص، أو إصبع ديناميت ينفجر وسط كوم النفايات. الفلسطينيون صاروا في بيروت فليلحقوهم إلى هناك. أما اللبنانيون الذين حملوا بنادقهم فأنا الضامن بأنهم في خدمة كل من يعطيهم بندقية يهولون بها على أهل بلدهم.

بيار نقل إليّ الخبر. هو أول من تصله الأخبار المزعجة، لديه أذنان طويلتان لالتقاطها. حمل الخبر ودق على بابنا. كنت لا أزال نائماً، ترددت أمي في إيقاظي فأنا "الأستاذ" ولا يحق لأي طارق أن يفسد راحتي، ثم إنها، لسبب غامض، لا تحب بيار وترى أنه لا يليق بعشرتي. أمّي تجده ناعماً كالبنات ولا تحب لي أن ألازم رجلاً كامرأة،

هذا يستجرّ كلاماً غير مقبول في بلدة صغيرة تغلي بالشائعات. أخي الذي رأى بيار مضطرباً بين يديها، دخل وأيقظني.

وجدت بيار موهولاً، الإسرائيليون طوقوا المدينة، والفلسطينيون تركوا. إنها الحرب. قلت لبيار:

- لأ هلّق فيك تتطمّن. إذا الفلسطينيي طلعوا، الإسرائيليي بيفوتوا عَ البارد المستريح. منيح إنهن طلعوا، وفّروا علينا معركة. منيح إنهن طلعوا. ما فيهن للإسرائيليي راس براس. هي حرب كرّ وفرّ مش عيب يفرّوا.

قلت الكلام الذي يطمئن بيار وبالفعل انطلق وجهه وهدأ. عندئذ قلت له:

- هلق صار فينا نلعب دق.

أخرجت طاولة الزهر من تحت السرير ووضعتها بيننا فوقه وابتدأنا اللعب. دخلت والدتي بعد أن لفّت شعرها بإيشارب، حاملة ركوة القهوة مع فنجانين. حاولت أن تعتذر بأنها لم تقصد إيقاظي، الملعون حسين هو الذي فعلها.

قلت لها:

- كل ما إجا بيار بتفيقوني شو ما كانت الساعة حتى ولو بنصّ الليل.

كشّرت والدتي وابتسم بيار. ذهبنا معاً إلى المقهى القريب، وجدناه، بخلاف ما توقعنا، غاصاً. رأينا حول طاولة المعلم جواد، وهو رجل ضخم يرتدي ثياباً فضفاضة ويضع منديلاً حول رقبته، وثلاثة أحدهم قصير يضع نظارات سوداء والباقيان توأم متطابق

في الهيئة وإن كان أحدهما أكثر سمنة من الثاني. كانوا من "فتح" ويلعبون الورق. قلت لهم:

- شو طلعوا الشباب؟

وحاول المعلم جواد أن يتذمّر:

- أي وتركونا هون.

لكني لكي أقطع الطريق على تذمّره عاجلته قبل أن ينهي جملته:

- شو ناطر يقوا. هاي حرب عصابات. بيهجموا بنهرب. بيفلوا بنهجم.

سكت المعلم جواد وابتسم الثلاثة الذين معه. جلست مع بيار وطلبنا ورقاً ولعبنا نحن أيضاً برتية ليخا.

لا أعرف كيف أتاني القرار بأن أدافع عن خروج الفلسطينيين، لم أكن البارحة في هذا الوارد، لكني أعرف الناس في هذا البلد، ما إن يخرج الفلسطينيون حتى يطلقوا ألسنتهم. البارحة كانوا لا يجسرون على ذلك، لقد التقطوا الفرصة التي أعطاها لهم الإسرائيليون. أنا أكره إسرائيل. لا أحد يستحق أن أكرهه سواها. كثير على الآخرين أن نستخف بهم، إنهم بالكاد يستأهلون احتقارنا. يجب على الواحد أن يجيد اختيار عدوّه، الأصدقاء، نتسلى معهم، لكنهم يصبحون بعد وقت مملين، بيار مثلاً بدأ يصير مملاً، إنه يتذمر بدون انقطاع، صار مع الوقت خوافاً. أنا أيضاً بدأت أخاف، لا بد أن جوّه لا يناسبني.

صلاح السايس

الأمين العام المساعد هو الذي كلمني، قال لي لا تبقى دقيقة واحدة بعد في المدينة، اصعد فوراً إلى سيارتك وتعال مع زوجتك إلى بيروت، كان الأمين العام المساعد على الخط. وعندما رحت أتحنّك وأقول له لن يعود لنا وجه نقابل به الناس إذا أصبحوا و لم يجدونا. أقول له طلع الشعر على ألستنا ونحن نقنع الناس بأن المقاومة فرض علينا وها نحن نهرب أمام الخطر ومن أول إنذار. الأمين العام المساعد لم يجادل، قال فقط إن واحداً مثلي معدوداً من المفكرين لا يجوز له أن يتكلم كمراهق. لا يجوز له أن يقول نهرب، متى هربنا، نحن دائماً في الساحة. يحاولون استدراجنا إلى معركة ونحن نبتعد لأننا لم نقررها، ننسحب لنفوّت عليهم ربحها. بالطبع لم أرد، إنه الأمين العام المساعد، إنه الحزب هو الذي يتكلم. إنه تاريخ 75 عاماً من النضال. هو الذي يقرر وهو الذي يعرف متى يجب أن نهاجم ومتى يجب أن نتراجع. قال لي لا تبق بعد دقيقة واحدة في المدينة، اركب سيارتك وتوجه فوراً إلى بيروت. لكنني لم أكن مستعجلاً،

قلت لزوجتي أن توقظني عند الظهر، واشتغلت طوال الليل وذهبت إلى فراشي عند الفجر. أيقظتني هالة وجلست أشرب قهوتي. دق الباب مرّتين متتابعتين فالجرس لا يعمل طالما الكهرباء مقطوعة. دخل فواز وجزء من قميصه فالت من تحت البنطلون، كانت عيناه رطبتين بالدموع. جففهما بالكلينكس وأخبرني عن النحيب الجماعي الذي حصل أمام بيتي. ثقلت همتي عن السفر لكنه أمر من أعلى مرتبة في الحزب. أخبرت فواز بقرار الحزب، قال الجواب الذي انتظرته:

– هيذي هريبة. ما حدا رح يفهمها إلا هيك. كيف إلك عين تهرب بعزّ المعركة. الأمين العام المساعد إنسان والإنسان بيغلط. افهمها هيك.

وجدت حجة بالطبع لأردّ على فوّاز، لكني لم أكن مقتنعاً، أنا نفسي لم أكن مقتنعاً. لم أحدثه بالطبع عن عصمة الحزب، هذا شيء احتفظ به لنفسي. تركت فواز يذهب إلى بيته. وأنا ركبت السيارة مع هالة وتوجهت إلى بيروت. كانت الطريق خالية، و لم أفهم إشارات السيارات التي كانت تمرّ بي وهي عائدة إلى المدينة. كانوا يشيرون إليّ ويطلقون زماميرهم. لكني لم أفهم، إلى أن لحقني واحد بسيارته وأشار لي أن أتوقف وعندها أعلمني أن الإسرائيليين صاروا على الجسر. الإسرائيليون على الجسر، إذن سنبقى في المدينة، هذه هي عاقبة عدم استعجالي وترددي. الآن ماذا سأفعل إذا دخل الإسرائيليون وكل شيء يدل على أنهم سيدخلون. بالطبع لن أبقى في منزلي وسأنتقل من بيت إلى بيت إلى أن يعثروا عليّ ويلتقطونني كالفأر ويلقون بي في السجن. سأكون هارباً في مدينتي لكن إلى متى. ماذا سأفعل للحزب،

لا بد أن عنده خطة، سيجد بالتأكيد خطة ولن أكون عندها حاضراً للقيام بها. سأكون عندها هارباً أو أتعفن في سجني. قال لي الأمين العام المساعد لا تبق دقيقة واحدة بعد في المدينة، كان عليّ أن أنصاع، لا أن أسمع صوت فواز في رأسي وهو يلومني ويلوم الحزب. فواز ابن البارحة والحزب هو 75 سنة من النضال. كان عليّ أن لا أخاف من كلمة "هريبة"، إنها مجرد كلمة، كلمة ولو كانت مكروهة، الظرف هو الذي يعطيها قيمتها. الصبيان اليساريون هم عباد كلمات، إنهم يركضون وراء كلمة "هجوم" ويرفعون "شعار" الهجوم لكنهم ولا مرة يكونون في موقع الهجوم الفعلي. بقيت في بيتي تلك الليلة، ماذا فعلت، عطلت خطة الحزب، عطلت الخطة التي وحدها إيجابية. أي إنني بولدنة، بطفولة يسارية عطلت الهجوم الفعلي. الحزب كان يختار الأنسب للنضال، الأنسب لي شخصياً. لكني لم أفهم. لقد كرهت كلمة "هريبة" فقط، كانت مسألة كلمة. ظل هذا الكلام يغلي في رأسي وأنا عائد إلى البيت. شعرت بأن وصول الإسرائيليين السريع إلى الجسر كان عقاباً لي. هذا شعور ديني لا أستحي منه، كان هذا عقاباً لي لأني لم أثق كفاية في الحزب. قلت لهالة إني البارحة تلقيت أمراً بالانسحاب، فانفجرت وقالت إن مفكراً مثلي لا يجب أن يسمع كلام ثرثارين مثل فواز.

– على الأقل ينام ببيتو. حاجي داير عَ بيوت الناس. يعرف يلبس قبل ما يعلّم الناس الثورة.

لم أجب. هالة لا تحب فواز لكني لم أتأثر بكلام فواز الذي أعرف أنه لا يؤمن بشيء. لقد تأثرت فعلاً ببكاء الناس لكن الناس في

المجالس الحسينية يبكون أكثر. إنهم يبكون هكذا من مئات السنين، إنها حاجة إلى البكاء، قهر أجيال وقرون ونحن لم نأت لنبكي، لقد جئنا لنحول هذا البكاء إلى قوة. مع ذلك فأنا أجد شيئاً ثورياً في بكاء الناس. إنهم يبكون لغياب الإمام، لذلّهم في غيابه. الإمام قد يكون الحزب، إنه في الفكر السياسي الإسلامي الأمير وحين يبكون لغيابه يبكون لغياب الأمير، يبكون ضياعهم وتشتتهم وتفرق كلمتهم في غيابه. لم أجب هالة وتركتها ترمي سخطها على فواز:

– لو كان مناضل حقيقي ما كان ترك الحزب. ليش ترك الحزب، لأنو فوضوي، لأنو مش فارقة معو. قال بيحب الشعر وبيسمع موسيقى. إيه خلّيه يسمع موسيقى. بكره لما بيجوا الإسرائيليي رح يسمع أكتر. هوي شو بيخصّو. مين رح يسأل عنو. نحنا اللي ببوز المدفع. هُوّي رح يضل يشرب ويقرا شعر وانت بتفوت عَ الحبس.

لم يكن هذا صحيحاً. فواز دخل السجن أكثر من مرة. بينما أنا لم أدس عتبته. الصحيح أن فواز عدمي، في قرارته لا يؤمن فواز بشيء.

بيار مَدْوَر

نديم حبيبي. أسميه هكذا في سرّي، لا أجسر على أن أناديه هكذا. لا تأتي هذه الكلمة على لساني عفواً كما ترد على ألسنة الناس الذين يقولون أحياناً من دون قصد "لأ يا حبيبي" "أي يا حبيبي". نديم حبيبي ليس مهتماً لدخول الإسرائيليين، ليس خائفاً، يمكن أن أقول إنه مطمئن. يقول إن هذا سيضيف بعض الحيوية إلى حياتنا الهامدة والمضجرة. هربت المنظمات الفلسطينية، أليس هذا مسلياً. رأيناهم بأعيننا يهربون، هؤلاء الذين كنا نظنهم من فولاذ، كانوا يرفعون كلاشنكوفاتهم ويقفون منتصبين خلف الدكتريوف ويسندون الآر بي جي إلى أكتافهم في وضعيات ثابتة ومدروسة كأنهم آلهة. أنت تراهم وقد تكوّموا في الشاحنات. هذا أول كشف، يقول نديم، سيكون الدخول الإسرائيلي كشافاً كبيراً. هؤلاء الذين استقبلوا المسلحين الفلسطينيين بالزغاريد، ماذا سيفعلون إذا مرّوا على الحواجز الإسرائيلية، إذا وجدوا إسرائيلياً في بوابة السراي. إذا رأوا "العدو" الغاشم بشراً مثلهم وعليهم

أن يتحملوه كما يتحمل البشر بعضهم البعض، يقول نديم، أقله سيتسمون للجنود على الحواجز، سيقدمون لهم بطاقاتهم مع جزيل الاحترام، ألا يحدث هذا فرقاً. سيدعوهم الإسرائيليون، الموظفين والتجار وأعضاء البلدية ورؤساء العائلات وحتى بقايا الأحزاب إلى الاجتماع. سيصدعون للأمر في البداية بانزعاج لكنهم مع ذلك سيتمرنون على الحديث مع الضباط. ستكون هذه المرة الأولى ولن تكون الوحيدة بالطبع، بعدها سيذهبون من تلقائهم. سيستسهلون ذلك وسيكررونه فكل يوم يحمل الجديد والإسرائيليون هم الآن السلطة ولا بد من لقائهم حتى للاحتجاج عليهم. سيغدو بينهم وبين الإسرائيليين مجاملات وسيستقبلونهم في بيوتهم ومع الوقت سيغدو بعضهم من النافذين والمقرّبين من الإسرائيلي. سيغدو للإسرائيلي معاونوه المحليون والمتعاونون معه. أقول لك، يقول نديم، سيكون الدخول الإسرائيلي كشافاً كبيراً. فكر كيف تكون الحال بعد ستة أشهر، عام من الدخول الإسرائيلي. كيف ستكون الحال وكيف سيصير المجتمع. سيضاف انشقاق جديد إلى المجتمع وسيغدو العدو الذي كان لوقت طويل عامل إجماع سبباً جديداً من أسباب الانقسام. سنختلف على الصديق وعلى العدو. يقول نديم: "تخيّل يا بيار كم وطنياً معروفاً سيحمل بطاقة متعاون. كم شخصاً خدم في المنظمات الفلسطينية سيبدّل ولاءه. إنهم مجتمع كامل يا بيار مجتمع كامل جاهز لهذه التجارة. القبضايات والمفاتيح والوجهاء والمتلونون، مجتمع جاهز وسينتقل بكامله من ضفة إلى ضفة. نديم سعيد تقريباً

بهذا الاستنتاج، بل هو يستطلع باهتمام أحوال الشريط الحدودي ليعرف ماذا ستكون عليه الحال هنا بعد أن يدخل الإسرائيليون".

نديم طمأنني، لن يحدث شيء. سترى فقط بعينيك أن هذا البنيان مغشوش من رأسه إلى أساساته، وستفهم لماذا عليك أن لا تصدق أحداً وأن تخدعهم أنت لتستقيم اللعبة. ستكون أبله إذا بادلت كذبهم بالصدق. سيرونك أبله إذا فعلت ذلك، سيرونك مجرد مخدوع وسيحتقرونك. لكنك لا تستطيع أن تكذب مثلهم، في كذبهم درجة عليا من نقص الخيال ونقص الفن. إنهم يقولون أشياء لا تصدق ويكذبون أنفسهم في الوقت ذاته. عليك أن تخدع لا أن تكذب، الخداع يبدو مقنعاً وعميقاً كأنه الحقيقة، إنه ناجح بقدر ما يبدو حقيقة، من الأفضل أن تصدقه أنت وأن تقوله باقتناع، عندئذ تحسن الدفاع عنه. في الخداع دائماً، على كل حال، جانب من الحقيقة، هو في الواقع نوع من صناعة حقائق، من بناء حقائق. إذ الحقيقة شيء يمكن بناؤه، شيء يحتاج إلى الخيال وإلى الفن وإلى الاختراع.

أسمع نديم حبيبي وأحب أن أسمعه. إنه لاعب رائع، إنه يعمر دائماً شيئاً، فكرة على فكرة، جملة على جملة وبالطبع هناك سرعة ومهارة وحذق في العمار. لكن ما آسف له هو أن كل اللعب يتم بالكلام، إنه يتجرأ على قوله لأنه سيُنسى وهو يعتمد فعلاً على نسيان الآخرين. اقترحت عليه مرة أن نسجل كلامه لكنه رفض، رفض لأنه يخشى أن يؤدي تكرار السماع إلى كشف سر اللعب، كشف عيوبه. في المرة الثانية سيكون الشيء نفسه أضعف وأقل

قيمة، لذا يفضَل نديم أن يرتجل. قال لي إنه يحبّ أن يدهش وأن الأمر لن يكون هو نفسه في المرة الثانية.

قال لي إنّ خداعه كالشعر، ينتهي دائماً إلى أن يقول شيئاً له قيمة، الشاعر هو آخر من ينتبه له. أنّه يعرف أن في كلامه دائماً شيئاً له قيمة لكنه لا يستطيع أن يعيّنه.

يسحرني كلام نديم حبيبي لكنه لا يعديني، يسحرني لكنني لا أتبعه، لنديم فنّه وأنا لست فناناً. حين أضطر إلى كذبة صغيرة أكون كمن أهان نفسه، أحمّل نفسي سراً لا تطيقه، أكون الوحيد الذي يحمل عبء هذا الغلط الذي سببته. حين لا ينتبه أحد لغلطتي أكون جنيت على نفسي وحمّلتها ذنب كل الذين صدقوا ما قلته. أنا لا أريد أن أغلب أحداً، لا أريد ولست قوياً لأقدر على ذلك. لا أريد أن أبهر أحداً ولا أملك الموهبة لأفعلها. صدقي وحده الذي يجعل لي ميزة، بالصدق أغلب نفسي وهذه هي المعركة الوحيدة التي أربحها وبجدارة، أكون عندها جسوراً وجريئاً وأحسن الكلام. حين أضطر لكذبة أحس أن ركاكة كلامي تفضحني، أتأتئ كثيراً لكن أحداً لا يفهم السبب. أنا لا أخترع، نديم كلما كان حراً في كلامه أجاد. أنا أنقل فقط، وحين يكون ما أنقل عنه حقيقياً أستطيع أن أضيف وأن أؤلف وأن أجيد.

فواز أسعد

لم تكن الأرض مغسولة فقط بل الجو أيضاً نظيف وجديد. أمطرت أمس وقالوا إنه ماء نيسان. إنها الشتوة الأخيرة في السنة وتبدو كأنها تعييد للربيع. نظرت من أمام بيتي إلى البحر فوجدت الزورق الإسرائيلي عاد تقريباً إلى مكانه. تقدمت حتى صرت على كتف التلة ونظرت إلى الأمواج في الأسفل التي كانت تتلوى بين الصخور، قبل أن تتبدد بهدوء وبصوت يشبه لثغة طفولية. في المدينة القديمة كانت القناة القديمة التي تصب فيها مجاري المياه المستعملة في المنازل تفور بمياه الغسيل النيلية وعليها قشرة من الرغوة. مررت تحت القنطرة ونفدت من الأزقة إلى الطريق الرئيسية التي تمتد بين حيّيْ المدينة القديمة، مررت جنب الحديقة التي تساقطت أشجارها و لم يبقَ منها إلا واحدة جرداء وشوك كثير. وصلت إلى السوق، لم يكن تغير شيء، الناس يروحون ويجيئون أفراداً وزرافات، بائعو الخبز أمام صناديقهم الزجاجية، اللحامون يكشون الذباب عن الذبائح المعلقة وثمة رائحة شواء تملأ السوق، حتى أن الهواء بات موهناً ومُطْعِماً. باعة الخضار

وحتى الحلاقون والجواهرجية وباعة الحبوب في الشوارع الخلفية، لم يتغير شيء إلا أن ثمة شعوراً بأن الزمن أبطأ هنا وأن الناس يتحركون بهدوء غير معتاد. كانت الحياة هي نفسها ولكن بحيوية أقل، ففي نظرات الناس وحتى في كلماتهم كانت هناك دقيقة انتظار معلّقة. كانت الكلاب، التي تجذبها إلى السوق رائحة اللحم، تنتظر أمام الحوانيت أن تلقى لها جلاجيط اللحم والعظام بصبر، وقد افتقدتْ العناية التي كان القصابون يولونها لها. كان على طريقي يونس شافي يمشي بصحبة ابنه الفتى الذي صار تقريباً في طول أبيه. الابن يمشي مرفوع الرأس فيما الأب يقوس كتفيه ويدلي رأسه من بينهما ويمشي هكذا وكأنه يقرأ الأرض. يونس فلسطيني ولد في الجليل وحين رآني رمقني برأسه المدلى وقال لي وكأنه يواصل حديثاً:

- الله يفضحهن. فضحونا. عيب والله ينسحبوا قدّام الناس بعزّ النهار. كان أحسن ينسحبوا بالليل، أستر.

وحين حاولت أن أبرّر الانسحاب بأننا لسنا في حرب كلاسيكية. حرب الحركة لا تستبعد الانسحاب، ثم إن الانسحاب يوفّر حرباً على المدينة. قاطعني بدالّته على تلميذه السابق فيونس علّمني في الصفوف الإعدادية:

- يا فوّاز اسكت، والله وطّوا روسنا.

افتقدت الصياح الذي يتخاطب به اثنان في دكانين منفصلين أو ينادي به دلاّل المدينة، فالناس الذين يشعرون بأن المدينة مطوقة كانوا قلما يرفعون أصواتهم. كان السؤال الذي بادرني به بائع الخضار والعطّار هو نفسه:

– قولك بيفوتو يا أستاذ؟

كانوا يفترضون أن كوني متعلّماً يعني أن عندي جواباً وعندما كنت أعيا عن الجواب وأتمتم:

– يمكن. ما بنعرف.

كانوا بدون أن يعطوا حساباً لحيرتي يردفون بالسؤال التالي:

– قولك بيصير في معركة يا أستاذ؟

عندها كنت أطمئنهم:

– لأ. المدينة فاضية ومسلحين ما فيه.

يقتصدون في تعليقاتهم فالاحتراس كان سائداً في هذا الوقت، ويبدون بالعكس ارتياحهم لخروج المنظمات.

– عين العقل. لولا هيك رح بتصير مذبحة، نحنا قدرة الإسرائيليي اللي هزموا كل العرب بست ساعات.

انسللت من السوق إلى الساحة المطلة على البحر. هناك وجدت نديم وبيار اللذين اتجها نحوي. نديم يمشي كأنه يسبح في الهواء، وبيار جنبه كطفل عاقل، سألني نديم:

– صلاح بعدو هون. شو عميعمل. كان أحسن يطلع.

– حاول، بس كانوا الإسرائيليي صارو عَ الجسر.

– وإذا. ما كان حدا سأل.

– شو هـ الحكي. بيكون معهم ليستات بالأسامي.

– هذا وهم. أحسنلهن الناس تطلع. هيك بيفوتو عَ البارد المستريح.

اقترح نديم أن نعرّج على مقهى قريب مشرف. اتجهنا إليه. كان

مزدحماً كالعادة، لكن لاعبي الورق والطاولة لم يكونوا بالقدر المعتاد. ليس مألوفاً جداً هنا رؤية ثلاثة أو أربعة أشخاص يجلسون إزاء النافذة وينظرون إلى البحر. حيث كانوا يلعبون لم نسمع عبارات التحدي المعتادة في اللعب حتى إنه يمكن القول، بتحفظ، إنهم يلعبون بصمت. هذا لا يمنع من أن تفلت عبارات مثل "شو ناطر" "ليخا" "وراك وراك" من وقت لآخر. جلسنا بمحاذاة النافذة. نديم كالعادة هو الذي دشّن الكلام:

- شايف شو رايقين. عميلعبوا مش خايفين مع إنو الإسرائيلي عَ البواب. لو بعدن المسلحين هون ما كنت شفت دومري بالطريق.

كنت بعد حديث صلاح أمس، مشوشاً وغير قادر على تحديد موقف. قلت في نفسي لماذا التظاهر بالشجاعة، انسحاب المنظمات والأحزاب هو بالتأكيد مطمئن، هكذا نضمن أنه لن تحدث معركة. مع ذلك لم أرد أن أسلم لنديم، لم أكن متأكداً من أنه يؤمن بما قاله، لم أستبعد بأنه قاله للاستفزاز أو المفاجأة. قلت له:

- ليش استقبلنا المقاومة. إذا ما بدنا ياها تحارب. ليش هيي إجت إذا ما بدها تحارب. يعني كنا عم نضحك عَ حالنا أو هيي عمتضحك عَ حالا.

نديم، كما توقعت، لم يلجأ إلى حجج مألوفة، من نوع حرب العصابات وحروب الحركة، كان يسعى دائماً للانفراد برأيه أو حججه.

- أي. استقبلناها بحفاوة لأنو هذا بيناسبنا. كنا بدنا نبيّن وطنيين وأوفيا لفلسطين. نحنا بالفعل وطنيين وأوفيا لفلسطين. وقتها عملنا

هيك، حملنا أعلام فلسطين وهتفنا للمقاومة. هلق عمنفكر بولادنا، ببيوتنا، بحالنا. بيناسبنا إنو المقاومة تنسحب وتوفر علينا معركة. بيناسبها هيي إنها توفر على حالا حرب وتخلص من معركة، ما فش خيانة. الظرف هو اللي تغيّر.

استمعت إلى نديم. أثناء ذلك كان بيار يبتسم، إعجابه بنديم واضح وينتظر مني أن أشاركه إعجابه. بالنسبة لي كان نديم يلعب بالكلمات، لقد اخترع حجة هي في الغالب بنت ساعتها وإذا احتاج الأمر سيخترع أكثر.

- وإذا إسرائيل رجعت انسحبت؟

- بنرجع بنستقبل المقاومة وبنغنيلها. هذا ظرف وهذاك ظرف. ما فيه خيانه ولا كذب.

- وإذا إسرائيل فاتت وقتلت ناس وحبست ناس، على مين بنحط الحق؟

- مش على حدا. بنحطوا على إسرائيل وحدها.

كان بيار يستمع إلى نديم مبهوراً، وأنا اكتفيت من اللعبة. لكن نديم التفت فجأة إلى مدخل المقهى. تبعناه أنا وبيار بنظرنا فوجدنا اثنين واقفين بسلاحهما في باب المقهى، فيما دخل ثالث وبيده كلاشنكوفه، وصل إلى طاولة عليها اثنان فكلّم أحدهما وعاد إلى حيث ينتظره رفيقاه وخرج الثلاثة معاً. سألت نديم إذا كان يعرفهما فقال "لا"، لكنه أردف بغيظ:

- خِرْيِتْ.

- هذا كمان ظرف.

لم أقصد النكتة لكن هذه الجملة واتتني من دون قصد. أنا أيضاً كنت مضطرباً وسلمت مع نديم بعد فترة صمت:

- خرْيِتْ.

اقترح بيار أن نقصد إلى صلاح لنستفسر منه إذا كان يعرف شيئاً لكننا ما زلنا قبل الظهر وصلاح ينام إلى الرابعة والخامسة بعد الظهر وهالة تسهر على نومه ولا توقظه لأي طارئ. لذا عدنا إلى جلستنا في المقهى. كان نديم اكتفى من النقاش أو عافه بعد أن رأى المسلّحين، نظر إلى البحر واسترجع بيت عمرو بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سنينا

ولما أبديت كرهي لهذا البيت قال:

- بتكرهو لأنو كذبة. أنا معك هُوّي كذبة بس شو هُوّي الفارق بين الكذب والفن؟

كانت مناسبة لنتذكر الأوذيسة والشيخ والبحر لهمنغواي وبحر سان جون بيرس. افترقنا وذهبت إلى بيتي، شاهدت الزورق الإسرائيلي ما زال مقيماً بمواجهته. السادسة بعد الظهر قصدت إلى بيت صلاح. كان استيقظ لتوّه وما زال في جلابيته يشرب قهوته، وعلى الطاولة صفحات بالعربية والفرنسية. لما دخلت قال بدلاً من الردّ على تحيتي:

- وين كنت، هيئتها خرْيِتْ.

ولما لم أفهم. عاد فأكّد:

- خرْيِتْ.

- يعني؟

- يعني سامع بتنظيم اليقظة؟

– اليقظة لأ. بس اليوم شفنا بالقهوة تلات مسلحين.

– إي اليقظة. هذا تنظيم تأسس من سنتين. الصبغة إسلاميي، بيجمع فلسطيني ولبناني. بعدما انسحبت المنظمات ما انسحب معهن. قال ما بيجوز ينسحبوا. لازم يبقوا ويواجهوا. جمّع فرافيط باقية من المنظمات وعمل مؤتمر بالمخيّم، طلع بنتيجة إنو لازم نبقى ونحارب.

– كيف عرفت؟

– اتصلوا فيي وعزموني عَ المؤتمر. اعتذرت وقلت لهم يتصلوا بقيادة الحزب. لحالي ما فيي قرّر.

– وهلق شو بدو يصير؟

– مش عارف. في سلاح كتير. البعض حب يبيّن سلاحو، في ناس التحقت فيهن وهلق إذا رحت للمخيم بتلاقي السلاح عميلعب لعب. وبالمدينة بتقلّي شفت تلات مسلحين. بكرا بتشوف تلاتات. بيطلعوا شي تلاتين واحد. حاطين البلد تحت رحمتن. تلاتين واحد ممكن يوصّلوا لتدميرها.

– وشي لازم تعمل قولك.

– متل ما شايف. بنستنّى. هَوْ متعصبين. ما فيك تحكي معهن. ما تحاول. بيقولوا إنو بدهن يستشهدوا. يمكن يكونوا هيك فعلاً. إذا حكيتهن بيقولولك جبان أو خاين. ما في حكي معهن.

المساء وُزِّع منشور بخط اليد تم سحبه على الستانسل:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا جماهير شعبنا البطل

الإسرائيليون يحاصرون المدينة والمنظمات التي استقبلتموها بالفرح والورود جبنت وتركت الساحة وتركتكم تحت رحمة الإسرائيليين. لكن المخلصين من شعبنا تمسكوا بقضيتهم وأرضهم ورفضوا أن يتخلوا عنهما وأن يتركوا المدينة غنيمة سهلة للإسرائيليين. هيّا إلى الجهاد ضد العدو، عدو البلاد وعدو الدين. لا تثقوا بالمتخاذلين. ثقوا بشعبكم وبدينكم وإن ينصركم الله فلا غالب لكم.

تجمّع الوطنيين والمجاهدين

الذين وزعوا المنشور ملثّمون. حملت المنشور وتوجهت إلى بيت صلاح، وجدت عنده نديم وبيار، كانوا جميعاً ساهمين، لم تكن المناسبة لحذلقة نديم ولا تفاؤل صلاح ولا بالطبع لتشوّشي المستديم. جلسنا صامتين. كان صلاح واضعاً رأسه بين يديه ونديم مقوساً حاجبيه وعينا بيار تكادان تخرجان من وجهه. رفع صلاح رأسه وقد اختفت إمارات القلق عن وجهه.

– مش لازم نتشاءم، يمكن تكون درس للشعب، ما يعود يوثق بالمتعصبين. يمكن تكون آخرتهم. لازم نوثق بحالنا وبشعبنا.

بقي نديم يلعب بشاربه، وبقيت عينا بيار خارج وجهه، أما أنا فزاد تشوشي، و لم يتكلم أحد.

صلاح السايس

قلت لفواز "خرِيتْ"، وقال هو الكلمة نفسها، كذلك قال نديم وبيار، لكني لا أعتقدَ أن أيّاً منّا كان يعني ذلك. قبلنا على مضض بخروج المنظمات، الحقيقة أننا استرحنا لأنها حملت عن الجميع مسؤولية الانسحاب. أكان ضرورياً أن يدخلوا المدينة بدون حرب وأن نقدمها إليهم مستسلمة خاضعة، لماذا إذن استقبلنا المنظمات. ألم تكن حجتنا أنّ لبنان لا يستطيع أن يكون وحده خارج المعركة. ألم نسع نحن إلى الحرب، ألم يعلنها الفلسطينيون فلماذا نتجنبها إذاً وقد صارت عندنا. إذا كان الانسحاب عين العقل فلماذا لا تكون الحرب كلها جنوناً. لماذا نسعى إليها لنهرب منها. لماذا نوقع على أنفسنا عار الاستسلام ونترك بلدنا مباحة للإسرائيليين، ألا نستحي من أنفسنا ونحن نتركهم يدخلون إليها بدون أي مقاومة. قلنا "خرْيتْ"! لأن ثلاثين أو أربعين رجلاً قرروا أن يقاتلوا نيابة عن الجميع، قلناها لأننا، لنعترف، لا نريد أن نكون عرضة لأي خطر، لأن انسحاب المنظمات رفع عنا، في رأينا، أي مسؤولية. لكن هذا لم يكن رأي جماعة "اليقظة"، لقد

اعتبروا أنفسهم مسؤولين أيضاً. انسحاب المنظمات لا يعنيهم. إنها بلدهم وأرضهم وعليهم أن يدافعوا عنها. ألا يستحقون تقديرنا، لأنهم بدون حساب للقوى، قرروا أن يقوموا بواجبهم الطبيعي، عنا وعن الجميع، قرروا أن يقوموا بما هو حقهم الأول. ألا يستحقون تقديرنا لأنهم مستعدون لهذه التضحية. نقول الآن "خِرْيِتْ" ولكن ماذا سيكون موقفنا منهم إذا ماتوا وهم يدافعون. ألن نعتبرهم عندئذٍ شهداءنا ونطلق أسماءهم على شوارعنا. ألن نكون، في سرّنا وعلننا، فخورين بهم. ألن تكون المدينة فخورة بهم. ألن تعتبرهم شهداءها.

لم أقل لفواز إنني أفكر هكذا. لم أقله لأحد، لكنني متأكد أن فواز في سرّه يفكر مثلي. نديم، لست متأكداً منه، إنه يستطيع أن يقنع نفسه بأي شيء. بيار من غير دنيا. أنا أسأل نفسي، هل أفكر حقاً هكذا أم أنها مجرد وساوس، مجرد شكوك. كل إيمان له شكوكه ووساوسه. لقد استدعوني إلى بيروت، المنظمات خرجت من المدينة. إنه قرار القوة الأساسية، قرار الحزب أيضاً. "اليقظة" مجرد أنفار، ليسوا قوة حتى، إنهم شبان متحمسون. حماستهم هي تقريباً كل قوتهم، وليس علينا أن نشكك في حماستهم، ألسنا جميعاً متحمسين. ما الذي يدعوني إذاً إلى البقاء في الحزب، إن لم تكن الحماسة. لدى الحزب ولدى المنظمات ما تخاف عليه، ما تحرص عليه. لكن هؤلاء لا يملكون سوى شبابهم، وهم مستعدون لتقديمه. ينبغي أن نرحب بهم من الآن، إذا كنا بعد قليل سنتبنى تضحيتهم، نحن بحاجة إلى هذه التضحية. تاريخنا بحاجة إليها، بحاجة إلى أن نرى أنفسنا فيها. بضعة شبان يتحدّون القوة المهاجمة سيكونون رمزنا، معهم لن نخجل بأنفسنا.

معهم لن نكون مهزلة أنفسنا. لن نفكر أننا مع كل هذا السلاح وتلك القوة تركنا أبوابنا مفتوحة. أسأل نفسي هل أفكر حقاً هكذا، أم أنها انفعالات وهواجس. لكل اتجاه طفوليته، هل هي طفوليتي التي تتحرّك فيّ. كل هذا الكلام عن الرمز والتضحية، هل يعود إلى طفوليتي؟ هل النضج أجرد بلا عواطف وبلا رموز وبلا تضحيات. ولائي للحزب كامل ونهائي، لكني أحياناً أتعذّب حين أجد أن أعضاء القيادة جُوْفٌ. ماذا يعني أن نكون بلا عواطف ولا رموز سوى أننا رجال جُوْفٌ، هنا أتذكر قصيدة إليوت التي طالما أحببتها. اللعنة على كل هذه الخواطر، إنها في الحقيقة تعذبني. ماذا أكون أنا بدون الحزب، إنه أبي الروحي وهو الذي يعطيني اسمي ومعنى حياتي. ماذا أكون أنا بدون الحزب. اللعنة على هذه الوساوس. الحزب وحده الذي يملك كياناً تاريخياً، الآخرون عابرون فقط، كل تضحياتهم ليست سوى أشواق. الذي يترك أثراً هو الحزب، ومن يترك صورته على مدى التاريخ هو الحزب. هكذا أعود فأقنع نفسي، لكني أكون تركت ورائي شكوكاً كثيرة، واحد منها كاف لتضييعي، وساوسٍ كثيرة تنبئ بأن عقيدتي ليست متينة. هذا طريق إن مشيت فيه طويلاً سأجد نفسي مثل كثيرين يعيشون بلا هدف، كثيرين يعيشون بأقل حياة وأصغرها وغالباً ما أرثي لهم، لا يتعدون سوى سنتيمترات في حياتهم وأخاف أن أصير مثلهم كما أخاف من المرض والشيخوخة. الحزب يمنعني من أن أذبل في مطرحي، الحزب وحده يضعني داخل الزمن ويعدني بمستقبل.

بيار مَدْوَر

عندي ضعف تجاه الدين. الدكتور داهش كان تقريباً آخر نبي في هذا العالم. ما زلت ألتقي بأشخاص عرفوه ولا تزال ذكراه حيّة لدى كثيرين. قد أكون داهشياً مهرطقاً لكني داهشي. كان الدكتور داهش تقمصاً للمسيح وهو ربما مثله رفع إلى السماء. نضال المسيحيين الأوائل الذين قدّموا لأنياب الحيوانات المفترسة الجائعة هو تقريباً تاريخي، طالما سحرتني الأفلام التي تروي عنهم. أتذكرهم الآن بجمالهم الإلهي وهم مستلقون في حضن الآب مغسولين بالنعمة وأجسادهم المقدسة مغمورة بالنور. أتذكر القديس سباستيان والسهام المغروسة في جسده الفتي لا تترك دماً وكأنها نبتت في قلبه والشجرة التي ربط إليها تبدو كأنها شجرة الحياة نفسها. لا يتعذب القديس سباستيان إلا ذلك العذاب الذي يتفتح في جسده وينعكس من جسد ينور بعذابه الذي يشبه الذهول والنشوة. كنت دوماً مفتوناً بمجتمع القديسين، لذا كنت الوحيد الذي لاحظ أجساد المسلحين الثلاثة الذين صادفناهم في المقهى أنا ونديم وفواز. كانت أجساداً

ضامرة هزيلة لكن مشدودة وبدت البنادق في أيديهم وكأنها طالعة من أجسادهم. كان الثلاثة ملتحين وشواربهم فاحمة وشعورهم كثة وطويلة. لا أعرف ما الذي اجتذبني إلى هذه التشكيلة من الشَعْر وكيف أخذت أتخيّل الشعر النابت على أجسادهم. أحببتهم ما إن رأيتهم، تخيلتهم قتلى بعد المعركة وأجسادهم تنوّر في استلقائها على الأرض. أعرف أن هؤلاء ليسوا مجتمع القديسين الذي يفتنني، لكنني لاحظت أنهم لم يلقوا بالاً لأحد، لم ينظروا إلى أحد. انتظر الاثنان على باب المقهى رفيقهما وغادرا ما إن عاد. أحزنني أنني لم ألتق بأعينهم، لم ينظروا إليّ، لم يهتموا بأحد. كانوا بالتأكيد مشغولين بشيء آخر، غادروا فوراً. في طريق العودة بحثت عنهم. خيّل إليّ أنني سألتقي بهم، لو حدث هذا كانت إشارة من السماء، لكن السماء لا تكلمنا ساعة نشاء، هناك دائماً تدبير آخر غير الذي نتمناه.

كانت الشمس مشرقة والسماء تمطر. السماء زرقاء وأثيرية والمطر يتساقط من الأثير لا من الغيم. كأنما هو الأثير يتقطر كما قال شاعر قديم. أمشي وأنا أفكر بهؤلاء القديسين المقاتلين. أمشي تحت شمس نيسان ومطره الذي تحول إلى رذاذ لا يمكث طويلاً فوق الثياب والوجه ويتحول سريعاً إلى هواء، بل إلى رائحة معجونة بزنخ البحر الذي يذكر برائحة العرق المحبوس تحت الثياب، ويتفتح في المسام ويحبحب بين شعرات الصدر ويذيع رائحة الجسد الرجولي المشدود الصلب. كنت أفكر بهؤلاء القديسين المقاتلين الذين يمدون أسلحتهم على حوضهم الواسع ويرتاحون تحت الشمس، فيما أجسادهم

تواصل صنع هذه الحبيبات التي تتفرق في شعر الصدر وشعر الجسد كله. كنت أتخيلهم قتلى وقد سكبوا كل حرارتهم على الأرض، وتفتحت جراحهم بدون دم في أجسادهم التي أطبقت عليها وامتصتها، و لم تترك أثراً لها سوى شبه الأثر الذي يبقى من سيقان الورود المقطوفة. الدكتور داهش من فلسطين. ليست فلسطين مع ذلك وطن الداهشية، ليس لبنان أيضاً وطن الداهشية. ليس للداهشية وطن، كانت غريبة وتبقى غريبة، لم تحارب من أجل نفسها ولن تحارب في سبيل أحد. أنا الداهشي المهرطق أفكر في فلسطين، أفكر في هؤلاء الذين كتب عليهم أن يموتوا جيلاً بعد جيل في سبيلها وعلى أرض أخرى سواها.

المساء وزعوا منشوراً باسم تجمع الوطنيين والمجاهدين. صباحاً خرجوا بأسلحتهم. توزعوا خمسة خمسة على حواجز عند مداخل المدينة وطرقاتها الرئيسية. استيقظ الناس فوجدوهم أمام أبوابهم وتحت شرفاتهم. وضعوا أزهاراً في فوهات بنادقهم وكلّموا من يتوقف على حواجزهم بلطف. لاعبوا الأطفال وحيّوا المسنّين واعتذروا من السائقين. أحد الذين صادفتهم في المقهى كان على أول حاجز صادفته قرب بيتي. تحولت فوجدت مسلحين على المفارق وفي المراكز الرئيسية. لقد نشروا حوالى خمسين مسلّحاً في المدينة التي صارت بعد الانسحاب خالية من السلاح. وبخمسين مسلحاً صارت المدينة في يدهم واستولوا عليها. كانوا في الغالب فتياناً دون العشرين. شواربهم ما زالت زغباً وخدودهم وشفاههم متوردة وبشراتهم مسقية ونضرة وعيونهم لمّاعة وأجسادهم بالتأكيد

تفرز تلك الرائحة الرجولية. فتيان جميلون في حوض هذا الصباح النيساني وتحت مطره النظيف الذي بالكاد يرى.

على الحاجز كان ظل الفتى الجندي طويلاً وشاهقاً تحته. وقفت في ظله فشعرت بنوع من الاتحاد، بقدر من النشوة في جسدي.

نديم السيّد

بخمسين بندقية استولوا على المدينة. ادّعوا أنهم جاؤوا ليعيدوا اعتبارها، في الحقيقة أهانوها مجدداً. لم يكونوا ليستولوا عليها لولا أنها عزلاء ومغلوبة. لقد حرموها من أن تنعم بحريتها ليلة واحدة، وثبوا عليها قبل أن تستجمع نفسها. تجولت على الحواجز وجدتهم حشوا بواريدهم بالزهور، هذه الأكذوبة التي لا يتوقفون عن إعادتها، يعتذر المسلحون بالورود عن جرائمهم المقبلة. لن تنبت الأسلحة وروداً لكن الورود ستغدو في فوهاتها مسمومة وقاتلة. كانوا على الحواجز فتياناً دون العشرين يتطلعون بدهشة إلى الناس الذين جاؤوا ليستطلعوا، تبرق عيونهم كلما رماهم واحد بنظرة بدون أن يعلموا ماذا يوجد تحتها. يظنون الناس فرحين بهم ويهنئون أنفسهم لأنهم مصدر كل هذا السرور، وبالطبع لن يحزروا أنهم مكروهون ولن يملكوا الذكاء ولا الفضول ليفهموا. لن يملكوا الخبث ولا الشكوك ليعرفوا أننا لا نريدهم هنا، وإذا عرفوا، بطريقة ما، فإن هذا لن يدعوهم إلى أي تفكير. بهجتهم بأنفسهم لا تعطلها ذرة واحدة

من الذكاء. إنهم دائماً مستعدون لكل شيء، مستعدون وإيجابيون ومطمئنون للغاية ومسلّمون حتى البلادة. يديرون السلاح وكأنه يد ثالثة أو رأس ثان ويتركونه هكذا يفعل وحده أو يفكر ويقرر عنهم. إنهم صادقون، بدون أن يقصدوا، لأنهم لا يملكون حول أي شيء سوى فكرة واحدة، فكرة ملزمة ونهائية ويتيمة. صادقون لأنهم لا يملكون خياراً ثانياً. صادقون وأبرياء لكن البلاهة تجعل أيضاً العيون تبرق ونحن أحياناً نعبدها لملائكيتها، البلاهة هي كل ما أجده في هذه الأجساد المتخشبة التي تدلّل الكلاشنات وتكاد تناغيها.

نعم، إنها رؤوس فتية وجميلة إذا أردنا أن نستعملها كقوالب. إنها أجساد قوية ومشدودة إذا شئنا أن نصنع منها خزائن، لكن الأكيد أن فكرة الاستشهاد المحنطة لا تفكر في هذه الرؤوس، إنها فقط تعوم في هذه البلاهة التي هي هنا عطر هذه الأفكار الكبيرة والمتعفنة.

حين صادفنا المسلحين الثلاثة لم نقل شيئاً. بيار بالتأكيد فتنه شبابهم وأثارته فكرة الاستشهاد وجمال الشهداء الخفي. فواز لا تواتيه الأفكار بهذه السرعة، لا بد من وقت للتشوش قبل أن يستقر على شيء. صلاح لا يسمح لفكرة ضالة بأن تفلت من فمه. جميعنا قلنا "خريت" لكن أحداً منا لم يعنها. أنا كان خوفي أكبر منها. فواز تواتيه الأفكار حين لا تعود ذات فائدة. صلاح يفكر لنفسه وحدها وبيار ينذهل ولا يفكر. أنا وحدي عنيت الكلمة. البلاهة، في أي شكل بدت، لا تفتنني، وأخطر منها عبادتها. هناك أوقات نيأس فيها من الذكاء ونكرهه. باسم البراءة يمكننا أن نرتكب أكبر الحماقات.

فواز أسعد

عاد الدويّ بعد أن انقطع طوال يومين. ربط الناس ما بين ذلك وبين ظهور مقاتلي "اليقظة" وحلفائها. كان القصف على المخيم، المخيم عند مدخل المدينة والمدينة تحتويه وتمتد بعده، لكنه الآن تحت القصف وما دام القصف عليه ولا يتجاوز إلى المدينة فإنه يبدو بالنسبة لأهل المدينة في مكانه الطبيعي ويبدو المخيم اللصيق أرضاً أخرى. القصف على المخيم والدخان يفور منه إلى الأتوستراد الذي تعبره السيارات لكنه لا يقع على الأتوستراد، يقع فقط في "مكانه الطبيعي". ليس لنا علم بما ينتج عنه في المخيم، لا القتلى ولا الجرحى فهم ليسوا قتلانا ولا جرحانا، لكن مسلحي اليقظة، وقسم كبير منهم فلسطيني، جعلوا المدينة تابعة للمخيم. لذلك حين سقطت قذيفة وسط ساحة المدينة وقتلت شاباً غلت المدينة بالخبر. جاؤوا جماعات من داخلها وأطرافها ليشاهدوا كيف حفرت القذيفة في الأرض وكيف قتلت الشاب. خطر أول الأمر أن القذيفة أخطأت الهدف وأنها وقعت بعيداً عن مرماها. لولا مسلحو اليقظة لساد هذا الرأي لكن الحواجز

والمسلحين والأسلحة في المدينة، لذا فهم الجميع أنه إنذار والآتي أعظم. لو كانت المنظمات ما تزال في المدينة لبدا الأمر متوقعاً ولكانوا سكتوا. لكن شلة من بضعة مسلحين جاؤوا من المجهول تتسلّط وتتآمر وتتحكم على مزاجها وتحمل الخطر إلى المدينة، أمر لا يُطاق، لا بد من عمل شيء. هذه عبارة سارت في المدينة من أقصاها إلى أقصاها، لا بد من عمل شيء.

الشاب القتيل كان سليمان القاضي، أسرة يدل اسمها على أنها ذات اعتبار. لم يكن في الأسرة أي قاض وإذا كانت هناك مهنة غلبت على العائلة فهي التجارة. ليس سليمانٌ ثرياً وهو في الحقيقة قتل أمام مكتب ابن عمه المحامي الذي يعمل مستخدماً فيه، لكن سليمان واحد من اثني عشر أخاً. عائلة كبيرة وفيها قبضايات بل إن عدداً من أفرادها تعامل مع "فتح" في أول أمرها. ثم هناك أولاد العم وهم أيضاً كثر مما يشكل كتلة ذات وزن. دعا التجار إلى اجتماع في نادي "السلام" وحينما حان الاجتماع كانت كل المدينة تعرف وتنتظر النتيجة. ملأ المجتمعون قاعة من النادي وجلسوا في صفوف على كراسي البلاستيك. كان أمام الكراسي طاولة كبيرة مخصصة لاجتماعات النادي ووراءها جلس الحاج محمد النعيم باللحية والعباءة والحاج مصطفى سليمان بالطقم والكرافات وعدنان وسعيد القاضي بثياب الحداد. الحاج محمد النعيم شيخ التجار وكان مانع في الحضور لكن زملاءه اضطروه إلى القبول وخاصة لكونه يمت إلى آل القاضي بقرابة عن طريق الزواج، فزوجته أخت زوجة عدنان القاضي أخ القتيل. كان على الحاج محمد النعيم أن يفتتح الاجتماع، الأمر الذي

لم يرد أن يطيل فيه. بدأ باسم الله وسلم الكلام إلى الحاج مصطفى الذي لم يكن أقل حرجاً منه لكنه هو الآخر بسمل ثم أردف:

- المرحوم سليمان خينا. كلنا تأثرنا وحزنّا ونحتسبوا عند الله وبندعي لعيلتو وأخوتو إنو الله يصبّرن ويبرّد قلوبهن وبندعي-

هنا قاطعه شاب من الحاضرين وقف ووضع التلفون في جيبه. يده المرفوعة سبقت كلامه:

- مش مجلس عزا يا حاج. جينا لنشوف شو بدنا نعمل. اليوم سليمان بكره ما بنعرف مين. البلد مطوقة وممكن تنزل فوق روسنا.

هنا بدأ الكلام من كل النواحي. يقفون ليتكلموا ويقاطعوا بعضهم بعضاً:

- طلعت المنظمات لأنها ما بدّها تخاطر بالبلد.

- من أيمتى "اليقطة" وشو فيها تعمل.

- هيك بيهدّوا البلد علينا.

- عنّا ولاد وطفالى.

- بدنا نعرف آخرتها معاهن.

هنا دخل ثلاثة مسلحين. أحدهم كان بين المسلحين الذين صادفناهم في المقهى، كان القصير يرافقه اثنان أطول منه أحدهما ذو لحية قصيرة والثاني ذو ندبة على خده. دخلوا وجلسوا في آخر الصفوف و لم يلتفت الحاضرون لهم، كان الانفعال والبلبلة قد وصلا حدهما:

- منين اجتنا اليقطة. بكفّينا المنظمات.

- بدهن نموت تحت الردم.

– اليوم سليمان، بكره مين؟

– هاي بلدنا منين أجونا.

– يا عيني ما بدنا ياهن. يحسوا يزوقوا.

نهض القصير أولاً وتبعه ذو اللحية وصاحب الندبة. شعر الموجودون بقيامهم فهدأت البلبلة لكن الصوت لا يزال عالياً:

– يا خيي منين إجو. هاي بلدنا ويتركونا نتصرف فيها.

حمل القصير كرسيّ بلاستيك فارغاً وقذف به المتكلم فسكت. حمل ذو اللحية كرسيّ بلاستيك ثانياً وقذفه في الجو فطار خفيفاً وسقط في الوسط. حمل ذو الندبة كرسياً ورماه. بدأت الكراسي تسقط خفيفة بدون أن تسبب أي أذى فيما بدأ الحاضرون ينسلّون ويغادرون. تابع الثلاثة لعبهم وحين لم يبقَ أحد استمروا في اللعب بالكراسي ورأيتهم من مدخل النادي وهم يطلقون ضحكات صاخبة ويصفقون أكفهم بعضهم ببعض، ثم يخرجون كما دخلوا.

* * *

لم يكن معتاداً أن نرى التجار المعروفين في الحي القديم، لذا فوجئ الناس بالحاج محمد النعيم والحاج مصطفى سليمان يمشون تحت القناطر ويعبرون إلى الزقاق المظلم حيث كان بيت سليمان. دخلوا واختفوا في الصالون الذي سرعان ما امتلأ. تجمّع الناس في الفناء المكشوف الذي امتلأ أيضاً، فبدأوا يتجمعون في الزقاق المظلم الذي أعتمت فيه أشكالهم، وصار الزقاق يمتلئ شيئاً فشيئاً إلى أن تكدست فيه العتمة وفاضت إلى الساحة المضيئة التي صارت

أيضاً تكتظ بالوافدين، وتتغطى مساحتها بالناس الذين ملأوها إلى آخرها، فسال الجمع إلى أمام الجامع الكبير، وهناك أخذ يتكاثر إلى أن انحدر على الدرج إلى الجامع الصغير، ولم تبقَ أمامه سوى مساحة صغيرة ليصل إلى الأوتوستراد الذي أخذ أناس متفرقون ينتظرون فيه، لكنهم التمّوا وتحولوا إلى كتلة أخذت تتكدس هناك حتى الرصيف المقابل. كان لا بد من حمل النعش كل هذه المسافة فالمدينة بكاملها خرجت لتشييعه، أخذ الناس يتناقلون النعش من أمام بيت سليمان إلى الساحة إلى الجامع الكبير فالصغير فالأوتوستراد. وصل النعش إلى الأوتوستراد الذي امتلأ بالمشيّعين حتى الجبّانة. كان الموكب الضخم ماضياً على مهل تحت شمس نيسان اللطيفة والميكرو ينقل تلاوة عبد الباسط عبد الصمد، عندما ارتفع وسط الجمع صوت نحيل مجروح:

"يا سليمان يا سليمان وين هيي حقوق الإنسان"

ردّوا وراءه:

"وين هيي حقوق الإنسان"

وأخذوا يرددونها مراراً وبسرعة متزايدة لكن الصوت عاد:

جونا من كل البلدان حطونا فوق السندان

هاي بلدنا يا إخوان ما بننكرها شو ما كان

وبدنا نعيش فيها بأمان

وكالمرة الأولى أمسك الجمع بـ"بدنا نعيش فيها بأمان" وظل يكررها إلى أن دخل الموكب المقبرة وبدأت الصلاة على النعش. وبعد أن وضع النعش في القبر وأهيل عليه التراب خرج قسم من المشيعين إلى خارج المقبرة وهناك أخذوا يرددون تحت شمس الضهيرة:

يا سليمان يا سليمان	وين هيي حقوق الإنسان
جونا من كل البلدان	حطونا فوق السندان
هاي بلدنا يا إخوان	ما بننكرها شو ما كان

وبدنا نعيش فيها بأمان

وتوقفوا كما في المرة الأولى طويلاً عند "وين هيي حقوق الإنسان" و"بدنا نعيش فيها بأمان" وكرروها مراراً، ثم بدأوا يمشون بهذا الهتاف من المقبرة حتى المدينة حيث طافوا فيها وهم يهتفون. كان الناس ينضمون بسرعة إلى الموكب الذي تحول بسرعة إلى تظاهرة حاشدة وصلت إلى ختامها وتفرقت بسرعة.

كنت وحدي في الجنازة، لم أصادف صلاح ولا نديم ولا بيار. ما إن وصلت التظاهرة إلى السوق حتى انفصلتُ عنها وتوجهتُ إلى بيت صلاح حيث وجدتُ هناك نديم وبيار. كان الثلاثة ومعهم زوجة صلاح يشربون البيرة، أعطوني علبة بيرة لكني طلبت كأساً فأنا لا أحب الشرب من القنينة أو العلبة. أحضرت لي هالة كأساً وجلست أروي لهم ما جرى في جنازة سليمان وفيما أنا أتكلم بدأ دويّ استمر ساعتين بدون انقطاع. كان الدويّ قريباً وفي المساء علمنا أن القصف وقع على بيت في بستان وقتل طفلة.

في الصباح خرجت عند العاشرة من بيتي. لم تكن والدتي على علم بما جرى في الجنازة، لكنها بإيعاز داخلي غير واضح حتى لها حاولت منعي من الخروج ووقفت بيني وبين الباب. طمأنتها لكنها أجابت بأن قلبها يقول لها أن لا تدعني أخرج. كان نقابها منزاحاً عن شعرها الأشيب المجدول. أمسكتني من يدي لكني انفلتت منها وخرجت. في أول السوق صادفت عادل غزال يدبّ بجسده شبه

المربع في الطريق أوّل السوق. كان كبير الجمجمة وعريض الكتفين سميناً قصير القدمين مما يجعله أشبه بنرد ضخم. كان يرتدي كاسكيت تضفي غموضاً على شكله وتجعله أشبه بتحرٍّ خاص. في الواقع كان عادل غزال قادراً على أن يستنبش بطريقة ما لا يعرفها أحد، أسراراً وخصوصيات، ويبدو أن لا شيء يخفاه. كثيرون كانوا يتوجسون من أنّ له علاقات غامضة، قد يكون مخبراً أو جاسوساً. تذكرت أني لمحته البارحة في الجنازة. اقتربت منه وسألته بنصف صوت إذا كان يعلم من هو الشاب الذي رفع صوته بالهتاف "يا سليمان يا سليمان" فقال لي:

– إي هذا سليم حومد ابن البوسطجي شفت شو ذكي، الله يخليه لأهله.

صلاح السايس

الهتاف الذي تردد في جنازة سليمان القاضي عنصري بالكامل وإلا فما معنى "جونا من كل البلدان". في "اليقظة" فلسطينيون ولبنانيون فلماذا اتهام الفلسطينيين وحدهم. ثم إن مؤسس "اليقظة" لبناني كما علمت. هذا وحده يكفي ليبعد التهمة عن الفلسطينيين. لكن الشاب الذي رفع صوته بالهتاف اختفى من البارحة، الأصابع تشير طبعاً إلى "اليقظة"، هذا بالتأكيد عمل غبي إذ لن نجد سبباً أقوى منه لتغذية العنصرية. الوضوح لا يشغل الخيال، الناس يفضلون أن يكون العدو متظاهراً أو ملتبساً، على أن يكون جاراً أو قريباً. العدو الخفي يشغل الخيال، هذه هي لعبة العنصرية وهي لذلك سهلة ومتوفرة دائماً، إنها مسلية كحزورة لكنها تبدو في أحيان كحاجة جسدية. الذين خطفوا سليم حومد منساقون إلى اللعبة نفسها، سيبحثون عنده عن العدو بينما لم يفعل سوى ترداد أشياء غبية لا تحتاج إلى تفكير. هم أيضاً لا يفكرون، وإذا استسلموا تماماً لطبيعتهم فقد يقتلونه. إذا حدث هذا سيكون عملاً لا يمكن تخطيه، سيكون دامغاً ولا يمكن تخطيه

بالكلام وحده. لن يكون بعد ذلك مجدياً القول بأن المسؤولية لا يمكن تحميلها لشعب كامل، إن لم يكن شعباً فستتحملها ملة وفي النهاية لن يكون المسؤول مجرد فرد أحمق. أخاف أن يقتلوه ففي هذه الحروب لا يكتفي أحد بالتأنيب. القتل هو جزاء كل من يتجاسر ولو بكلمة، القتل وحده هو الجزاء. حرب الطبقات ليست دائماً حرباً مباشرة، يلحقها دائماً كثير من التشويش، هناك الكثير من الغبار للتعمية، الكثير من الخلافات مع الجيران والأقارب. البرجوازية تثير المزيد من غبار التعمية وتنقل الصراع وتصرّفه دائماً في مضائق ثانوية، هناك دائماً طريق مختصرة لتبعد الصراع عن نفسها. هناك دائماً حروب مع الأهل والجيران وتحريض على أنهم أعداء مموهون، وبأن كشف عداوتهم المستترة قد يؤدي إلى حلّ، وبالطبع لا حلّ يرجى من صراعات كهذه مما يزيد في تأجيجها، وكلما بدت مستعصية اشتعلت أكثر. سيمرّ وقت طويل قبل أن تستنفد كل الصراعات الثانوية ونجد أنفسنا أمام الصراع الكبير. إذ كلما أفلس تمويه تجد البرجوازية تمويهاً آخر تبعد به الصراع عن نفسها وتؤجل الصراع الكبير. الحزب موجود ليكشف حقيقة الصراع وليشير إلى البرجوازية كلما اختبأت هذه وراء خلاف ملّي أو عنصري. الحزب يشير إلى البرجوازية باستمرار ويطاردها ليحصرها آخر الأمر، وليضعها أمام حقيقة الصراع.

نديم السيّد

يا للغباء. اختفى سليم حومد، بالطبع لا يجهل أحد من اختطفوه وإذا وُجد بعد يومين جثة على الشاطئ فلن يجهل أحد الفاعل. ليس هذا غباء فقط إنه النعرة والتسلط، شعب يرفع السلاح على شعب آخر ويستبد به، المسألة هكذا. شعب ما إن يجد السلاح في يده حتى يتحكم بأقرب جيرانه. قد يكون هذا الجار أساء معاملته في يوم، لكن عليه أن لا ينسى أن هذه هي أرضه وأنه جاء من بعيد يزاحمه عليها. قد تكون حكومة البلد عاملته بارتياب وحتى بعنصرية، وقد يكون البعض جار على بعض أفراده لكن عليه أن يفهم أن هذه ليست حكومته وأنه ليس على أرضه. لا عذر بالطبع للحكومة ولا للأفراد لكن الحكومة شملت بالارتياب والتمييز قسماً من شعبها نفسه وأذلّته، وكان على الشعب الوافد أن يضع نفسه في سويته. كان عليه أن يعتبر نفسه دائماً ضيفاً وإذا أسيء اعتباره فحاله حال قسم من الشعب الأصلي. مهما كان فليس من حقه أن يستبد بشعب في بلده وعلى أرضه. لن يكون هذا سوى

اختلاس وتآمر، لن يكون سوى عقوق ونكران. صلاح يعتبر كل ذلك تمويهاً، أشراكاً تنصبها البرجوازية لتبعد الصراع عن نفسها. نحن بحسب صلاح نعيش دائماً في الخداع والتمويه. ليس من حقيقة إلا تلك التي تفصلنا عنها مضائق وطرق جانبية وأوهام كثيرة، كل هذه أعراض أما الجوهر فواحد. أقول لصلاح أن هذا لاهوت بحت، الفكر الديني يقوم أيضاً على ذلك الجوهر الواحد الخفي. يبتسم صلاح ويجيب: من قال لك إني لا أجد جدوى حقيقية في هذا الفكر. الله هو باستمرار أمل المعذبين وهو الحقيقة الوحيدة وهو المستقبل، هذا الفكر هو سندنا في النضال. إنه هو الذي يبقي أملنا حياً ويبقي المستقبل حاضراً والحقيقة ممكنة. عند ذلك لا أعود أفهم صلاح. أقول له لماذا إذن لا يصير متصوفاً. لماذا لا يعلن تصوفه ما دام لا يجد سوى الصراع الطبقي حقيقة في هذا العالم، لماذا لا يؤله هذا الصراع ويعتبره الجوهر الوحيد. صلاح لا يجاوب، أنه يعتبر أن في خدمة أي مبدأ شيئاً من التصوف. بل هو يفترض أن التجربة الدينية، تجربة المجاهدة والتكريس والفناء في الفكرة هي ذاتها في أي نضال. إن الأشواق التي تدعو إنسان للالتحاق بأي فكرة وخدمتها هي باستمرار شبيهة بالأشواق الدينية. أنا رغم تعاطفي مع الدين لست من هذه الفكرة، أفضل أن نسمي الدين ديناً وأن نسمي الله إلهاً بدلاً من أن نسميه التاريخ أو الصراع الطبقي. لكني أفهم تماماً هذا الانتكاس إلى الدين عند مناضل مثل صلاح، أفهم تماماً أن في حديث صلاح عن الدين قدراً كبيراً من النزاهة. في عقله انتهى الصراع بين الدين والمبدأ.

المبدأ هكذا يستمد من الأشواق الأولى وهي في قسم كبير منها دينية. لكن صلاح مع ذلك يبقى محيراً. هو يقول إنني عدمي، لست متأكداً من أنه ليس كذلك.

فواز أسعد

شبان "اليقظة" دوماً في الشوارع وعلى الحواجز. يتراءى لي أنهم يتكاثرون بوتيرة سريعة. البارحة عرفت منهم ذلك الفتى القصير النظر الذي كان يجلس وحده في آخر الصف، مصطفى أبو علي قلما يحتك بأحد وقصر نظره يعطيه عذراً كافياً ليبدو غائباً في الصف. كان يحمل معه كتباً مجلّدة جيداً هي في الغالب كتب تراثية ويكتب بعربية جيدة لكنها أصولية إلى حدّ ما، يحشر فيها جملاً تتردّد عادة في كلام رجال الدين. مصطفى قصير نحيل وبدنه كما ثيابه المشدودة على جسمه تساهم في غيابه. ابن لحام لذا تبدو جمله النجفية طارئة عليه وكأنها لغة أجنبية، يحترمه زملاؤه لأنهم لا يفهمونه، أما زميلاته فيضحكنَ منه لأنه يرفض أن يصافحهنّ ويرفع يده إلى صدره، كما يفعل المتدينون، كلما مدت واحدة يدها لمصافحته. كنّ يتظاهرنَ أحياناً بذلك، ويوعزنَ لأخريات به كي يجدنَ مادة للضحك. رأيته في ثياب فضفاضة عليه وسلاحه أيضاً غير متناسب معه، سألته متجاهلاً:

- يا مصطفى مبين هون شو عم تعمل؟
كان بالطبع ينتظر سؤالاً كهذا وقد أعدّ نفسه له:
- أنا عضو باليقظة عم أدّي تكليفي الديني والوطني.
"تكليفه" أن تسمعها من فتى في السابعة عشرة فلا بد من أن تبتسم، أعدت الكلمة كما خرجت من فمه:
- وتكليفك المدرسي يا مصطفى؟
لم يبد عليه أنه انسرّ من سؤالي. لقد أعاده تلميذاً بينما هو الآن مجاهد بكل معنى الكلمة، لكنه أجاب:
- المدرسة مسكرة، العدو قدامنا، بدنا نجاهد لنصدّ الغزو.
- تصدّ الغزو بتعرف تحارب يا مصطفى؟
كانت هذه فرصته ليقدّم نفسه:
- طبعاً يا أستاذ، أنا عامل دورة.
بعد قليل وأنا أخرج من السوق التقيت بحسين الطويل الذي كان حقاً طويل القامة. كان هذا بخلاف مصطفى صاحب جلبة. يهمه أن يفهمني ويفهم الصف أنه يتلقى علماً آخر غير العلم "الوضعي" الذي يتلقاه في الصف. علماً إلهياً أعلى منزلة بالطبع يسميه على غرار شيوخه "العلم اللدني". بدا أكثر مناسبة لسلاحه ولثيابه العسكرية. ما إن رآني حتى اقترب مني مرحّباً:
- مبيّن هون يا أستاذ؟
وقلت على طريقة مصطفى وربما بصوته:
- جايي أدّي تكليفي الشرعي.
فرقعت ضحكة حسين، راقني أنه فهم النكتة:

- تكليفك. تكليفك شو. ها. ها.

وغرق مجدداً في ضحكته.

كان سهلاً عليَّ أكثر أن استجرّ حسين إلى الكلام عن التنظيم. فهمت أنه بدأ في طرابلس أسسه فعلاً لبناني من القرى السبع المحتلة كان عائداً من المغرب هو الشيخ أحمد، الشيخ أحمد كما قال حسين "شاب مثلنا" ويقود التنظيم مجلس شورى مؤلف من خمسة أشخاص. كان حسين مسروراً من نفسه وهو يبلغني ذلك. أراد أن يحدثني أيضاً عن الشيخ أحمد وأعضاء الشورى وعن دورات التدريب لكنني لم أكن جاهزاً لذلك. انسللت تقريباً منه بتركه مع الشيخ خالد الذي قدمه إليّ باعتدال. كان الشيخ خالد ثلاثينياً يرتدي ثياباً عسكرية ويحمل سلاحاً كالجميع. كان أمير المجموعة الموجودة في المدينة إذا صحّ ما استنتجته من كلام حسين. الشيخ خالد مؤدب للغاية ويتقن فعلاً التواضع، بل يبدو أن هذا فنه. صوت منخفض بنبر حميم ودافئ، عينان لا تتفرّسان ولا تطيلان التحديق بل ترنوان، وجه يحمرّ بدون مناسبة، كان نظره يلمع ووجهه يتورّد طوال حديثه. الشيخ خالد جميل كشاعر وليست عليه البتة لائحة من الفقيه. ثنى كمّيه ورفعهما حتى ذراعه فبدا، والسلاح في يده، صياداً أكثر منه محارباً، وقلت له إنه يبدو ألطف من أن يكون مقاتلاً فقال لي:

- شاركت لحد هلق بمعركتين وما متت. المعركة التالتة عَ الطريق. البدّو يقتلني ما رح تفرق معو إذا كنت مقاتل ولا شاعر، قولك إلي هيئة شهيد. طمّني.

- أكيد، إلك هيئة ملاك.

قلت هذا وأنا أشعر بحزن تجاه الشيخ خالد، ففي لحظة تراءى لي هذا الوجه مشققاً ومدموغاً بالتراب. طالما كنت لا مبالياً تجاه المسلحين وحتى تجاه موتهم، أشعر أنهم يستحقونه وأن هذا، تقريباً، عملهم. أشعر أن حامل السلاح يصبح ميتاً لمجرد حمله، يصبح آلة سلاحه لا العكس. لا ينتظر منه أحد أن يتكلم. كلمته في سلاحه، إنه إصبعه في هذا السلاح، يختفي فيه بمجرد حمله. لم تكن هذه حال الشيخ خالد، كنت أنظر إلى عينيه لا إلى سلاحه وأسمع صوته العميق. له صوت وعينان وليس مجرد جثة خلف السلاح، كانت له هيئة الشهيد فعلاً وأنا حزنت لذلك وانعصر قلبي، فتركته مع حسين وانسللت.

غادرت السوق. مررت جنب الحديقة الهرمة وحين وصلت إلى السينما القديمة المهجورة وجدت حاجزاً قيد الإنشاء، هناك كانوا يرفعون أكياس رمل ويصفّونها. انعطفت من أمام الحاجز وسمعت اسمي، نظرت فوجدت شاباً ينفصل عن المشتغلين بالحاجز ويتجه نحوي. ما إن اقترب حتى لاحظت فوراً عينيه الزرقاوين النفاذتين وذقنه المربعة. كان سلاحه في يده يحمله كما لو كان يحمل مظلة. لاحظت عنقه الطويل وقامته المعتدلة المشدودة وصفحة وجهه تحت سالفه القصير، كان هو الآخر ثلاثينياً ومثله مثل الشيخ خالد يبدو أجمل من أن يكون مقاتلاً. قدم نفسه:

- صفوان المانع.

وحين لاحظ أني لم أجد جواباً. قال إنه سبق لنا أن التقينا في بيت شقيقه زهير المانع منذ سنوات وتذكرت عندئذٍ زهير الذي

زاملنا قرابة عامين في الثانوية قبل أن ينتقل إلى ثانوية أخرى، وفي ما بعد علمت أنه سافر إلى فرنسا لنيل الدكتوراه بمنحة من مؤسسة الحريري ولم أسمع بعد ذلك خبراً عنه. اللقاء الذي تكلم عنه صفوان هو في الأقل من عشر سنوات. ذاكرتي تخونني في العادة لكن هذه عشر سنوات، قد يكون صفوان تغيرت هيئته من ذلك الحين. لم يقل صفوان لكنه لمّح إلى أن السهرة عند شقيقه كانت على كأس، لمّح بخجل ولكن بدون استنكار فج قال إن السهرة كانت "عامرة والشباب انبسطوا"، وحين ضحكت أنا ضحكة ذات معنى جاوبني بمثلها وبلهجة لا زال للريف الشمالي فيها أثر واضح:

- بعدو زهير عميعمل هيك سهرات وعمينبسط.
- هلق عايش بغرينوبل وبعدو على معرفتك.
- عمينبسط.
- إي عمينبسط كتير (مع ضحكة طويلة).

هذا اللقاء دفعني إلى أن أتبسّط معه في الكلام:

- شو عمتعملوا هون؟
- عمندافع عن المدينة.
- إنتو أكيدين إنو قدرتكن تدافعوا عنها؟
- لا مش أكيدين. كل شي بيقول العكس. بس مش لازم الإسرائيليي يفوتوا بدون ما يلاقوا حدا بوشّهن، لازم حدا يدافع عن المدينة.

كان يتكلم وهو مطرق تقريباً لكن رموشه الكثيفة تضفي صدقاً

غريباً على كلامه. إننا نصدّق الجمال قلت في رأسي. لكنني عدت وسألته:

- هيّاك بتعرف إنها قصة صعبة. يمكن ما يقى منكن حدا. شو الفايدة. القيمة رح تكون رمزية بس. بيقبّروكن وبيفوتو. شو الفايدة.

- لأ هي مش طيش. نحنا مش طايشين. رح نعرف نقاتل. ننسحب وقت اللازم وبنهجم وقت اللازم. تطمّن رح بيموت منا كتار بس رح يبقى فيه أحياء. عنا خطة وواعيين لكل شي.

- والبلد، الإسرائيليي مستعدين يهبطوها على روس الناس. بدكن تدافعوا عن المدينة. أيّا مدينة بدكن تدافعوا عنها، البنايات والحجارة أو الناس، الناس ما بدها.

- الناس بدها أو ما بدها، مش بإيدن الناس، هيذي حرب من سنة 48، مش نحنا بلشناها، بالحرب بيموت ناس، كبار وزغار بيموتوا، بس لازم نحارب.

لاحظت أنه يعتمد أكثر على رجله اليمنى. يعاني من عرج خفيف في اليسرى التي انتبهت إلى أنها تحتذي فردة ذات نعل بسماكة مضاعفة، لا بد أن هذه الرجل محبوسة في قفص معدني، إنه شلل الأطفال. كان صوته رخيماً ويؤشر بيديه أثناء كلامه بحساب وتماماً على قدر الكلام. انضمّ إلينا فتى يقضم تفاحة. اقترب ووشوش في أذن صفوان. جمع صفوان أصابعه في يده اليمنى في إشارة إلى أن ينتظر قليلاً. حاول الفتى أن يعود من حيث أتى لكن صفوان أحاطه من كتفيه بيده واستبقاه. بدا الشاب مفعماً بهذه اللفتة. دعوت

صفوان لزيارتي ودللته على بيتي الذي لم يكن بعيداً جداً عن مكانه. قلت له مازحاً إنه مقابل الزورق الإسرائيلي.

انعطفت إلى الزقاق، ومررت تحت القنطرة وانسربت إلى الفسحة التي تشرف في نهايتها على البحر، ووصلت بعد أن عبرت ممشى طويلاً إلى بيتي، في الصباح لم أكد أغادر حتّى بدأت تمطر من دون غيوم، لكن العاصفة جعلت الشجرة تحت شباكي تهتز بجنون. أسمع طرقاً على الباب. أنتبه إلى أن الكهرباء مقطوعة والجرس لا يعمل. أفتح بعد أن تكرر الطرق فأجد على الباب صفوان ومعه شاب يماثله طولاً، الاثنان تشعث شعرهما في الريح وتنقّط قميصهما الكاكي بالمطر. لكن شعر الثاني استرسل حتى وصل إلى كتفيه. كان حنطي اللون بحاجبين مقوسين وعينين كبيرتين سوداوين ملأتا نصف وجهه. قدّمه لي صفوان:

- الأخ أمين.

الأخ أمين مثله مثل خالد وصفوان وسيم. لم أخفِ تعجبي.

- كلكن وسيمين، هيذي صدفة ولاّ من شروط العضوية؟

وجاوب أمين بلهجة فيها أثر من الريف الجنوبي:

- من شروط العضوية. شو هـ الحكي. إذا كان اللي بتقولو صحيح، هيي الصدفة أكيد.

أما صفوان فاكتفى بأن قلب شفتيه. كان التليفزيون الذي يعمل على البطارية مفتوحاً. ثمة مغنية على الشاشة لكنني أخفيت صوتها ما إن سمعت الطرق على الباب. لم يحول الاثنان بصرهما عن الشاشة كما توقعت، بل إن أحدهما سمّى - لدهشتي - المغنية قائلاً، وهو

يشير إليها، بينما يأخذ مجلسه على الكنبة؟

– طروب.

سألتهما إذا لم يكن سماع الغناء عندهما محرّماً.

قلب صفوان مجدداً شفتيه وأجاب بكلمة واحدة:

– لأ

وقال أمين:

– القرآن واضح إذا في تحريم لازم يكون في نص. ما في نصّ بيحرّم الغناء.

لم أتوسع فأنا مثل صفوان الذي، كما يبدو، لا يطيق المناقشات اللاهوتية. كان المطر لا يزال يسقط بدون غيم ونقاطه تقرع على سطح غامض، سألت أيضاً أمين:

– إنت كمان بدك تحارب؟

أجاب بابتسامة آسرة:

– أي. بدي حارب، (بتواضع) ما تستقلّني. أنا مش مصدّق أيمتى بنبلّش.

– ليش مستعجل. إمّك وبيّك مش خايفين؟ إنت مش خايف؟

– كلنا خايفين. في حدا بيفوت بالحرب وما بيخاف!

– بسّ...

– بس مش عارف شو بدي قلّك. مش رح قلك إنو واجبي. رح تقللي ليش مش واجبك إنت. الأمور مش معقدة هلقد. أنا بحس إني ما فيي خلّي الإسرائيلي يفوتوا بالهيّن. بحس إنو في مسؤولية عليّي. بشوف هـ الشي بسيط وطبيعي وأنا بسألك إنت

ليش ما بتحس متلي. مش إنت لوحدك. فيه عشرات متلك. أنا بحس إنو هذا بيزيدني ثقة. لازم كون مَثَلْ. إذا نحنا صمدنا شوي، الناس بتستقوي فينا. المرة الجايي بيكون في معركة أكبر. إذا فاتو هلّق بالهيّن، رح يفوتوا كمان عبيروت وما حدا بيردّن.

- إذا إنت مت. رح حس بمسؤوليي تانية. رح حس إني خليتك تروح عَ الموت وما ردّيتك. هيذي حياة كاملة، إذا قبلنا إنها تروح بشكل رمزي، تروح لتكون بس مَثَلْ. ما في شي بيبقاله قيمة.

- في واحد بدو يلّش. مش عارف إذا بيعطي قيمة للحياة أو بخليها بلا قيمة. إللي بيستغنوا عن حياتن منشان شي بيخلوا الحياة أغلى. بيعطوا قيمة لشي تاني. بالنسبة إلي الحرب متل الصلا. فرض لا بد منو. إنت عمتشربكني ليش. أنا ما بدي ياك تحارب، بدي ياك متل ما إنت. واقف جنبي وعمتشوفني حارب. يمكن هـ الشي يعطيك فكرة أحسن، يمكن يغيّرلك فكرك.

صفوان أثناء هذا الحوار يلعب بوجهه. بدا ضجراً. وقال:

- عمترجعونا لنقطة الصفر. نحنا فكرنا كتير قبل ما نقرر نحارب. بالآخر قررنا. إنت هيئتك مقرّر تبقى هون. هيه كمان بدها تفكير، خللي كل واحد يعمل اللي براسو.

أجبته:

- يعمل اللي براسو. هذا حقو، بس هـ المرة ما رح تنتهي براسو. في روس كتيرة بالدق. لازم كمان يحسبلها حساب، إنتو عمتفرضو حرب عَ الجميع.

قال أمين:

– مش عمنفترض شي، مش نحنا اللي اخترعنا هـ الحرب ولا نحنا اللي بلّشنا فيها، هيذي حرب انفرضت علينا نحنا كمان. مش فرحتنا نحارب. بس لمّن بيفوتوا عَ البلد بسلاحن بنتذل كلنا، هيذي حرب، والحرب مش بإيدنا. ما في حرب نظيفة. ما في حرب بدنا نعمل مسبقاً اشتراك فيها، الحرب قاسية عَ الجميع. الحرب عميا عميا.

قال صفوان:

– هذا حديث فايت. كل مرة بنرجع عَ الأول. قالوا لنا إنو عندك مكتبة حرزانة، خلينا نشوفها.

انتقلنا إلى غرفتي الخاصة. كان السرير لا يزال منبوشاً وتقدمت خجلاً لكي أوضبه لكن صفوان أمسكني من كتفي واستبقاني.

– ما تهتم. كلنا هيك.

استعرض المكتبة التي كانت مرصوصة في هيكل من مربعات خشبية مسنود إلى الجدار. خاب أمله حين لم يجد كتاباً إنكليزياً. لم يكن يحسن الفرنسية لكنه استعرض المكتبة العربية وتصفّح **في الشعر الجاهلي** لطه حسين **والإسلام وأصول الحكم** لعلي عبد الرازق **وأولاد حارتنا** لنجيب محفوظ وهذه الكتب جميعها، كما هو معلوم، تعرضت لمحاكمات دينيّة، ولما لاحظ دهشتي أو كان ينتظرها قال لي:

– هيه مسائل بدها رواق كتير لنبتّها. وقتها كان ظرف وهلّق ظرف.

في النهاية خرجا بعد أن استعار **الحرب الأهلية في فرنسا** لماركس

واستعار أمين في الشعر الجاهلي لطه حسين. لاحظت أن صفوان يعرج عرجاً خفيفاً بينما أسرع أمين الخطو. كانت أمي لصق الباب ترصد الزائرين، فهمت أنها قلقة من رؤية مسلحين في بيتها. طلبت منها أن تعمل قهوة لنا، لما رجعت إلى الصالون كان أمين قد أخذ مكانه على الكنبة بينما جلس صفوان. قلت لصفوان وأنا أرخي نفسي على الكنبة:

– هلّق بدي اسأل عن سليم حومد، بيقولو اختفى. في حكي إنو إنتو مسكتوه وإذا قلتو لأ الناس مش رح تصدق. قللي أولاً وينو.

اعتدل صفوان وأمسك ذقنه بإصبعين وبدأ يتكلم بتأنٍ جملة بعد جملة وكأنه يحصي عباراته.

– إذا قلتلك إنو مش عنا ما رح تصدقني. لأ نحنا مسكناه من أول مبارح وداير التحقيق معو.

– تحققوا معو. ليش شو عمل. رفع صوتو بحكي كل الناس بتقولوا. سمعناه كلنا، مش عميتآمر، اللي بقلبو طلّعو. هيذا شاب بيحب يبيّن. مش أول مرة. قللو لأبو وائل الناس عميقولوا إنكن احتلال وأبو وائل سمعو وسكت. أبو وائل بدوي وعرف يتصرف. إنتوا فهمانين. لشوا هـ الغلطة؟

كنت أتكلم و لم أنتبه إلى أن صفوان يتغيّر لونه وتنفتح عروق رقبته:

– مش غلطة. الإسرائيلي عَ البواب. يعني نحنا بحرب وبيجي واحد يقول عنا أغراب. شو بأكّد إنو مش مدسوس. بالمعركة مش مسموح لحدا يحكي هيك.

قلت وكأنني أتراجع. أدركت أنني بالغت في تفاؤلي. ها هو

صفوان يعود مسلحاً كبقية المسلحين. حسبت أن هناك فسحة أكبر بيننا:

– ما تنسى إنو كان فيه قتيل. يمكن صاحبو. بدك تقدّر مشاعرو.

كنت هكذا أتخلص من النقاش، الذي صار فجأة شبيهاً بسوء تفاهم تنبغي إزالته. لكن صفوان لم يلتقط رميتي. كان مسترسلاً في حدته:

– القصّة هون، صاحبو قتلوه الإسرائيلي وهوّي عم يتهمني فيه. قصدو ولا مش قصدو عميعطي براءة للإسرائيلي، عمبيحط المسؤولية علينا.

شعرت بأني تراجعت أكثر مما يجب. كان عليّ أنا أيضاً أن أقابل صفوان في المنتصف. قلت له:

– هيذا مش بس هوي، نصّ الناس وأكتر هيك، لازم تسألو حالكن شو عملتو لصارت الناس ما عندها ثقة فيكن.

لاحظ صفوان إني أنا أيضاً أحتد فتراجع هو هذه المرة:

– هاي سيرة طويلة مش هلق وقتا، صار في كتير أخطاء، من هون ومن هون، بس يصير بعلمك، سليم خلص التحقيق، إذا مش اليوم، بكرة بيطلع.

* * *

كانت الحادية عشرة قبل الظهر مررت في طريقي على الحاجز، وعندما سألت عن صفوان لم يعرف الفتى الباقي وحده على الحاجز كيف يقول لي إنه يقضي حاجته في أحد البيوت المجاورة. قال:

- مش هون.

وحين سألته:

- وينو طيب؟

استجمع فكره قبل أن يعثر على جملة واحدة:

- بحمّام الجيران.

تجاوزت الحاجز وقبل أن أصل إلى السوق رأيت نديم خارجاً من بيته القريب وعليه ساهاريان رمادي، وقدرت أنه يقصد بيت بيار في المنعطف المجاور. ما إن تقابلنا حتى بادرني وهو يقوس حاجبيه:

- عرفت. بعتو ورا صلاح.

- مين اللي بعتو؟

- مين يعني. في غيرن. اليقظة، ما كانش ناقصنا.

- مين إجا مِن يمّن؟

- واحد إسمو أمين. بتكون عرفتو.

- أي عرفتو شاب بيفهم.

- هيذي البعصة، قال بيفهموا وبيقروا وبلشوا بخطف سليم حومد وهلق دايرين على صلاح.

- وصلاح راح.

- لأ قالوا إنو هني بيجوا ياخذوه.

- سليم طلع؟

- هيك سمعت، بدي ميّل على بيار ونروح سوا لعندو شو رأيك تجي معنا.

- إيه يالله نروح.

انعطفنا ووقفنا تحت العمارة المؤلفة من طابقين ووراءها حديقة. كان الطابق الثاني ذا شرفة عريضة، في أعلاها دائرتان من زجاج ملوّن بالأزرق الغامق والفاتح. صاح نديم "بيار" فخرج إلى الشرفة وهو يسرّح شعره بالمشط، وأشار بجمع أصابعه إلى أنه نازل. سرعان ما خرج من بوابة الطابق الأول. كان قميصه البرتقالي مضبوطاً من الأمام على جسده فيما هو منفتخ من الخلف ومسوّى من الأسفل بعناية داخل حزامه. زران في أعلى القميص محلولان وجزء من الصدر معروض بارز وسلسلة ذهبية حول النحر تختفي قلادتها تحت القميص. لم يكن بيت سليم بعيداً، كان في عمارة تدير ظهرها للبحر فيما تطل شرفاتها على الشارع. دخلنا إليها فوجدنا فناء المدخل مليئاً بقرابة خمسة عشر شخصاً فرادى، أحدهم أرخى ظهره على الحائط وثان يتحرك بخطوات بطيئة وثالث واقف على الدرجة الثانية من السلالم، فيما اجتمع قرابة ستة رجال في وسط الفناء وخمس نساء قربهم. دخلنا فوقفنا ثلاثتنا أيضاً في ركن من الفناء. من الواضح أن بيت سليم في الطابق الخامس ازدحم بالمهنئين وهؤلاء في الأسفل ينتظرون دورهم. بعد قليل انفتح المصعد وخرج منه خمسة فصعد بدلاً منهم خمسة. في هذه الأثناء كان هناك مهنئون جدد يصلون ويقفون ينتظرون دورهم، صعدنا خمسة في المصعد وذهبنا فسلّمنا على سليم الكبير الرأس المعتدل الطول والجسم. كان يقف جنبه والده الأشيب النحيل. عانقناه وعانقنا والده وجلسنا أنا وبيار جنبه على الكنبة نفسها، بينما جلس نديم على كرسي قريب. كان سليم يرتدي طقماً زيتياً وربطة عنق حمراء وحذاءً جديداً. كان معتداً بنفسه بادي

السرور بهذا التضامن الكبير الذي حظي به، فمن المؤكد أن المدينة بكاملها جاءت تهنئه، ومنذ أطلق سراحه وهو يستقبل الناس أفواجاً. كان جاهزاً يروي ماذا حدث معه بسؤال أو بدون سؤال. أحاطوا عينيه بعصابة بعد أن كمنوا له في الشارع وأدخلوه إلى "الجيب" عنوة. داروا به ساعتين تقريباً قبل أن يقودوه إلى مستودع تحت الأرض حيث رموه وأغلقوا عليه. لم يقل إنه خاف، بينه وبين حاله كان يسخر منهم، حين أخذوه للتحقيق تحداهم بأجوبته، قال لهم إن هذه بلادُه وهو الذي يسأل. سألوه إذا كان أحدهم لقنه الهتافات التي رفع صوته بها في الجنازة، هل طلب منه أحد أن يهتف بها، أجاب أن سليمان جاره وابن بلده وما فعله كان من رأسه و لم يوح به أحد. سألوه إذا كان يذهب إلى الشريط الحدودي المحتل فقال إن هذا وطنه وهو يتجول فيه على راحته، وإنه تربى على عداوة الإسرائيليين. كان يروي ما جرى وكأنه هو الذي يحاكم سجانيه الذين كانوا مربكين أمام حجته وأمام جرأته. سألته إذا كان المحقق لبنانياً، إذا تحقق من لهجته فشعرت أنه هرب من الجواب، قال إنه لم يعرف. سأله نديم إذا كان تعرّض للضرب أو التعذيب، كان سؤالا بديهياً لكنه تملص منه. قال إنه عومل بخشونة، و لم يجزم إذا كانوا ضربوه أم لا. بدا أن هذه الأسئلة تعوق استرسال روايته الذي سرعان ما استعاده، كانت الذروة هي الأشعار التي ادعى أنه ألّفها وهو في سجنه

يا خيي شو هـ القضية	فيها قطبة مخفية
فيها كلمة ما بتنقال	لا عَ الخاطر لا عَ البال
الأرض اللـ راحت بالرسمال	بدنا واحده بدالا

حين صرنا على مدخل البناية بعد أن خرجنا من بيت سليم، قال نديم:

- مش قليل سليم حومد. طقم وكرافات وصبّاط جديد. مش يكون عميفكر بالزعامة.

ضحك بيار، أما أنا فكنت مستاءً من شيء لا أعرفه. لم أكن أنتظر شيئاً من سليم لكن حديثه خيبني. لم أستكثر عليه طقمه وحذاءه، لم أنزعج من اعتداده. كنت مستاءً، ربما، لأن سليم أعطانا الانطباع بأنها كانت لعبة بينه وبين سجانيه. لم يحتجّ على اعتقاله بقدر ما اهتمّ بأن يوحي بأنه غلب سجانيه. لم يرد أن يقول إنه أهين، كان بدون قصد ومن أجل مظهر الكرامة يبرر سجانيه وربما سجنه. قال بيار:

- خلينا نروح عند صلاح.

كان علينا أن ننتقل بضع دقائق لنصير في بيته. قرعنا الباب، بعد قليل كانت زوجته على الباب في عباءة منزلية وما إن قابلتنا حتى بدا على وجهها الارتياح. كانت قلقة فقد أتوا في سيارة واصطحبوا صلاح معهم، مضت على ذلك ساعة تقريباً. قالت إنهم كانوا لطفاء معه ومعها لكن من يدري. دخلنا، أصرّت على دخولنا لفنجان قهوة كما قالت. هالة رفيقة قديمة. جاءت من عائلة شيوعية والدها وإخوتها جميعهم تقريباً في الحزب. كان زواجها من صلاح حدثاً لكنها منذ تزوجته بدأ عملها الحزبي يتراجع. التهت ببيتها وبأولادها وبعملها كمدرّسة، حتى اهتمامها بالسياسة لم يبقَ على حاله. صارت تمضي وقتها بقراءة الروايات المترجمة بل قيل إنها حاولت هي نفسها أن تكتب رواية، لكنها حين سألناها عن ذلك نفت بشدة، لقد اكتفت بنضال زوجها وربما كتاباته. حملت إلينا القهوة بعد أن بدلت ثيابها في الداخل واستعاضت عن العباءة ببلوز وبنطلون بيج وبني. استطاع

نديم أن يقلب الجوّ بمزاحه. قضينا ساعة تقريباً وخرجنا. افترقنا على المدخل أنا إلى بيتي ونديم وبيار إلى بيتيهما المتقاربين.

تلفنت في الخامسة بعد الظهر إلى بيت صلاح لم يكن عاد، قالت هالة زوجته إن بالها مشغول عليه، أنا أيضاً انشغل بالي. في السادسة لم يكن عاد أيضاً، قالت هالة إنها قلقة جداً، كان في صوتها ما يشبه التوسّل. قلت لها إنني ذاهب للسؤال عنه. بالفعل سرت إلى الحاجز، لم أجد صفوان أيضاً، لكن الفتى الذي وجدته هناك عرف هذه المرة كيف يقول لي إنه عائد قريباً. انتظرته نصف ساعة تقريباً ثم رأيته يطلّ من آخر الزقاق. كان يمشي بخطوات واسعة، لوّحت له فاتجه نحوي:

– صلاح أخذوه من الساعة تنتين ولهلّق ما رجع. مرتو كتير قلقانة. عندك علم.

– لأ. بس بعرف إنو في خطة لنلتقي بكل الجهات، صلاح مسؤول بالحزب الشيوعي. وأكيد بدهن يقابلوه. لازم يكون استدعوه منشان هيك، ما عندنا شي ضدو، قول لمرتو إنو اجتماع، اجتماع بس وبيرجع.

عدت إلى البيت لأطمئن هالة. عندما تلفنت ردّت عليّ وقالت لي إن صلاح عاد بعد بضع دقائق من تلفوني، وحاولت أن تطمئنني لكنها لم تجد في بيتي من يجاوب على تلفونها، صلاح في الحمام وسيكلمني ما إن يفرغ من حمّامه. بعد قليل رنّ التلفون. كان صلاح على الخطّ.

– نعيماً يا أبو الصلح.

– ينعم عليك يا بو الفوز ما تقلق. هَوْ جماعة عندهن عقل. الدين محل ما لازم يكون. بينهن وبين الله وبالباقي بيحكوا متلنا، دينن متصالح مع الديموقراطية ومع الاشتراكية. قلتلك بيحكوا تقريباً متلنا.

– خليك محلك، أنا جايي لعندك.

غادرت البيت، في الطريق وجدت صفوان على الحاجز سألني وهو على كرسيه:

– رجع صاحبك؟

– أي، رايح شوفو.

عبرت السوق وسرت بسرعة باتجاه بيت صلاح، لاح لي من صوت صلاح أن عنده قصّة تستحق. وجدته جالساً بالعباءة، تراءى لي أنه بها بدا شبيهاً برجل دين. بعد قليل جاءت هالة بذات البلوز والبنطلون البيج اللذين تركتها فيهما. جلست قريبة من صلاح الذي كان في انتظارها.

– بالبداية خفت. عصّبولي عينيي. قلت الله يستر لكن الشخص اللي إجا ياخذني، يمكن إسمو خالد، طمّني، قلّي إنو هذا تدبير أمني بسّ، قلّي ما تهتم، هذا لسلامتك وسلامتنا. آخرتها وصلنا، فتنا على بيت بسيط، لقينا هونيك الشيخ أحمد، الشيخ أحمد ما يغرّك الاسم، شاب متلنا بالجنز والصندل قال إنو الله خلقنا وعنا كرامة، الكرامة إنو يكون الإنسان حرّ ومحترم ومكتفي، مكتفي قلتلّو، مكتفي يعني الاشتراكية قال ليش لأ، الجوع بيخلي الناس بلا كرامة. بيخليهن يبيعو كرامتهن. قال إنو الله خلقنا أحرار، وبيحاسبنا على حريتنا.

قال إنو الدين عند الله الإسلام. يعني كل دين شو ما كان إسمو داخل بالإسلام.

ظل صلاح يتكلم، كان سعيداً بهذا اللقاء. سعادته أكثر من كونه وجد الشيخ أحمد قريباً من أفكاره، في أعماقه هناك طرف من الدين لا يزال حياً. كانت مصالحة الدين مع الاشتراكية قضيته الشخصية. كان لا يزال مفعماً بتاريخ الاستشهاد، بالحلول الصوفي، لربما يعيشهما في شيوعيته. ابن عربي مثله مثل ماركس ولينين بين أئمته. كان يمارس الحلول الصوفي ويعيشه في الحزب. الطاعة الحزبية مبدأه في حين يتصرف في الحزب كمريد وينصّب الحزب إماماً. كان يعرف أكثر من قيادات الحزب، في الحقيقة هو مرجعها، كلما احتاج الحزب إلى فتوى نظرية يجدها له، خاصة في صراع الحزب مع اليساريين الذي كان في الأغلب نظرياً. الحزبيون العاديون يعجزون أمام اليساريين الذين يتميزون بثقافة أكبر. ليس الحزبيون العاديون فقط ولكن أيضاً الكوادر. كان يعرف أكثر لكن هذا لم يجعله يشاغب أو يعصى الأوامر. كان يطيع معطياً القيادة نوعاً من سلطة ميتافيزيقية، حتى إذا كانت عادية. يظل يفكر أنها أقرب إلى التاريخ، تصغي أكثر إلى إرادته تعرف أكثر حكمه.

في عودتي لم أجد صفوان. كنت أريد أن أنقل إليه انطباع صلاح عن الشيخ أحمد. قال لي الواقف على الحاجز إنه عند الجيران. لم أسأل ماذا يفعل عند الجيران، لم أفكر حتى بالأمر. لكن خبر هذه الزيارة انتشر في اليوم الثاني، ليس في الحي وحده بل في المدينة. أمسكني واحد من الحي من كتفي وقال لي إن الشاب الأزرق العينين، الذي

شاهده يقصد بيتي، سهر البارحة عند دنيا، وبلغته هو، أمضى الليل عند دنيا. دنيا بنت لاجئ فلسطيني تعيش مع أسرتها في بيت قديم من حجرتين. لم تشتهر دنيا بعينيها اللوزيتين السوداوين وخصرها الرقيق جداً وردفها الإجاصي وصدرها العامر فقط بل اشتهرت أيضاً بخفتها. عثر عليها مرات في ظل القنطرة التي يطل عليها شباك بيتها مع عريف من الجيش، وقبله مع معلم في الأونروا، وقيل إنها قبلهما تورطت مع ممرض،. كان بيتها في أول الحي وقلما عبر واحد تحت القنطرة و لم يرها تطل من الشباك، وهي تعطي الجميع من ابتسامتها ونظراتها. سمعتها الممضوغة جعلتها تقريباً "فاجرة الحي"، وها هو صفوان الفلسطيني الأصل يمضي سهراته عندها. منذ هذه الليلة لن يتوقف عن الصعود إلى بيتها، وستصبح أخبار زياراته هذه تسلية الحي، سيشاهد معها تحت القنطرة وعلى الحاجز وعلى الكورنيش، هذه المرة تفوق كل مرة أخرى. ذات العين الزائغة لم تعد تعطي بالاً لأحد، لا اهتمام ولا حساب ولا أي اعتبار. الذين نبهوها قالت لهم إنها لم تغلط وما تعمله تعمله تحت عيون الناس وأهلها، وأن أباها وإخوتها يعلمون وهي لا تقوم بشيء من دون علمهم. في كل الأحوال، الناس يتكلمون. يتكلمون أكثر من طاقتهم. لأن هذا كل ما في مقدورهم، لا يستطيعون شيئاً آخر. إنه عجزهم يحيلهم عبوات كلامية ويجعلهم ينفجرون سدى في أي وقت.

كنت أمرّ على الحاجز وأسأل عن صفوان ويقال لي إنه عند الجيران، لكني أحظى به مرات. أخبرته عن انطباع صلاح عن الشيخ أحمد، لم يفاجأ، كان واثقاً تماماً من قدرة الشيخ أحمد، لا يشك في أنه

يستطيع أي شيء. ليس الشيخ أحمد زعيمه، إنه تقريباً مربّيه. فهمت أنه مربّي خالد وصفوان وأمين وبالإضافة إلى أربعة أو خمسة آخرين مشغولين بمهام أخرى. هؤلاء هم كل التنظيم الذي أسسه الشيخ أحمد، هناك أيضاً بضعة أنصار، هذا هو كل التنظيم. الذين أراهم الآن كثيرين هم من فرافيط التنظيمات الأخرى، فرافيط رفضت أن تنسحب معها أو نسيتها التنظيمات هنا. هؤلاء التحقوا باليقظة في اللحظة الأخيرة، التحقوا بها لكنهم لم يصيروا جزءاً منها. أخبرني صفوان أنهم يخافون أن يورطوهم في أي لحظة بغلطة من أي نوع. إنهم فوضويون، مجرد مسلحين وعقلهم في أسلحتهم. قد يغلطون مع الناس في المدينة، إذ لا عقل يردهم عن أي شيء. قد يتشاجرون أو يعتدون أو يتحرشون. لا عقل يردهم، قد يتصرفون من رأسهم، حتى في المعركة. صفوان قال إنهم لم يستطيعوا بالطبع أن يرفضوهم، لقد جاؤوا بأسلحتهم وطلبوا أن يلتحقوا، أرادوا أن يقاتلوا، من يستطيع أن يقول لهم لا. كل ما يستطيعونه أن يراقبوهم، أن لا يكونوا بعيدين حين يغلط أحدهم.

صفوان ولد هنا بالطبع لكن أهله جاؤوا من الجليل، الشيخ أحمد جاء من القرى السبع، خالد من الشمال، أمين من عكار، هناك آخرون من الجليل وولدوا هنا. الشيخ أحمد متزوج من فلسطينية. إنه طبيب من أطباء بلا حدود، كان في فتوته يسارياً لكنه في ما بعد تعلم من مرضاه، من والدته أولاً التي شاهدها تموت، تعلم الايمان. لقد عرف أنه ليس هوائياً، ليس مجرد خوف ولا مجرد قلق، إنه حقيقي وعضوي ويمكن أن يكون أيضاً في الدم، في الأنسجة. لم يطل الوقت حتى

بدأت مشاكل الملتحقين الجدد باليقظة. أحدهم عادل الصغير اخترق بسيارته الجيب صفاً طويلاً من الذين ينتظرون دورهم للحصول على البنزين في المحطة. البنزين في المحطات يشح ولا أمل في هذا الظرف بإعادة تعبئتها سريعاً، لذا يقف صف طويل جداً من السيارات أمام المحطة. عادل الصغير تخطى الجميع ووقف بسيارته أمام عامل المحطة الذي وضع له في خزان السيارة تنكة البنزين المسموح بها أمام أعين السائقين المنتظرين منذ وقت طويل. لم يبالِ بحرج العامل ولا بتذمّر السائقين الذين ملأوا الجو بزماميرهم احتجاجاً.

لم تكن هذه قصة كبيرة، لكن السائقين تداولوها وعامل المحطة رواها للجميع وهو ينفخ غيظاً. لم تكن أيضاً القصة الوحيدة من هذا النوع. المواد قليلة وتوزع بحساب وبالدور لكن سعيد مجهول باقي الاسم تقدم الجميع واستولى على كيس طحين. هناك المسلّح المجهول الاسم بالكامل الذي صادر فراشاً من باخرة، والمسلّح الذي حمل أغراضاً كثيرة من دكان لم يجرؤ صاحبها على مطالبته بثمنها.

ثم كانت الحادثة الكبرى، ضرب عامل فرن لأنه تمرّد و لم يقبل بأن يبيع "سعيد" خارج الدور. كان "محمد الأسطى" ضيّق الخلق و لم يطق أن يعطي لهذا الذي خرج من الصف و لم يحترمه ربطة خبز. أحسّ بالصفعة وواجه بيديه لكنهما كانا اثنين وتعاونا عليه حتى سقط أرضاً وهو ينزف من وجهه. كانت هذه بداية بضعة شجارات تكلموا بها في حينها كثيراً. تصدى واحد من الحي لمقاتل أطلق عبارة غزل "يا عيني عَ القمر" لمرور فتاة جميلة من أمام الحاجز فتلاكما

وتعادلا لكن القصة اشتهرت، وبالطبع صار عبد الله العكاوي بطلاً في المدينة، هذه القصة شجّعت غيره على التصدي. هكذا كمن شابان لمقاتل كانا تبادلا معه شتيمة وضرباه، حصلت المدينة على بطلين لكن ما فعلاه لم يمرّ بدون جزاء، أُدخلا عنوة إلى سيارة ورجعا بعد ساعات مدميين.

كنت أقابل صفوان الذي لا يخفي ضيقه، خشي أن تفلت الأمور من أيديهم وهي في طريقها لأن تفلت. فكر بأن من الأفضل أن يجمعوا المقاتلين من المدينة ويعيدوهم إلى مخيماتهم وبلداتهم، لكن هذا لم يكن رأي الشيخ أحمد الذي أوصى بالانتظار قليلاً. فهمت من صفوان أنه يلومه لأنه قصير النفس ويوصيه بالصبر. ليس صفوان وحده الذي يتذمّر، كل اليقظة "الأصلية" تتذمر من الملتحقين الجدد. صفوان ابن مدرس في الأونروا تربى في مخيّم المدينة ولم يعرف مخيم عين الحلوة إلا في زيارات إلى بيت عمته التي تسكن فيه. تعرف على الشيخ أحمد في زيارة إلى المخيم، كان الشيخ أحمد يطبب في مستوصف مجاني وسمع عنه من أولاد عمّته. المستوصف قريب من بيت العمّة التي تعهدت جيرانها بركوة قهوة أو إبريق ليموناضة، ولتساعد صفوان على أن يكسر خجله المزمن، أرسلته إلى الشيخ أحمد بركوة قهوة. عاد صفوان بعدها إلى البيت وقد انطلق لسانه فالشيخ أحمد عرف كيف يفك عقدة خجله. كان صفوان بحاجة إلى هذا اللقاء ليتحرر من الكبت ولتظهر مواهبه المدفونة فصار في وقت قصير خطيب المدرسة.

خالد كان من "فتوات" الميناء في طرابلس أبوه صياد وهو أيضاً

تمرّس بالبحر. كان من حظه أن التقى بأمين العكاري الذي استذكر معه الأبجدية التي كاد أن ينساها منذ أن أخرجوه من المدرسة. بدأ يتهجأ الصحف ويجد لذلك متعة توازي متعة استماعه إلى الغناء. ومن الصحف انتقل إلى قراءة آيات واستمع كثيراً إلى أمين ورفاقه، وبسرعة لم يصدقوها صار يتكلم مثلهم، بل يتجاوزهم أحياناً بحدسه. أما أمين فهو ابن شيخ عكاري ملاك أرض قديم، أفلس على الطريق وأثرت فيه الضائقة فاعتزل الناس. أحس أمين وهو بعد طفل بقهر أبيه، وما إن شبّ قليلاً حتى التحق بتنظيم محلي قاده إلى المخيم وهناك التقى بالشيخ أحمد. كان الشيخ أحمد أباً للثلاثة ومربياً فكرياً وأخلاقياً والثلاثة يدينون له بكل ما صاروا عليه.

قال لي صفوان بأنه أفضل لي أن أتعرف على الشيخ أحمد، ولما كثرت حوادث التنظيم قال لي صفوان إن الشيخ أحمد يريد أن يقابلني. كان صلاح أخبرني أنهم عصبوا عينيه لكي لا يستدل على الطريق. هذا أمر حيّرني إذ إنني أجد خالد وأمين وصفوان بين الناس فلماذا يحتجب الشيخ أحمد ويتشددون إلى هذا الحد في أمنه. قال لي صفوان إن بيته قاعدة للتنظيم ويعدونه ليكون منطلقاً لنشاطهم بعد أن يدخل الإسرائيليون إلى المدينة. لم أقتنع تماماً. ظلّ في بالي أن هذا امتياز للشيخ أحمد على بقية الأعضاء.

لفّ أمين عيني بقماشة سوداء وسار الجيب الرمادي في الطريق إلى الجسر لكنه انعطف إلى اليمين وتغلغل بين البساتين. كنت هذه اللحظة قادراً على الاستدلال لكن الجيب ما لبث أن أخذ يلفّ في منطقة لم أحزرها. فقدت الحسّ بالاتجاه وتركت الجيب يصعد ويهبط

ويجول وأنا لا أستدلّ أبعد من العصابة التي على عينيّ. أطبقت العتمة على بصري وعلى روحي. استرخيت للظلمة واستسلمت إليها وأشعرني هذا بأني ألعب لعبة الأعمى وأسلم نفسي برضا كامل لهذه اللعبة. احتبست في لطخة السواد التي أمام عيني وبدأت أسرح فيها وهبط عليّ شيء يشبه النوم، إلى حين هزّني أمين وأمسكني من يدي وهبط بي من الجيب وأدخلني من باب ما لبث أن أغلقه خلفي. أذن لي عندها أن أرفع عصابتي فوجدت نفسي في قاعة مستطيلة. كنت جالساً على كرسي وسط صفوف من الكراسي كأنما القاعة معدّة لاحتفال. أمامي كانت هناك فرش مطروحة على بعضها حتى السقف، وإلى جانبي مجموعة كلاشنكوفات وصناديق خرطوش. رغم هذا المشهد العابس تنفست رائحة حلوة ما لبثت أن تذكرت أنها رائحة زهر الليمون وسمعت زقزقة قريبة، لم يعد لديّ شك في أن هذه الحجرة في بستان. تركني أمين في القاعة ثم شعرت بأن المفتاح يدور في القفل وانفتح الباب ورأيت في مدخله أمين مع رجل آخر. دخلا ودخلت وراءهما سيدة تحمل طفلة على ذراعها. قدمّ أمين لي الشيخ أحمد الذي قدّم لي زوجته وابنته. كان للشيخ أحمد وجه منحوت ذكّرني حاجباه وعيناه النفاذتان وفكه الصلب وحنكه الذي هو شبه زاوية بوجه أتاتورك، وكانت له قامة جندي بكتفين عريضين وطول معتدل وجسد ممشوق بادي القوة. يرتدي قميصاً كاكياً مسدلاً على بنطلون كاكي، أما زوجته فكانت تلفّ رأسها بإيشارب وترتدي فستاناً بكمين طويلين مسدل على بنطلون جنز، فوجئت بطبيعة الحال بوجود زوجته. لم أتوقع شيئاً كهذا من رجل

يلقب بالشيخ. لاحظ هو مفاجأتي فقال ضاحكاً، وهو يشد على يدي:

- أكيد تفاجأت إنو عندي مرة واحدة. ناطر تشوف أربع.

أجبت بدون أن أستسلم لمزاحه:

- اللي فاجأني إنو الشيخ بيستقبل هو ومرتو. العادي إنو الشيوخ لحالن ونسوانهن لحالن.

- بس أنا شيخ بالعمر. السنة بكمّل الأربعين. أنا مش شيخ بالمقام.

جلس وجلست زوجته قربه والطفلة على ذراعها، لما رآني ابتعدت إلى كرسي في الصف قال لي:

- قرّب. ما تقعد بعيد. هيئتها المشيخة راعبتك.

- اقتربت فأحاطني بذراعه وسألني وهو على هذه الحال.

- الشباب ما عندهن إلا سيرتك، خاصة صفوان، قلّي كيف شفتهن.

- الشباب ممتازين المشكلة مش فيهن.

- بعرف المشكلة بالجدد. شو قولك لازم نعمل؟

- رأيي تجمعوهن وترجعوهن عبلادهن. ما فيكن تعتمدوا عَ الوقت، الوقت مش لصالحكن. مع الوقت بتكتر مشاكلهن وبيورطوكن ببلاوي أكتر.

- أيّا بلاوي. تنكة بنزين برّا الدور، كيس طحين، كلمتين غزل ببنت. هوذي مشاكل فعلاً بس بعد فينا نعالجن. اللي أخذ تنكة بنزين خارج الدور بعتنا تاني يوم وجبرناه ينطر بالدور ولما وصل

دوره اعتذر. اللي نزّل كيس طحين من الباخرة بعتناه يدفع حقو - اللي زتّ كلمتين غزل شو بنعمل فيه - مش رح قلك إنو هذي مش مشاكل. بس مش لازم تخلينا نهرب. جينا نعطي مَثَلْ. جينا نقول إنو لازم نواجه شو ما كانت قوتنا وعددنا. إذا هربنا، اللي بنخسروا أكبر من قصة تنكة بنزين، اللي بنخسروا هو حقنا بالدفاع عن بلدنا. هذا اللي جينا نثبتو واللي ما بيسوى، لأي سبب كان، إنو نتراجع عنو.

- شو بيدريك إنها رح توقف عند تنكة بنزين وكيس طحين. انشا الله تظل هون. بس هوذي ناس معهن سلاح وما بتعرف شو بيصير بساعة طيش، يمكن يوقع قتيل، بتتحمل مسؤولية قتيل؟

- لأ ولا مسؤولية جرح. بس تطمّن مش رح توصل لهون. قصص زغيري وبتظل زغيري. بس تجي المعركة بيصير المهم إنك تقاتل. الناس ما بيشوفوا إلا إنك عمتقاتل.

حمل الشيخ أحمد ابنته عن ذراع زوجته وأخذ يلاعبها ويسميها الشيخة وينفخ في أذنها ويغلغل أصابعه في شعرها والطفلة تتدغدغ وتضحك بأعلى صوتها. سألته:

- بس مش عارف شو دخل الدين بهـ القصة؟

- دخل الدين بتنكة البنزين. لأ يا سيدي ما إلو دخل. هاي شغلة بنظّمها المجتمع، الإسلام دين. بس، ما قلّك أي نظام سياسي لازم تعمل، اشتراكي رأسمالي، جمهوري ملكي. هيذي سياسة والسياسة بتتغير بس الدين بيظل واحد.

- الدولة كمان بتتغير.

– مين قلك إنو الدين بيصير دولة. فيه بالعالم 193 دولة، قولك بدو يكون في 193 إسلام. الدولة بتفرض قوانينها. الله بدو يانا نعرفو بدو يانا نؤمن.

– هيك ما بتضيّق الدين؟

– المهم الدين يبقى دين، مش رح قلك متل ما بيقولو كتار إنو بنلاقي الذرة وأصل الأنواع والنسبية بالقرآن، القرآن مش كتاب جغرافيا ولا كتاب علوم. كتاب الله بس.

خرجت زوجة الشيخ أحمد من الحجرة وأعادت إغلاقها. أتخيل أن المبنى كله من حجرتين متقابلتين فهكذا تبنى البيوت التي تخصص لسكن وكلاء البساتين، ونحن غالباً في أحدها. عادت الزوجة وفي يدها صينية عليها فناجين شاي، كان الشاي غامقاً مزّاً شربته بالغصب، فيما أخذ الشيخ أحمد يشربه بتلذذ.

صلاح السايس

عندما قال لي خالد إن الشيخ أحمد يريد أن يراني، خطر لي أنه يستدعيني وهذا ليس من حقه لكني بعد ذلك فكّرت أن هذا اللقاء سياسي وليس اجتماعياً، لذا لا عبرة فيه بالإتيكيت ولا أهمية لمكان الاجتماع. اليقظة تنظيم وطني وهو لذلك حليف، ولو أن هذه الخلطة من الدين والسياسة خطرة، ولا نعرف متى تنقلب ومتى تصبح عدوة. تناقضنا الأساسي مع البرجوازية، ومن الوهم أن نتكلم عن برجوازية وطنية عندنا فهي بكل أقسامها برجوازية كومبرادورية، وإذا ركبت الدين أو الوطنية فهذا لا يتدخل في موقفنا منها، إنه تناقض لا صراع فحسب. نحن النقيض لها وما بيننا قطيعة كاملة. علينا أن نبدأ وأن نبني من نقطة أخرى معاكسة وعلى أساس مخالف تماماً. هدم المباني البرجوازية وتسويتها بالأرض همنا الرئيسي فسؤالنا مختلف وأغراضنا مختلفة. يخطر لي أحياناً أن الحزب يتساهل، يسمي قسماً من البرجوازية وطنياً ويتحالف معها على هذا الأساس، إنه خطأ نظري ويمكن للحزب أن يرتكب أخطاءً نظرية لكنه لا

يخطئ سياسياً. من يسميهم برجوازيين وطنيين يغلط بتسميتهم هكذا، إنهم في الواقع جزء من الطبقات الوسطى، جزء في أعلى البرجوازية الصغيرة، تحالفنا معهم لذلك صحيح وإن غلطنا بالاسم.

فهمت أن سليم حومد مخدوع جداً بنفسه. إنه يهوّل من قيمته، يؤلّف أشعاراً عنصرية ويدّعي أنه أسكت قيادة اليقظة وألقمها حجراً كما يُقال. كان باستمرار استعراضياً والآن فرصته ليتصرف كالطاووس. إنه ينتقل من سهرة إلى سهرة متبوعاً دائماً من الثلاثة أو الأربعة ذاتهم ويرندح هناك بأشعاره ويروي قصصاً مخترعة عن فترة توقيفه. هذه الأخبار تصل بالتأكيد إلى اليقظة وأخاف من أن يقترفوا حماقة، مهما كان الأمر، سيصيبنا منها رشاش. فهمت من أمين أنهم حتى الآن يترددون، لكن لا أحد يضمن ماذا سيحدث إذا بالغ في تصرفاته وأصبحت مقلقة. لا أحد يضمن شيئاً، فطيشه، كما يظهر حتى الآن، بلا حدود.

عصّبوني، تساءلت ما الداعي لذلك ما دام أعضاء اليقظة مكشوفين بيننا لكني فكرت أن القائد هو بوصلة التنظيم، وفي أحيان كثيرة تؤدي خسارته إلى تضييع الاتجاه. أخذوني في السيارة وبدأوا يلفّون بها لتضييع وجهتها، وفي النهاية أوصلوني إلى قاعة فيها كراسي كثيرة وأسلحة وذخيرة، هناك رفعوا العصابة عن رأسي. بعد ذلك دخل الشيخ أحمد. أن له بعينيه الحادتين وحنكه الصلب وخديه البارزين هيئة قيادية. أكاد هنا أتعجب من نفسي، كيف يمكن أن تكون لواحد هيئة قيادية، أعني أن له حضوراً جسدياً لافتاً. عانقني الشيخ أحمد وقال ونحن ما نزال واقفين:

- أنا قاريك كلك، كل شي بتكتبو بيهمني وهيك فيك تعتبر حالك من أساتذتي.

وسألته: كيف بكون من أساتذتك. تنظيمك إسلامي وأنا مادي.

كان بالتأكيد ينتظر هذا السؤال وقد أعدّ نفسه له لذا اتّزن في قعدته وأخذ يشرح:

- الصراع الطبقي والاشتراكية مانهن ضد الدين، هاي أمور خارج الدين، الدين ما بيعترض على الاشتراكيي ولا بيأيدها، الدين ما إلو رأي فيها وما بيسوا يكون إلو رأي. بنكون ساعتها عمنستغله، يعني بنستعمله لندعم وجهة نظر أو موقف أو رأي. هذا ما بيناسب الدين ولا بيخدمو.

قررت عندئذٍ أن ألاحقه بأسئلة قصيرة لأعرف تفاصيل فكرية:

- يعني إنتِ مش ضد الاشتراكية.

- ليش بدي كون ضد الاشتراكية، إذا الاشتراكية بتحقق العدل أكتر ليش بدها تكون ضد الدين. إذا المجتمع شاف الاشتراكية صالحة بيكون هذا رأيو. وقت الدعوة كانت الأنظمة ملكية، هذا ما بيعني إنو الدين مع الملكية، إنو بيرفض الجمهورية. الدين بيترك الناس تنقّي النظام البيناسبها. النظام البيكون فيه حرية وعدل أكتر.

- والصراع الطبقي؟

- الدين ما بيدخل بفلسفة التاريخ. هاي أمور بنتركها تتطور من حالها. أنا رأيي إنو الصراع الطبقي مش لوحدو محرّك التاريخ، بس هذا رأيي أنا، رأيي الشخصي ومش رح لبّسو للدين.

هنا دار نقاش حول فلسفة التاريخ، ما أدهشني أن الشيخ أحمد كان مقابل كل فكرة وكل شخصية يجد موازياً في التراث الإسلامي ويؤكد كل مرة أن هذه فكرة لصاحبها وهذه شخصية لنفسها ولا نستطيع أن نحمل هذه أو تلك على الدين أو نعتبرهما ديناً، كانت ثقافته من هذه الناحية قوية ومثيرة للإعجاب. ويبدو أنه بذل جهداً منظماً في هذا المجال. إلاّ أنه كان كل مرة يخرج فيها بفكرة يصرّ ويعيد على أن هذه فكرته هو، وأنه وحده مسؤول عنها ولا يجوز إسقاطها على الدين. قال إنه مرّ وقت كانوا يردّون فيه كل فكرة إلى الدين فيجدون فيه علماً وطباً وجيولوجيا وإنتروبولوجيا وفلكاً وذرة. إن جزءاً من هذا العمل كان مضيعة للوقت. صحيح أنه كان يخدم فكرة شمول الدين وأنه علم العلوم كما أنه حاوٍ كل شيء، لكن هذا لم يخدم الدين. الآن جاء الوقت لنفرز الدين من غيره ونميز بين ما هو دين وما هو غيره. في رأيه أن هذا يخدم الدين كما يخدم الواقع.

كان لا بد بعد ذلك من سؤاله عما يريد من هذا الاجتماع، قال وهو يصلح جلسته ويلصق نفسه بظهر الكرسي:

– عندي أفكار بدّي إحكي فيها معاك. بس قبلا بدّي إسأل ليش بعدك باقي بالمدينة مع إنو الكل طلعوا.

وجدت حرجاً في أن أشرح له أنني كنت في طريقي إلى الخروج عندما علمت بأن الإسرائيليين صاروا على الجسر وأغلقوا سبيل الخروج. وهو سمع ذلك بهدوء ولما انتهيت أطلق ضحكة:

– يعني هيك، انقطعت هون، نحنا اللي خطر لنا إنو فيه تمرُّد

بالحزب، إنك رفضت أمر الخروج وبقيت هون لتقاتل.

– وقت بتطلع المنظمات وهي أساس بالمقاومة بتصير البقوة هون نوع من العناد. بتصير مجرد استعراض وعمل رمزي وبالسياسة ما بتكفي الرموز.

– بأوقات الضعف بيقدر عمل رمزي إنو يغيّر الميزان ونحنا هلق بوقت ضعف.

– عارفين إنتو شو جوّ الناس. شو رأين بقوتكن هون.

– بنعرف إنو الناس مش طايقة هـ الشي. دائماً الناس هيك بتفضل الأهون والأقل خسارة. بس إذا شافت إنو نحنا مش عمنمزح وإنو فعلاً عملنا معركة وفعلاً كنا شجعان. يمكن يتغير مزاجها وتفهم إنو في شي غير الاستسلام فيها تعملو.

هنا سرنا في نقاش تكرر مع الجميع لذا سألته:

– وهلّق شو بدّك نعمل؟

– كنت رح أسألك إنو تقاتلوا معنا. هيئتك مش بالوارد. شو رأيك إنو ندعي لإجتماع لكل القوى. إنتو اللي بتدعوا، بيكون أحسن.

– نحنا اللي بندعي. كان لازم نعمل هـ الاجتماع من زمان. بس ما كنا عارفين رأيكم.

– من هلّق لوقتا، رح نخفف الحواجز. مش كلها إلها لازمة. كان لازم نعلن عن وجودنا. بس هلق صار في علم.

– بدي أسألك عن قصّة سليم حومد، شو ناويين تعملوا؟

– محتارين. نطرنا ليسكت. هيئتو مش رح يسكت، خايفين

نسكتو بالقوة. خايفين من عواقبها.

– هذا البدي قولو. القصة بتخوّف. بيسوى يظل الواحد ماسك راسو وما يغلط. أحسن تتركوه، بالآخر بيسكت لحالو.

بيار مَدْوَر

أحبُّ شبان اليقظة، خالد، صفوان، أمين، أحبهم. لا تهمني أفكارهم السياسية، يهمني أنهم مستعدون للقتال في سبيلها، هذه درجة من الحب تعصر قلبي. أراهم شهداء جميلين، ملائكة على الأرض، شهباً ساقطة. أحبهم، كم هم جميلون، كأن تنظيمهم فرقة للجمال. هذا الجمال المعسكر، المنضبط، الانتحاري يأسر قلبي. أراهم مع رشاشاتهم المنصوبة فتصطك ركبي وأموت شوقاً. أراهم مندفعين مستنفرين فأحس أن دم الذكورة يغلي في شرايينهم، الذكورة تتأجج في أجسادهم، وهي تلسعني من بعيد وتجعلني أرتقص من سخونتها، ومن رغبتي التي تدغدغني في بصيلات شعر جلدي وفي كل مسامي. أحس أنني أتصلّب وأسمع خرير أعصابي، أحس أن عصبي يتصلب وأني أبتلع فوهة هذا السلاح وأنه يهرسني في داخلي. أحس أن عنقي يتشنج وأن دماً ساخناً يسيل فيه ويتساقط من هناك إلى ظهري، وأن سلسلتي الفقرية تقف في ظهري. قرأت أن السيرياليين كانوا جميعاً جميلين، هذا أكثر ما همني فيهم وبه فهمت أن الجمال لا يكتفي وأن

هذا هو شقاؤه الذي لا ينطفئ ولا يبرد. علمت أن كثيراً منهم كانوا مثليين، يفاجئني أنهم لم يكونوا كلهم، فالمثليون عرق سرّي والمثلية قد تكون التفسير لا للسيريالية فقط بل للفرق الصوفية والحلول الصوفي أيضاً.

أحبهم، شبان اليقظة، أحب خالد، أحب أن يحضنني برموش عينيه الغزيرة الشعر، أن يظللني برموش عينيه، أحب أن يظللني أيضاً بحاجبيه المقوّسين اللذين يفترقان أو يذوبان في تلك الفجوة الشبيهة بعانة محلوقة، ما يجعلني أفكر فوراً بساقيه المنفرجتين في بنطلونه وفي هذا القوس الذي يتشكل منهما. أحب تلك الصفحة الجانبية المتصلة بسالفيه المحلوقين، وأحب زرَّيْ خدَّيْهِ وفكه الصلب الذي يتشكل بزاوية شبه قائمة مع حنكه. أحب طبعة ذقنه وتربيعتها. أحب لو أنني شامة على خده.

أحب عرج صفوان الخفيف الذي بالكاد يلقي ثقلاً على كاهله أو كعبه، هذه الحركة تثيرني، أحس أنه يلمسني بها وأن ثقله عليّ سيكون عندئذٍ خفيفاً ومحكماً في آن معاً. أحب لون البحر في عيني صفوان، لونِ البحر ولون السماء. أحب كتفيه العريضين اللذين هما سقف جسده المشدود النحيل. أحبّ صوته الأغن والحنون وحركات ذراعيه التي ترافق حديثه والتي تفتح صدره لمحدثه وتكاد تحضنه. أحب الشعر الذي يظهر من فتحة قميصه كما أحب دلع شفته السفلى وتورّد خدّيه وصلابة عنقه وتكسرات ظهره وردفه المقبّب وساقيه الطويلتين.

أحب وفرة شعر أمين وخصلاته المشعثة، أحب عينيه الكبيرتين

اللتين تملآن وجهه، أحب الشعر النابت على خديه، أحب فمه المكوّر كثمرة مليئة بالعصير، أحب عروق عنقه وابتسامته وحاجبيه الموصولين، أحب يديه الطويلتي الأصابع، أحب أسنانه الصغيرة البيضاء المنتظمة وجسده المرصوص وكتفيه العريضين.

أحب شبان اليقظة، أحس أن الجمال هو سرّ هذا التنظيم، هو تقريباً عقيدته. إذ إنني لا أظن أن هذا الجمال وجد بالصدفة، لا بد أنهم فتشوا عنه، لا بد أنه كان من الأوّل شرطاً ضمنياً، لا بد أن للتنظيم سراً لا أعرفه لكني أتكهنه.

مع ذلك فلا أحد يساوي حبيبي نديم. لا أحد يملك صوته الرجولي القوي المجلجل المليء بالسخرية والحنان. لا أحد يملك قامته المسحوبة بأناقة بالغة من قدميه إلى حوضه العامر إلى صدره الممتلئ إلى كتفيه الصلبين إلى عنقه المنحوت إلى ذقنه المربعة وحافات خديه ووجهه الصقيل وعينيه اللوزيتين. اللتين يصيب شعاعهما في القلب، وحاجبيه المقوسين. لا أحد، حتى في "اليقظة" يساوي نديم، لا أحد يحملني في عينيه وفي قلبه وفي صوته كما يحملني نديم. لا أحد يملأني صوته بالرغبة وتدفعني نظرته، مجرد نظرته إلى ما يشبه السكر. تقلعني نظرته من جذوري وتجعلني أخرج من نفسي وأكاد أطير. لا أحد غيره تجعلني لمسته، مجرد مصافحته على حافة البكاء. لا أحد أراني في أحلامي في ظل حوضه، وأراني تحت حاجبيه، وأراني ممدداً له، وأراني أبكي شوقاً إليه وأتكسّر وأتقصف من حب ومن رغبة، لا أحد يساوي نديم.

نديم السيّد

المنظمات لم تكن صادقة إلا حين خرجت. حملوا السلاح ونحن حين ساعدناهم على حمله كنا نستسلم له ولهم. حين ساعدناهم على حمله ساعدناهم على أنفسنا، وبدون انتباه صرنا مغلوبيهم. لا بد للسلاح من أن يغلب وقد غلبنا، لا بد للسلاح أن يفعل وقد فعل علينا. هكذا صرنا رعاياهم وصار كل اختلاف، حتى اختلاف اللهجة، مادة هذا الصراع المكبوت، التي إذا انفجر انفجر بأسوأ ما عندنا. انفجر بكل ما تستطيعه العبودية المجروحة، بكل ما تستطيعه الكراهية المرضوضة والضغينة المتمردة. المنظمات لم تكن صادقة إلا حين خرجت. لم تقع المعركة وبذلك ضاعت كل التمارين التي جرت علينا، لم تقع المعركة لكننا سندفع ثمناً أكبر لعدم وقوعها. لن يجد الهاربون سوانا لثأرهم، سنكون مجدداً موضوع تلك الرجولة المكسورة وهدفها.

اليقظة بدأت مثلما بدأوا، حملت السلاح حينما لم يكن سوانا أمامها. الإسرائيليون يحاصرون المدينة، سيكون هذا سبباً

لننصاع لهم، الإسرائيليون يحاصرون لكنهم ليسوا في الداخل، في الداخل شبان الساعة الأخيرة قبل الاحتلال، الشبان الذين لن يتركونا لأنفسنا حتى في الساعة الأخيرة التي تسبق الاحتلال. إنهم هنا برسم الشهادة وبرسم المعركة وسندفع غالياً ثمن شهادة لن تحدث هي الأخرى، ومعركة لن تقع. هناك دائماً حتى في الساعة الأخيرة خطة ب. هناك دائماً حتى بعد الاحتلال خطة ب، الهرب عبر البساتين مثلاً، الهرب في البحر مثلاً، هناك دائماً وقت للهرب. هناك دائماً وقت للانسحاب، لكن بعد ماذا. بعد أن نكون استسلمنا ثانية ودفعنا أضعافاً ثمن حرب غير موجودة، وكالعادة ستكون الغلبة علينا. كالعادة سنستسلم نحن بدل العدو، كالعادة سندفع من دمائنا أو من كرامتنا الأثمان الغالية لشهادة مردودة.

اليقظة أيضاً منفتحون ومثقفون، هذا ما علينا أيضاً أن ندفع ثمنه. إنهم جميلون وأذكياء، ولهذا أيضاً كلفة باهظة. لن يكون هناك سوانا أمامهم، ولنؤدِّ عن الجميع حق الانفتاح والثقافة والجمال والذكاء. هذه المرة القصة شائكة أكثر، الآن اللعبة أكثر إحكاماً. ليست المنظمات بهذه المقدرة فشبان اليقظة قضوا وقتاً أكثر بكثير في إعداد أنفسهم، لقد اضطروا في سبيل ذلك إلى أن يقرأوا كتباً، وهذا بطبيعة الحال شاق جداً، ولا يستطيعه شبان المنظمات ولا قياداتهم التي هي شبه أمية ولا تعذب نفسها بالقراءة. بينما شبان اليقظة يخضعون طواعية لهذا التعذيب، شبان اليقظة بذلوا وقتاً كبيراً بين أربعة جدران في تصفح تلك الكتب اللعينة، بذلوا وقتاً أكبر في حفظ عناوينها،

والرطن بمحتوياتها، بتغييب عدد محترم من العبارات المفحمة والتمرن على إلقائها، وخاصة اختيار اللحظات المناسبة لذلك. هذا بدون شك يحتاج إلى إعداد طويل، كما يحتاج إلى استعداد حقيقي. هذا بطبيعة الحال داع للإعجاب، فهذه المرة سندفع من دمائنا وأملاكنا ثمن شيء فعلي. هذا بالنسبة لتجربتنا مع المنظمات جديد علينا ولقد جاءت المنظمات بكل ما لا تملكه وما لا استعداد لديها له، جاءت للشهادة والقتال والدفاع، ولم تملك حتى القدرة على تمويه ذلك. ففي كل لحظة دعيت فيها للامتحان، بدت أبعد ما يكون عنه. لقد أقنعتنا بأن غلبتها كانت علينا وأننا نحن الذين علينا أن نؤدي الشهادة بدلاً عنها. بينما شبان اليقظة وعناصر منفرطة من التنظيمات بيننا في الساعة الأخيرة وهم بذلك طلاب شهادة وطلاب معركة. هذا بالتأكيد تمويه كامل، لن نستطيع أن نكذبهم حتى ولو هربوا عبر البساتين. يكفي أن يوجدوا معنا في هذه الساعة ليكونوا في المستوى، حتى ولو جرّونا إلى المعركة وانسحبوا في عزها.

هناك أنماط من الخداع. النمط الأبسط والأكثر سذاجة هو نمط المنظمات. إنهم يكذبون صراحة، يكذبون في وضح النهار ويجبرون الناس على أن يتظاهروا بتصديقهم. إنها قصة الملك العاري ثانية. أما "اليقظة" فلا سبيل إلى كشف كذبها، ذلك أنها تكذب على نفسها ولن تعرف إلا، في اللحظة الأخيرة، أنها كذبت. حتى في هذا الوقت قد لا تعرف وقد تبقى سادرة في خداع نفسها.

سليم حومد: هو الخداع الطنان، إنه الأبله الذي يظن أن الخداع

مباراة. وأن الجائزة هي لأكبر كذبة وهو يخترع أكبر كذبة لكن الجائزة قد لا تكون سوى موته المبكر. سوى موته الذي لا يخطر له، مع أنه واضح تماماً للجميع.

فواز أسعد

أمرّ على الحاجز في كعب الشارع فلا أجد صفوان. أجد رفيقه منطرحاً على الكرسي، ومتثائباً يطرد الهواء بكفه عن فمه المفتوح، وحين أسأله عن صفوان لا يجيب، يقلب شفتيه ويشير إلى أعلى، إلى البيت الواقع على الجسر الذي يظلل الشارع. يعني أنه عند الجيران، وبكلمة عند دنيا. في الحي يلغطون بأنه لا يتكنّس من عندها، صاعد نازل في وجود أبيها وإخوتها. يريدونه عريساً لها، يريدونه أن يشيل عنهم هذه البنت الطائشة التي لا أمل في أن يطلبها واحد من المدينة. رغم جمالها لا تجد طالباً، سمعتها تبعد الطالبين عنها. في الحي يتهامسون بأن صفوان تقدم لها، وأنهم ينتظرون نهاية هذه الأحداث ليقيموا العرس. فهمت أنه وصلته أخبار طيشها، تبرع أحد شبان الحي بتحذيره منها، وصلته الأخبار لكنه لم يهتم. استمر يزورها وفوق ذلك حكى فيها. قالوا لي إن صفوان أسكت الشاب وغادره قبل أن يتمم كلامه.

سليم حومد الولوع بتقديم نفسه ولا يوفر فرصة لذلك. قاطع

محاضراً وسط محاضرته، أوقفه عن الكلام وجلس يجادله. أوقف شيخاً عن عظته نهار الجمعة، بل قاطع قارئ عزاء. حين يحضر في مجلس يتوقع الجميع أن ينكّد عليهم اجتماعهم، وفي أحيان كثيرة يتجنبون دعوته لتصفو الجلسة. لم يكن غبياً وغالباً ما يصيب في مجادلاته، يأتي بأفكار جيدة لكنه يزعق وهو يتكلم ويعرق أحياناً ويبدو كأنه وسط مشكلة شخصية. ذلك يُضحك بعض الحاضرين وبمجرد أن يسمع الضحك يغدو عدائياً ويهتاج ضد الضاحكين، وغالباً ما ينتهي ذلك بأن يمسك ياقة الضاحك أو يمسك هذا ياقته ويفرّق الحاضرون بينهما. الآن لقي فرصته ليسمعه الناس بدون أن يضحكوا وبدون أن يتعجبوا من حدته وتورد خدّيه وانتفاخ عروق رقبته وتفتفة لعابه التي تتطاير على وجوه الحاضرين. الآن يتسابقون إلى دعوته إلى السهرات ليكون تقريباً متحدث الجلسة. يخبر كل مرة القصص ذاتها التي يطعّمها الآخرون بتعليقاتهم ومزاحهم، ويقول أزجاله التي هي تركيب ركيك من قوافٍ بأوزان مسلوقة. يسمعونه بانتباه يضفي قيمة زائدة على حديثه، يمتدحونه ويسهّلون له أن يمسك زمام السهرة. بالطبع تكون "اليقظة" التي سماها سليم "النكبة" هي الموضوع.

دوي القصف يتردد بتقطّع من وقت إلى آخر. ليلاً أو نهاراً. ثلثاه يقع على المخيم، والثلث الباقي على أطراف المدينة. في البدء كان كله على المخيم أما بعد ظهور "اليقظة" فهو يقترب أكثر فأكثر من المدينة. كان الوضع هكذا عندما قرر ثلاثة من الملتحقين الجدد باليقظة أن يقوموا بعملية ضد الإسرائيليين على الجسر. قطعوا النهر في منطقة يتحول فيها إلى سبخات ومستنقعات وصخور، التفّوا من وراء الجسر

وصعدوا إلى ربوة قام في سفحها مخيم صغير، ومن هناك توجهوا إلى الجسر من خلفه. كان الإسرائيليون يتوقعون شيئاً مماثلاً أو ينتظرونهم هم بالذات، فقد شاع خبر بأنهم كانوا على علم بالعملية عن طريق جواسيسهم. ما إن أطل هؤلاء من وراء الصخور حتى تصيدهم الإسرائيليون وقتلوا الثلاثة فوراً. بعد هذه العملية بقليل دوّى القصف في وسط المدينة، هذه المرة سقطت قذيفة على مقربة من دكان فخرج صاحبه وتعبأ جسده بالشظايا ونقل إلى المستشفى. قال لي صفوان، إن هؤلاء من الملتحقين الجدد وإنهم ثلاثتهم من المخيم. هذا لم يحُل دون همس يقول إن الثلاثة كانوا في المدينة وإن العملية مدبرة من قيادة التنظيم، بل إن صفوان نفسه هو الذي نظمها والثلاثة كانوا تحت قيادته. لغط كثير في انتظار ماذا يجري لصاحب الدكان الجريح (قاسم بدوي). كانت الأنباء متضاربة عنه، وصل خبر بأنه مات لكن لم تتأكد صحته. كان هناك من أرادوه أن يموت لتسويد صفحة اليقظة وهناك من أرادوه أن يعيش لتجنب المشكلة. ظل قاسم بدوي يحتضر أياماً في مستشفى العافية لكن حاله المستقرة سمحت بأخبار مختلفة. في النهاية مالت حالته إلى التحسن وبدا واضحاً أنه لا يمكن الاعتماد عليه للقيام بشيء. لذا فوجئ الجميع الذين جاؤوا باكراً لفتح دكاكينهم بأوراق مدسوسة في أقفالهم، أوراق مكتوبة بخط اليد ومنسوخة بالكاربون. كان في الأوراق:

"إلى أهالينا الكرام. إلى متى ستظل مدينتنا الحبيبة، إلى متى سنظل نحن لعبة في يد "اليقظة" التي تريد أن تكون بطلة على حسابنا وحساب دمائنا وخسائرنا، صفوان الخطيب

هو من قيادة اليقظة أرسل الثلاثة في تلك العملية الطائشة التي سببت قتلهم. وسببت جرح قاسم بدوي الذي شفاه الله بعد أن عانى كثيراً. إن حياتنا وحياة أولادنا ليست لعبة في أيدي مغامرين طائشين. ندعوكم إلى رفض الاعتداء على حياتنا وحريتنا وأملاكنا. هذه المدينة مدينتنا ولن نقبل أن تكون تحت رحمة غرباء، وأن تستغل لبطولات جوفاء لا فائدة منها. كان التوقيع: منظمة الكرامة والعنفوان".

عدد الأوراق بالكاد وصل إلى الخمسين وقسم منها غير مقروء فضغط القلم الذي يكتب يغدو ضعيفاً جداً على الصفحة الخامسة الأخيرة بين الأوراق التي تتخللها صفحات الكاربون. ثم إن النسخ بالكاربون يسوء بعد أن تستعمل صفحات الكاربون كثيراً ويغدو الخط تالفاً وملطخاً. كان من الممكن معرفة الكاتب بمجرد مقارنة الخطوط فالأرجح أن الكاتب واحد أو اثنان في الأكثر. حتى أصحاب الدكاكين لم يتوصلوا بسهولة إلى قراءة المناشير المخطوطة، وبالتأكيد لم تكن هناك بعد نصف ساعة ورقة للقراءة. مع ذلك انتشر الخبر، مع كثير من الإضافات. في مدى ساعتين وما إن أشرقت الشمس على السوق حتى صار الجميع يعرفون. تبرع كثير من ناقلي الأخبار بتسمية الفاعل كما يخطر لهم. سُمّي كثيرون لكن الاسم الذي تردّد أكثر كان "سليم حومد". بعد هذه الحادثة اختفى سليم وانقطع عن السوق الذي كان رابط فيه طوال الأيام الماضية. قيل إنه يختبئ في دار عمه وقيل إنه لجأ إلى بيت صاحب له، أما الفرض الأكثر إثارة فكان أنه هرب إلى إسرائيل، في النهاية اتفق الكل على أنه صار في بيروت. مرّ يومان ثم فوجئ الناس بوالدة سليم تنوح

وتنتحب وتقلع شعرها بيديها وتخمش وجهها في الحي، جاءها خبر بأن ابنها الذي يختبئ في دار صاحبه حسن قد داهمه مسلحون في الدار واقتادوه معهم. لم يكن حسن ساعتها في البيت، ففي النهار وعند الرابعة بعد الظهر التي جاؤوا فيها يعمل مع شريكه في دكان الخضار. أمه وشقيقتاه وشقيقه الأصغر كانوا في البيت وحين قرع الباب بقوة فوجئت الشقيقة التي فتحته بمسلحَيْن هوّلا عليها بسلاحهما، أفهماها أنهما يعرفان أن سليم حومد عندهم ولا مجال للإنكار، سليم حومد عندهم والبيت مطوّق. البيت في الطابق الخامس وقد لجأ سليم إلى الشرفة لكنه استهول علوها، عاد واختبأ في خزانة لكنه أحس بالخطر فتركها وصعد إلى سدة في المطبخ واختفى خلف الصناديق، تعثر بأحدها فأحدث طحشة مسموعة. انتظر هناك إلى أن دخل المسلحان وبحثا عنه في الغرف وخرجا إلى الشرفة ثم عادا إلى الغرفة ولما نفذا إلى المطبخ، لفتتهما السدة فصعدا إليها وشعر بهما سليم فجمد في موضعه. هكذا وجده المسلحان فاستسلم لهما بدون مقاومة، وخرج بينهما والشقيقتان مع أمهما يراقبنه. أطلقت الأمّ صيحة فعجلوا إلى الخروج، وجدوا المصعد معطلاً لانقطاع الكهرباء فنزلوا على الدرج. في الطابق الثالث صحا سليم من همودة وحاول أن يقفز، لكن مسلحاً شهر عليه رشاشه فعاد طائعاً. بقي بصحبتهما والشقق تنفتح كلما نزلا طابقاً ويتجمع ساكنوها أمام الأبواب يراقبون وحين وصلوا إلى الشارع كان الخبر، بطريقة ما، قد ذاع ووجدوا على بوابة البناية جمعاً منتظراً. دبّت في سليم الروح وهو يرى الجمع ويشعر أنه ليس وحيداً. حاول هذه المرة أن يقاوم

وأن لا يدخل إلى السيارة المنتظرة عنوة. لكن البندقية المشهرة وضربة من أخمصها على رأسه أعاداه إلى جموده فدخل صاغراً إلى السيارة. لا نعرف ماذا كان جرى لو حاول سليم الهرب لكنه لم يحاول. لم تكن لديه أي حيلة وشل تقريباً فلم يبد أي مقاومة. أخذه المسلحان في السيارة على مرأى من الجميع وسارت السيارة به في الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى العاصمة كما يؤدي المخيم، لاحظ المارة السيارة لكنها لم تلبث أن اختفت.

لا مناص، اتهم الجميع "اليقظة" التي لم تبادر إلى نفي مسؤوليتها ولم تبدُ أي ردة فعل. كل ما فعلته هو أنها جمعت مقاتليها وأخلت حواجزها، بما في ذلك الذي كان في نهاية الحي الذي أعيش فيه. لم يطلب مني أحد أن أقابل صفوان الذي لم أعد أراه في الحي. غاب حتى عن بيت دنيا. حين صادفت شقيقها الأصغر في الشارع سألته عن صفوان فقال بصراحة إن أخته تعرف لكنه يقدّر أن بيته في المخيم. سألت دنيا بعد أن صعدت إلى البيت الذي فوق السيباط فقالت إن بيت صفوان في المخيم والجميع يعرفونه هناك. ذهبت إلى المخيم وسألت فتى عن صفوان الخطيب فقال إنه لا يعرف لكن عجوزاً كانت تمشي منحنية قالت إن بيته قريب ودلّتني عليه.

قرعت الباب فخرجت طفلة وسألتها عن صفوان فقالت إن أخاها في مكتب اليقظة وسترافقني إليه. لم يكن المكتب بعيداً. كان عبارة عن غرفتين من إسمنت عار. رأيت صفوان وراء مكتب قديم محفّر، قام وعانقني. سألته:

– شو انسحبتوا، غيّرتوا فكركن، ما عاد بدكن تقاتلوا؟

- أبداً ما تغيّر شي. لقينا إنو تجربة الحواجز مش ناجحة. عسكرياً مش ناجحة، الأفضل نعمل كمائن حول البلد.

- الناس عمتقول إنكن هربتوا.

- هربنا!

- أي بعد ما اعتقلتوا سليم حومد.

- نحنا اعتقلنا سليم حومد!

- كل الناس عمتقول.

- وليش بدنا نعتقلوا؟

- عشان المنشور اللي ضدكم.

- وسليم حومد شو خصو بالمنشور؟

- مش هوي اللي عملو؟

- أكيد لأ. هذا عمل ولاد. البينزّل منشور بخط اليد لازم يكون ولد. وسليم بيشتغل عند محاسب. بيعرف يدق دكتيلو. بالقليلة كان دقّ المنشور عَ الدكتيلو. ما كان كتبوا بإيدو.

- صحيح. إنت أكيد؟

- هذا عمل ولاد. على كل حال الولد اللي عملو عرفناه. اسمو يمكن خالد. خالد غزال. بيقرب سليمان غزال اللي قتلتو قذيفة إسرائيلية.

- وليش ساكتين، احكو كلمة، الناس فكرت إنكن عملتوا عملتكن وهربتوا.

- معك حق، كان لازم ننزل بيان، بعد في وقت، اليوم أو بكره بينزل.

- ومين اللي خطف سليم حومد؟
- لحد هلّق مش عارفين، عنا شكوك، بس مش أكيدين.

في اليوم التالي وزع شبان اليقظة على مداخل الأحياء وفي السوق وفي الشارع الرئيسي البيان التالي:

"بيان من "اليقظة". تستنكر اليقظة خطف الأخ سليم حومد، وتنفي مسؤوليتها عن هذا الخطف، وتدينه أشد إدانة وتعد بأن تتحرّى عن الفاعلين وتعاقبهم على ما جنت أيديهم. اليقظة".

لم يقنع البيان أحداً. كان انسحاب "اليقظة" من الشوارع وهو أمر مطلوب من زمن، قرينة هذه المرة على مسؤوليتهم. لم يكن البيان مقنعاً بل رفض الجميع قراءته ورموه بمجرد أن تسلّموه. امتلأ السوق بالقصاصات المرمية، هذا المشهد كان احتجاجاً معلناً.

لم أتحيّر هذه المرة ولم أسأل عن بيت صفوان. قصدت تواً إلى المكتب حيث وجدت صفوان وراء الطاولة المحفّرة ومعه شخصان جلسا على كرسيين، ما إن رآني حتى تقدم نحوي وأمسكني من كتفي وقادني إلى الغرفة الثانية التي كانت مظلمة قليلاً وفي وسطها مائدة طويلة تكوّمت عليها الملفات. جلس وجلست. عندئذٍ قال لي همساً: "اكتشفنا مين خطف سليم. هني جماعة بيسموا حالهم "الكف الأزرق" لكن بالحقيقة مخردقين باليقظة. هني من فرافيط المنظمات اللي التحقوا فينا. بالحقيقة تستروا فينا. خطفوه مش عارفين ليش ويمكن بدهن يطلبوا فدية. زعران بيعملوها. بيطلبوا مصاري. هلق ساكتين ناطرين ليروق الجو، بعدها بيطلبوا وبيساوموا. لازم

نطبّ عليهم قبل ما يعملوا هيك".

في اليوم الثاني بلغنا أن الإسرائيليين سحبوا قسماً من دباباتهم عن الجسر وأبقوا هناك دبابة واحدة وعدداً من الجنود. قرع الباب، وجدت صفوان وأمين، دخلا وجلسنا الثلاثة في غرفتي. كان غصن النبتة المعرشة يكاد يسد شبّاكي. بذلت جهداً حتى فتحته. كان أمين مبتئساً، أخبار الإسرائيليين أزعجته، يريد حقاً أن يقاتل ولا يريدهم أن ينسحبوا. قال لي صفوان بشبه همس، إنهم غداً سيطبقون على "الكف الأزرق" وسيحرّرون سليم حومد.

كان الوقت مساءً، بدايات المساء حينما ذهب صفوان وأمين مع اثنين مسلحين ليطوّقوا البيت الذي أُخفي فيه سليم. أطلقوا بضع رصاصات واستعدوا ليقتحموا المنزل، فقد ساد صمت جعلهم يشعرون بأن البيت متاح وبدون حراسة. بالفعل نهضوا ليتقدموا صوب المنزل الذي امتدت أمامه سطيحة عليها أربعة من أصص الزرع. مشوا خطوات إلى أن بدأ رصاص كثيف يدوي ويتساقط عليهم. اثنان صعدا إلى السطح وتحصنا وراء الحافة الإسمنتية العالية وبادرا من هناك إلى إطلاق النار. وقف صفوان ليخاطبهم لكن رصاصة مرقت قرب أذنه ردّته إلى الوراء ورصاصة أخرى استقرت في يده وسقط على الأرض، فيما أعطى أمين الأمر بإطلاق النار. داخل المنزل كان سليم حومد مربوطاً مكمماً. أطلقوا الرصاص على السطح فسكت المدافعان، كانت رصاصة اخترقت كتف أحدهما فانسحب إلى داخل المنزل. تقدم أمين مع المسلحين وجاءهم رشق من داخل المنزل فأخذوا يصلون المنزل بالنار وأفرغوا رشاشاتهم فيه.

سكت الرصاص فتقدموا ولما استمر السكوت جازفوا باقتحام المنزل وفي الداخل وجدوا أحد المسلحين جريحاً ينزف جنب قتيلين هما المسلح الثاني ومعه سليم حومد الذي اخترقت رصاصة قلبه. عادوا بسرعة وحملوا صفوان الذي نزف كثيراً من دمائه إلى المستشفى. لم يكن صفوان مصاباً في يده فحسب بل كانت هناك رصاصة أيضاً في صدره، ورصاصة ثالثة في كتفه. كان نزف كثيراً ووصلوا إلى المستشفى حيث قاسوا ضغطه فكان خمسة. كان لا بد من عملية سريعة وأدخل صفوان فوراً إلى غرفة الجراحة، أجريت له العملية ونقل إلى العناية الفائقة. كانت الرصاصة مزّقت كليته وفوجئ الأطباء بتوقف الكلية الأخرى وحاولوا إنقاذه لكنهم لم يستطيعوا.

قصفت الدبابات الإسرائيلية المدينة طوال الليل ووزعت قذائفها على كل الأحياء. في الصباح كانت هناك جثتان وفيما المدينة تدفن سليم حومد والقتيل الآخر والمخيم يدفن صفوان الخطيب. كانت الدبابات الإسرائيلية تنسحب من حول المدينة وتعود إلى الشريط الحدودي. منذ ذلك الحين لم يبقَ لـ"اليقظة" ذِكر.

نديم السيّد

وحدي لم آسف على انتهاء اليقظة. أكره الذين يصدقون في كذبهم، وأفضّل عليهم أولئك الذين يعلمون أنهم يكذبون. لم أطق هذه الشورباء من الدين والسياسة، بخاصة تلك التي فيها الدين ضعيف والسياسة ركيكة. لا أعرف بماذا يخدمنا هذا التلفيق ولماذا هذه الرغبة العارمة في تحقيقه. السلاح يزيل الفوارق بين الأفكار بحيث تبدو النتائج متشابهة. مات صفوان وسليم في معركة واحدة كأن لم يكن بينهما أي فارق. كان سليم متباهياً وجاهزاً لأي فكرة تخدم تباهيه، بينما صفوان الخجول مستعد لأي فكرة تحرره من كبته وتعطيه حجّة ليطلق مشاعره ولسانه. وجدها عند الشيخ أحمد الذي ليس أكثر من درويش ولا أفهم كيف يتصالح هكذا مع عصره. خالد وأمين سيفهمان أنها لم تكن سوى غيمة يمكن طردها. سيعود الأول قبضاياً ويتحول الثاني إلى مقاتل مرتزق. ليسا بحاجة إلى أن يضعا نفسيهما تحت رحمة فكرة، إذا نحن فككناها لا نجد شيئاً. أحب بيار لأنه يختار الفكرة التي تناسبه في حينه بدون أن يجعل منها صنماً. إنه يثق

أكثر بمشاعره ورغباته. أما صلاح فهو دائماً تحت رهبة أفكاره، إنه يخافها ويخاف أن يخرج عنها وهو بحاجة إلى أن ينال رضاها كل يوم. فواز يحب أن ينقلها من شخص إلى شخص، من مكان إلى آخر، وبمجرد أن تصل يمكن أن يتخلى عنها لينقل أفكاراً أخرى. لا يثق فواز بأفكاره ولا بمشاعره أو رغباته، إنه يختار منها بمقادير تناسب وقته وحاجته. أنا قد أقول ما لا أؤمن به لكنني في الحقيقة بحاجة إلى أن أؤمن بشيء، بل بأشياء. إن مقداراً كافياً من الايمان يساعدني على أن أنجز خداعي، على أن أعود سالماً بعد كل خداع. أنا بحاجة إلى أن أؤمن بأشياء لم يعد أحد يؤمن بها. أؤمن بها لأنها دارجة ولأن الناس يطبقونها، بدون حاجة، حتى إلى الايمان بها، كأن أؤمن بالعائلة أو بالطائفة أو بالأصل أو بالشكل. هذه أمور لا أصرّح بها. لا أدافع عن العائلية مثلاً فهذا غباء لكني أدافع عن شخص أعرف أن سبب الطعن به عائليته. أدافع عن شخص أعرف أن الناس تلومه على طائفيته. أدافع عن شخص اعتداده بجماله مصدر انتقاده. لا أحتاج إلى أن أكون طائفياً أو عائلياً. الناس لا يكونون هكذا لكني أعرف أن الطائفية والعائلية هما جلد المجتمع الذي يتظاهر بأنه يكرهه، بأنه يتحمله كجثة لكنه مع ذلك ميزانه وأساس عمله. مثل الجميع أختبئ تحت إبطي وألعن، بكل صدق، العائلية والطائفية لكنهما يبقيان مع ذلك واردين في كل اعتبار وكل حكم. أنا بالطبع شاكر لأنني من هذه العائلة "السيّد" أعرف أن فيها مثل كل عائلة الغني والفقير، المحترم والوضيع، لكنها مع ذلك تملك اسماً. لا أعرف متى كوّنته، إذا كان فتكون أصلاً. لست طائفياً وأجد أن من السذاجة أن نقيس

كل الطائفة بالمقياس ذاته. لكنني أعرف أن الأمر سيكون أسوأ إذا انتميت إلى واحدة من تلك الطوائف الصغيرة التي بالكاد تُرى في قاع الطوائف اللبنانية. أفهم أن المرء لا يقاس بشكله، أن هناك العشرات الذين يخدمهم جمالهم لكن ليس إلى الدرجة التي يضيف إليهم بها ذكاء غير موجود أو موهبة مفقودة. مع ذلك سيكون الأمر أسوأ لو كنت أقصر بكثير، لو كنت قبيحاً ومنفراً. ماذا كنت فعلت بيني وبين نفسي إذا نظرت إليّ النساء وأشحنَ عنّي بمجرد رؤيتي. ماذا كنت سأفعل لو احتجت إلى أن استدعي كل ذكائي، وكل خفة دمي اللذين لا أعثر عليهما كل لحظة لأبدد الانطباع الذي يثيره مظهري البائس والقميء. ماذا سيكون شعوري إذا لم ترمقني النساء كما يرمقنني الآن بكل الرغبة والاستمتاع، إذا لم تكن أنظارهنّ إليّ دافئة غامرة. لست معتداً بجمالي، لكن الجميلين لا يحتاجون إلى ذكاء كثير، وأنا إذا جمعت ذكائي إلى جمالي كان عليّ أن أشكر الطبيعة أو الله، بل كان عليّ أن أعتبر اجتماع الجمال والذكاء معجزة. حضور الشخص يزدان كثيراً بهذا الاجتماع، وعليه أن يشكر ذلك وأن يرى نفسه محظوظاً، الحظ الذي ننكره دائماً كما ننكر النعم التي نتلقاها ولا نصنعها لأنفسنا، الحظ هو نصف الحضور وأنا محظوظ بشكلي وذكائي لكني لست مع ذلك محظوظاً. لست ثرياً ولا أجد بسهولة المال الذي يكون سهلاً أو صعباً للغاية، وأنا لا حظّ لي بالمال، أظنني أبذل ذكاءً مفرطاً وفوق الطاقة في سبيله. لا يكون المال إلا سهلاً وإلاّ لا ينفع الجهد المفرط إلا في زيادة تعاستنا لافتقاده والحاجة المزعجة إليه.

بيار مَدْوَر

ذهبت مع فواز لحضور جنازة صفوان في المخيم. نديم تبرّم حين سألته إذا كان يريد الذهاب معنا. لا أستطيع أن أنسى زرقة عينَيْ صفوان ولا عرجه الخفيف الذي يبدو أنه في كل خطوة يرمي ثقلاً إضافياً على رجله اليسرى. لا أستطيع أن أنسى طوله وخصره النحيل وفتحة ساقيه وعنقه المشدود. كان الطقس ربيعياً مع غلبة للحرّ. لم نجد صعوبة في الاستدلال إلى بيت صفوان فقد كان المخيم يغلي بخبر المعركة التي أدّت إلى مقتله. قال لنا الفتى الذي كان يرتدي عوينات طبية ويلبس شورتاً مطبعاً بمربعات ملونة لما سألناه عن بيت صفوان:

– صفوان، اللي أمس انقتل بالغلط.

لم نفهم عبارته جيداً لكنه أشار إلى ناحية وقال إن البيت في آخرها. لاحظت أن فواز يرتدي بنطلوناً زيتياً بينما احتطت أنا ولبست بنطلوناً أسود. لما اقتربنا وجدنا مجموعة من عشرة أشخاص تقريباً، كلهم من الشبان، تنغل قرب الباب. دخلنا فقام لاستقبالنا رجل ستيني يضع عقالاً على رأسه ويرتدي قنبازاً مخططاً، ورجل آخر

من سنّه لكنه يرتدي بنطلوناً خُفّ سواده ويضع هو الآخر عقالاً على رأسه. علمنا أن الرجلين هما عمّا صفوان الذي توفي والده من عام. كانت الغرفة مليئة بكراسي مصفوفة على داير الحيطان وفي الوسط، لكن نصفها شاغر بل أكثر من نصفها. لم يكن هذا مفهوماً بالقياس إلى الجَمعة التي أمام الباب والمناسبة نفسها. لم يكن هناك قارئ ولا حتى جهاز لتلاوة القرآن، وإن كان هناك صوت يرتفع من وقت إلى آخر يدعو لقراءة الفاتحة. العمّ اللابس القنباز يرفع رأسه بدون أن ينظر إلى شيء وليس صعباً التحقق من أنه أعشى النظر، فيما كان العم الثاني مطرقاً ونظره معظم الوقت مصوّب إلى ما بين ساقيه. لم نسمع صياحاً أو بكاءً من الناحية الثانية من الدار، و لم ينتظر الكهل الجالس إلى جنبي والذي يضع عقالاً على رأسه هو الآخر سؤالي فأعلمني أن والدة "المرحوم" مسنّة وقد ذهب الخرف بعقلها وأنه صبي وحيد، أخته الوحيدة متزوجة في دبي والتلفونات معطلة لذا لم يستطيعوا إعلامها. أدخلوا بعد قليل جهاز تسجيل وأداروا الأسطوانة فانبعثت منه تلاوة عبد الباسط عبد الصمد للسور القصار. أفلتت صيحة من الناحية الثانية تبعتها صيحات أخرى وضجة وما يبدو أنه سقوط شخص. دخلت امرأة عجوز ترتدي الأسود وأشارت للعم اللابس العقال فخرج معها، وتبرّع الجالس إلى جنبي بالقول إنها قد تكون ابنة عمّه التي أغمي عليها. كان يلعب بصوته، يحمّله ما لم يقله. سألت الكهل الذي جنبي عن المعركة التي أدت إلى مقتل صفوان فقال متعجباً أن لم تكن هناك معركة. ذهب صفوان مع ثلاثة لإحضار سليم وأحاطوا بالمنزل الذي علموا بوجود سليم فيه. كان

صفوان يتنقل بين أفراد المجموعة ويوزعهم على الزوايا حول البيت، عندما أفلت عيار ناري من أحد أفراد المجموعة. ظنوا جميعاً بما فيهم صفوان أن الرشق أتى من المنزل، وبدون أي أمر بدأوا يطلقون النار عشوائياً وفي كل الاتجاهات. انتبه صفوان إلى أن الرصاص لم يأت من البيت فبدأ ينادي أفراد المجموعة داعياً إياهم إلى التوقف عن إطلاق النار. لكن صياحه ذهب هباءً وفوق ذلك، دخل رشق في صدره ورماه على الأرض متخبطاً في دمه، عندئذ توقف إطلاق النار وهرعوا إلى صفوان الذي كان عندها ينازع. كانً مصاباً في يده وفي صدره وفي كتفه، يبدو أن أكثر من رشق ملأ جسده بالرصاص، حملوه إلى المستشفى و لم يبقَ أحد ليتحقق مما جرى في المنزل. لم يدخل واحد منهم ليرى أن سليم حومد الذي كان مقيداً إلى عمود في الغرفة بسلسلة حديدية، كان ينزف من رصاصة في أحشائه ويحاول أن يتحرر من قيده، لكن المحاولة لم تنفع إلا في زيادة نزفه. كان الكهل الجالس جنبي قد أخذه الحديث وسها عن المكان الذي فيه و لم ينتبه إلى أن صوته ارتفع وغدا أشبه بالصراخ وهو يقول:

- زي ما أنت شايف يا خوي. البيت ما كانش فيه حدا. والإخوان كانوا عم يتقاتلوا مع حالهن. برصاصهن ذاتو قتلوا صفوان وقتلوا سليم.

انتبه الحاضرون إلى صياحه فرفعوا رؤوسهم، وانتبه هو فابتلع صوته وسكت.

صلاح السايس

أنّبني نائب الأمين العام على مسايرتي لليقظة. جاء إلى المدينة بعد تراجع الإسرائيليين عنها. دخل عليَّ عند الظهر. كان أنيقاً كعادته وقبل أن يصل إلى الصالون تناول مشطاً من جيبه ورتب شعره. كان يرتدي سترة زيتية مقلّمة بالأحمر وربطة عنق خضراء، وقبل أن يجلس قال إنه لا يريد ويسكي سيّئاً. لم تكن المدينة عادت بعد إلى طبيعتها، المحل القريب الذي يبيع الكحول لم يكن فتح. ذهبت هالة إلى الحي الشرقي البعيد نسبياً وجاءت بقنينة شيفاز ريغال. جلسنا، أخذ نائب الأمين العام يملأ كأسه بالثلج والويسكي، كان يطلب أن يفعل هذا بنفسه ويؤديه بحسابات غامضة إذ لا يرضى أن ترتفع الويسكي في الكأس شعرة فوق ما يراه حدّها الطبيعي. لكنه وهو يفعل ذلك بدأ حديثه فنحن في جلسة حزبية. ترك يديه تذهبان وتجيئان فوق الكأس، فيما بدا كلامه أقل حرية وحركة من يديه، كان كلامه الأول:

- كيف بتعملوا هيك؟

لم أسأله ماذا يقصد، كان تذمر على التلفون من سلوكي. لم أطع

وأخرج فوراً من المدينة، ثم هذه المسايرة لليقظة لدرجة الإعداد لمؤتمر بلدي من أجلها. لحسن الحظ أن الإسرائيليين تراجعوا قبل موعد المؤتمر الذي كان بعد يومين من تراجعهم. جيد أن المؤتمر لم ينعقد وإلا كانت فضيحة، منذ متى، كما قال، نساير هذه الحفنة من الأولاد. اليساروية كما قال ليست فقط مرض الشيوعية الطفولي، إنها مرض نتعرض له في كل عمر ولا توجد مناعة كاملة ضده. كيف نركن إلى زمرة أولاد أرادوا فقط أن يثيروا ضجة ضد تنظيمات حضنت العمل الفلسطيني منذ بدايته. إذا كانت تتراجع في ظرف فلأنها حصّلت في نضالها الطويل ما يستحق الدفاع عنه، لقد أنشأت لنفسها كياناً حقيقياً، ليس لها فقط بل للنضال بأسره. غير مسموح لها أن ترميه في البحر، أن تجازف به لمجرد أن يقال إنها شجاعة وإنها واجهت. التضحية، نعم إنها تضحي من عشرين عاماً، تضحي كل يوم، هي وحدها تعرف متى تضحي. على التلفون كان نائب الأمين العام غاضباً ومتسائلاً ماذا أصابني، لست ولداً ولست مزاجياً، كيف أسمح لأولاد كهؤلاء بأن يجروني إلى حيث يريدون.

- وبعدين، يا رفيق، المنظمات حليفتنا. فتح حليفتنا الكبيري. سياستنا كلها قائمة على التحالف معها، يعني هذا أساس بسياستنا كلها، لمن بينطوا مجموعة ولاد، كل شغلهم إنهم يشنعوا عليها، بنفهم إنو رح يجي دورنا. بنفهم إنو هَوْ ناس ما عندن سياسة إلا الحكي على فتح. كل يوم بتطلع مجموعة هذي سياستها، ساعتها بننتبه، بناخذ حذرنا، بالقليلة بتوقف على جنب. مش إنو بناخذ بجد كم ولد استغلوا فراغ الساحة كم يوم وبلشوا ينبحوا. شو صارلك.

شفت الشيخ أحمد، كنت مجبور، لكن تدعي لمؤتمر منشانو، هذي مش تربية الحزب، مش الماركسية اللي بنعرفها، الوطني إلها كمان انحرافاتها، هذي انحرافات الوطني.

كان يتكلم و لم أردّ، مقتل سليم وصفوان وانفراط التنظيم الذي بدأ بمجرد عودة المنظمات، كانا يثقلان لساني. لم أجد كلمة، لو أردت لوجدت، لكني حزين. نعم حزني على صفوان كان يشعرني بالذنب، لست أنا الذي أرسلته وراء مختطفي سليم حومد، لكن صفوان كان ما زال يخجل، كان من القليلين الذين ما زالوا يخجلون. لقد أراد أن ينزع عن تنظيمه، لماذا لا نقول عن نفسه، تهمة خطف سليم. فواز قال لي كم كان محرجاً وأنا قابلته. جاء إلى بيتي وانتظرني ساعة حتى عدت إلى البيت، وجدته جالساً في انتظاري ورشاشه جنبه، جاء ليقول لي إنه ليس مسؤولاً عن خطف سليم، كان، من قبل، قال لي إنه من قرائي، لقد جاء ليبرّئ نفسه أمامي، كان مهتماً برأيي فيه. كنت بالنسبة له أستاذاً وقد جاء كتلميذ ليقول لي إنه لم يخطئ و لم يخيب ظني. كلام نائب الأمين العام كان نافذاً، لقد أكدت الوقائع صحته، لكني أسأل نفسي ألا تؤكد الوقائع، في هذا الظرف المنحط، صحة أي شيء. أسأل نفسي لكني أعثر على ذاتي وهي على وشك السقوط. اليساروية كما يقول نائب الأمين العام مرض، بل وباء يصيب في أي ظرف وأي عمر، ربما هو مرض البراءة. لا أتذكر صفوان أو خالد أو حتى الشيخ أحمد إلا وأفكّر هكذا. البراءة هي التي تقودنا إلى الحزب، ولا نعرف عندئذ أنه مرضنا الطفولي هو الذي يقودنا. مرض كالحصبة نصاب به في سنّ مبكرة، لكننا لا نعرف تماماً متى نصاب

به مجدداً، قد يعاودنا في الكهولة. في الحزب نتعلم أن نشفى منه ومن كل ترهاتنا الشخصية، من الحب ومن الاستعداد للتضحية ومن ذلك الميل إلى الخسارة والقرف من الربح ومن السعادة. في الحزب لا ينفع كل هذا ومن الأفضل أن ندفنه في داخلنا، لا تنفع البراءة ولا كل هذه الرواسب الطفولية. لم أجب نائب الأمين العام بكلمة. انتظرت حتى أتم كلامه وهو، مرتاحاً لردودي، سكب بقية الكأس في حلقه ووضع يده على كتفي وعانقني وعانق هالة وخرج. كنت لا أزال حزيناً، لقد أدت هذه الرواسب الطفولية إلى مقتل صفوان. وأنا، الذي شجعته على البحث عن مختطفي سليم حومد، ألم أفعل شيئاً قد يكون ساعد في الوصول إلى مقتله هو الآخر، كان ينبغي أن أكون أوسع حيلة. ما يبدو في الحزب واقعياً فظاً ومجرداً من العواطف وبدون براءة حتى، قد يكون هو ما يجب أن نجبر أنفسنا عليه، ما يجب أن نصيره حتى ولو أدى إلى كره أنفسنا. علينا أن نجتهد لنكون في مستوى الواقع، أن نصير قساة إلى حدّ لا نعود نطيق به أنفسنا. لم أكن شيوعياً حقيقياً حين طلبت من صفوان أن يجد مختطفي سليم حومد. بالطبع لم أفكر في أن الرصاصة ستأتيه من الخلف، من رفيق له، لم أعرف أن الأمور قد تكون بهذه التفاهة وأن صناعة شهيد لا تحتاج إلى قدر من الحكمة.

القسم الثاني

تقاطعات



صلاح السايس

بعد أسبوع أكون غادرت هذا البيت. أنا مسرور وهالة مسرورة والولدان أيضاً مسروران. سارة ونبيل مبتهجان لأنهما سيتركان هذه المدينة وينتقلان إلى بيروت. فواز غير راضٍ عن انتقالي. يقول لي إنه هكذا سيفقد مناقشه الأول، وعليه أن يلحقني إلى بيروت لإحياء حفلات نقاشنا كما يقول. على كل حال فواز يقضي في بيروت ثلاثة أيام في الأسبوع، بعمله في جريدة الصباح. نديم غير مهتم أو هكذا يريد أن يبدو. يقول لي إني تأخرت حتى انتقلت، كان عليّ أن أفعل هذا من وقت طويل. نديم لا يريد أن يسلف أحداً أنه محتاج له، يريد أن لا يكون مديناً لأحد، تكفيه نفسه، هكذا يريد أن يعرفه الناس. إذا استوجب الأمر يريد أن يكون المدين لا الدائن، أن يحتاج إليه الناس لا أن يحتاج إليهم. قال لي إني تأخرت حتى انتقلت، كأنه يريدني أن أفهم إني لست شيئاً في حياته ولأذهب إلى حيث أشاء فإن هذا لا يهمه. مع ذلك أظن أنه هو الآخر لن يتأخر حتى ينتقل، وكذلك فواز. المدينة صارت ضيقة على الجميع.

بعد أسبوع أغادر هذا البيت. أنا مسرور لأني أغادره. أذكر أمي وهي تحفّ أرضه وجدرانه وتلعنه. لم يكن بيتاً في الأساس، كان مستودعاً في بناء من طابقين. أذكر أمّي وهي تقول إنه لا يَنْظف. أذكر حبال النمال التي كنت في طفولتي أتسلى بملاحقتها ودوسها ومراقبتها وهي تتشتت ثم تعود لتنتظم. أذكر الصراصير التي كانت ترعى في الحمام والمطبخ والتي كنت أبتهج بسماع خشَّتها وهي تنسحق تحت قدمي. أعرف أنه تقريباً أعيد بناؤه. أقنعوني أن من الأفضل أن أصلحه وبالفعل أزلت حائطاً بين غرفة الصالون وغرفة الطعام، وأقمت جداراً عزل غرفتيْ النوم عن الصالون، وغيّرت كل شيء في الحمام والمطبخ. فعلت هذا بأول مبلغ تقاضيته من عملي في التعليم الثانوي. كان معاش الأشهر الثلاثة الأولى. ظللت أتذكر أمّي وهي تدور فيه تلحق الحشرات والوسخ الذي لفرط ما كانت تهجس به باتت تتوهمه، خاصة عندما ضعف بصرها وبات يخترع أوساخاً. الحق أنها كانت مهووسة بالنظافة. جاءت من بيت فلاحين كانت النظافة بالنسبة لهم هي الدين. والنظافة هي تقريباً فرض كل ساعة، لأن التأخر عنها يعني إتاحة المجال للأوساخ وللحشرات. النظافة هي الدين والحمام بعد كل عمل لا بد منه، فكل ما نلمسه أو نتبلل به أو حتى نشمه أو نلتقمه، بدون حذر، نجس في الغالب ومن الاحتياط أن نتحمم بعده. لا يَكفي بالطبع غسل اليد إذ النجاسة تسري في الأجساد التي هي بطبعها موصلة للنجاسة والنجاسة تنتقل بواسطة الرطوبة وواسطة اللمس، إن عضوا نجساً ينجس كل الجسد. كانت متدينة وظلت متدينة منذ حملوها من القرية لتخدم في بيت أبي حتى

وفاتها في بيته. لا أعرف كيف استطاع أبي إغواءها، لم يكن مغوياً. في المدينة رجال يشتهرون بذلك و لم يكن منهم. لكن الحاجة خالتي أي زوجة أبي لاحظت أن بطنها تنتفخ وعندما أصرت عليها، كما تكهنت من إشارات التقطتها من هنا وهناك، فهذه القصة لم ترو في يوم كاملة في بيتنا، فهمت أن والدتي سالت دموعها وبقيت صامتة ودموعها تجري على وجهها، وسألتها الحاجة إذا كان الحاج هو الفاعل فهزت برأسها. هوت الحاجة بكفها على خد أمي وأمرتها بأن تنزوي في الغرفة، ولا تخرج منها إلا بإذن من سيدتها. حين جاء الحاج ظهراً أدخلته الحاجة إلى الغرفة التي انزوت فيها أمي ساعات بدون حركة وسألته إذا كان الفاعل. لم يجب الحاج لكنه لم ينكر. فهمت الحاجة من صمته أنه هو. لم تطق صمته هوت بكل كفها على وجهه، لكنه أبعدها عنه بفظاظة ودفع الحاجة بيده فتراجعت. لقد استيقظ فيه عرق الرجل وعز عليه أن يهان أمام خادمته. قال بالصوت المليان:

- أنا مسؤول، إيه حبلى مني.

تقهقرت الحاجة لكنها أمرت الخادمة بأن تجمع ثيابها وتعود إلى أهلها. لم يكن والدي متعسفاً لكن عرق الرجل استيقظ فيه، لم يهن عليه أن تتصرف امرأته وكأنه غير موجود قال لامرأته:

- قلتلك حبلى مني. اللي ببطنها إلي. ابني أو بنتي. افهمي.

فهمت الحاجة فقد كان تزوجها من ثماني سنين و لم تنجب. الناس وأهله بالخصوص يروحون ويجيئون عليه بالسؤال، متى يصبح أباً وهو كل مرة يجيب بأن هذه إرادة الله. حين جاءت أمّي لتخدم في

بيته كانت في الثالثة عشرة. كانت أنوثتها بدأت بالبروز، صدر بدا يزحم الفستان وجسد طويل مخصّر بدا يمتلئ في ردفيه ووركه ويزداد مشاقة وتقاسيم من يوم إلى آخر. بعد سنة أمضتها والدتي في بيت أبي غدت فاتنة، يتكلمون عن ذلك في المدينة، ورشاش من هذا الكلام يصل إليها. كانت متدينة ومن بيت متدين وعلموها أن تغض بصرها حين يتواقح أحد ويحدق طويلاً فيها. الحاج والحاجة يلاحظانها، وهي تسبل جفونها حين يتحرش فيها أحد ببصره، ويعجبان بها. الحاجة تركن لطهارتها وحرصها على إبعاد كل نجاسة، والثقة بطهارة إنسان غير موفورة دائماً فالمؤمن يخشى من النجاسة خشيته من الكفر. النجاسة هي هواء وماء وملامس هذا العالم، وإن لم نطردها عنا كل ساعة وكل دقيقة، ضعنا وامتلأت نفوسنا وأجسادنا دنساً. وثقت الحاجة، ووثق الحاج، بالخادمة و لم يقترا عليها بالمال واللباس. لم تلاحظ الحاجة أن والدي يشتري لخادمته ملابس غالية. لم تكن لوالدي سمعة في هذا المجال وخالتي وثقت به. لكن الفتاة حينما بدأ أبي يتحرش فيها ببصره لم تصدق نفسها، و لم تستطع هذه المرة أن تسبل جفونها. احمرّ خدّاها لكن عينيها بقيتا مفتوحتين، بل إنها شعرت بأن شيئاً ما ارتسم على فمها، خشيت أن تكون دعوة فهنا مطرح الدعوة. رأت نفسها في المرآة وعلى فمها ما تخيلت أنه ارتسم عليه فلم تفهم، سوى أن ارتجاف شفتها السفلى الرطبة والنافرة أخافها، لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير بالحاج الذي كان مع زوجته يحملان هذا اللقب قبل أن يؤديا الحج. حين لمس الحاج بيده، خدها بحجة واهية، شعرت أنه يطيل مد يده على خدها، وأن كفه

انبسطت على وجهها. هذه المرة عرفت كيف تبتسم له وشعرت بابتسامتها واضحة على فمها وكأنها تراها. ذهبت إلى المرآة وتعلمت كيف تبتسم وحين جاء الحاج أخذت تبتسم له قبل أن يحدّق فيها، ولما لاحظت أنه لم ينتبه ارتبكت وخجلت من نفسها، وذهبت إلى فراشها ما إن أغلق الحاج والحاجة غرفتهما. لم تصدق حين شعرت بأن أحداً يدخل إلى غرفتها. فتحت عينيها بصعوبة وتثاءبت. فتحت فمها على وسعها فوجدت الحاج واقفاً قرب فراشها. استحت من أن يراها فاتحة فمها فأغلقته ورسمت على وجهها ما ظنت أنه خجل ومفاجأة. نظرت إلى الحاج وبدون قصد ابتسمت له. اقترب وغلغل أصابعه في شعرها وملس على وجهها وعنقها، شعرت بإصبعه بين شفتيها فلحسته بلسانها ولاكته بأسنانها الصغيرة. رفعه إلى فمه ومسّه بشفتيه. وقف وأدار ظهره وغادر الغرفة، في لمحة اختفى وكأن لم يكن، كان مرتدياً دشداشة بيضاء بدا فيها طويلاً عملاقاً ورجع كأنه شبح. ما كانت لتصدق أنه كان هنا، لولا أنها فتحت عينين واسعتين حتى كادت تلمسه بهما، ولولا وقوف حلمتيها وتلك الرغبة التي أطبقت عليها ساقيها. مدت يدها بينهما، كان هناك جوع لم تعرف كيف تلبيه. في الصباح، كان بودها أن تبقى مغمضة إلى أن يترك البيت، لكنها بالطبع قامت مع الحاجة التي نهضت لصلاتها. في الليل بقيت في فراشها تنتظره وبالفعل شعرت بالباب ينفتح بعد أن علا غطيط الحاجة. كان أيضاً طويلاً بالدشداشة المرفوعة من على كتفيه. أغمضت عينيها وخلدت إلى السكون. هذه المرة غلغل يده تحت قميصها، أدار كفه على بطنها التي كان الجوع صعد إليها من

بين الساقين، كانت اليد كبيرة وقوية وأصابعها تلعب في كل مكان. سحبها تحت القميص وكمن بها تحت الصدر ثم صعدت بأصابعها الأفعوانية واستلمت الحلمة التي توجعت بلذة فخرجت أنّة صغيرة من بين أسنانها. كان وجهها اندبغ وهو يعرك بأصابعه نهدها، والأنات تخرج من بين أسنانها. سحب يده دفعة واحدة فأحست أن روحها تخرج معها لكنه مد يده إلى جيبه وشال مقصاً صغيراً. خبّأه بباطن يده وفرق شعرها وأفرد فيه خصلة بسمك إصبعه قطعها بالمقص ورفعها إلى أنفه وإلى فمه. في الصباح حين استيقظت مع الحاجة أرادت أن تراه لكنها لا تعرف كيف غادر و لم تره. عصر اليوم ذهبت الحاجة في زيارة. كانت تلهي نفسها بالشغل حين رأته يدخل. جفلت لكنه لم يتوجه إليها من فوره. دار هنيهة في البيت ثم ناداها إلى غرفة للضيوف. نادها برقة:

- زهرة.

أحست بحلمتها تقف وذهبت إليه فوجدته جالساً على السرير. لم يقترب منها لكنه طلب منها أن تقترب ولما دنت أخذ يدها وقال لها:

- بدنا نعقد عقد. اسمعيني وقولي قبلت.

قرأ عن ظهر قلب صيغة العقد وقالت قبلت. عندئذٍ قادها إلى السرير وتركته يفعل.

* * *

قال الحاج محمود للحاجة ألطاف:

- افهمي، الولد اللي ببطنها إلي.

وحين رمته الحاجة بنظرة ارتياب عاجلها:

- أنا عقدت عليها عقد متعة. كل شيء شرعي. كل شي بشرع الله.

كان ذلك قبل أن يذهب الحاج والحاجة إلى الحجاز للحج. منذ طفولته كان والده والناس من بعده ينادونه الحاج، وحين تزوج ألطاف ابنة خاله أعارها لقبه فصارت هي الأخرى الحاجة. كانت الحاجة مجروحة لكنها لم تجد كلاماً. في هذه اللحظة اختفت اللغة. صرخت فقط:

- يا أمي.

وأجهشت في البكاء، احتضنها والدي. فهم أن الدموع أطفأت الغضب. عندئذٍ كانت فرصة ليقول لها إن الفتاة خادمتها وستبقى خادمتها. إنها ستنجب والذين تنجبهم سيكونون أيضاً أولادها هي وهي التي ستربيهم على طريقتها. سيكونون تربيتها هي لا تربية الخادمة. ثم إن الخادمة طيعة ومؤمنة ولن تخالفها في شيء.

لم تروِ هذه القصة في يوم على هذا النحو، لكن الإشارات التي وصلت منها لم تكن قليلة. كان هذا الاتفاق بين الحاج والحاجة واضحاً. هدأت الحاجة، خرج والدي واستدعى والدتي التي كانت تركت الغرفة بإشارة منه، جاء بها وذراعه حول عنقها وقال لها:

- بوسي إيد الحاجة. ستّك وبتظلا ستّك.

قبّلت والدتي يد الحاجة. تزوج الحاج والدتي. جهزوا لها الطابق الأرضي، القبو الأرضي الذي كان مستودعاً للغلال، تركوا للغلال

غرفة واحدة. كنا نرى الحمالين أمام أبي يحملون إليها القمح والعدس والفول من أراضي والدي في القرية، ومما يشتريه من أراضي الفلاحين ويشتريه من السوق ليبيعه في مخزن الحبوب الذي له في المدينة. نراهم أيضاً أمام أبي يحملون الأكياس إلى المخزن.

جهّزوا الطابق الأرضي لأمّي التي تعبت طوال حياتها في تنظيفه. كان التراب والغبار والماء الوسخ تؤثر فيه على نحو غير مفهوم. وتبقى جدرانه وأرضه قابلة للوسخ كل لحظة. كنت بكر والدتي، وفي طفولتي الأولى طالما أسمع والدتي تلعن هذا البيت، لكنها لا تلبث أن تصعد إلى الطابق الثاني وألحقها إليه، أتبعها وهي تدور بين الغرف على صوت خالتي الحاجة تأمرها قائلة يا بنتي اعملي هذا واعملي ذاك، وأمّي تنتقل من الكناسة والشطف إلى الجلي إلى الغسيل. إذا قصرت أو تأخرت يأتيها صوت الحاجة:

– إنت صبيّة. لازم تكوني أنشط من هيك.

ووالدتي تجيبها بعد كل طلب:

– أمرك يا حاجة.

لم تعد تقول لها "ستي" منذ تزوجت أبي، أبي نفسه منعها من أن تقولها. بقيت تقول لها يا حاجة، لم يتغير مع ذلك شيء كثير. صار عليها أن تشتغل في الطابقين وأن تربيني وتربي أختي منى التي ولدت بعدي بسنة. ولما أنجبت والدتي أخي كمال أحضر والدي خادمة إلى الطابق الثاني ولزمت والدتي الطابق الأرضي. لكن الحاجة، خشية أن تفقد سطوتها عليها، كانت ترسل لها خادمتها تطلب منها أن تصعد لتساعد الحاجة في تدكيك اللحف أو تنقية العدس. ووالدتي

لا تخيب رجاءها، وإن كانت ترجع منهكة، فالحاجة، كما كنت ألاحظ، تستثمر وجودها في أمور أخرى. تقول لها "يا بنتي، اطلعي رتبيلي التتخيتة". "البنت" – وتقصد الخادمة – "ما بتعرف تغسل تياب الحاج، هاو بدن دياتك"، "البنت ما بتعرف تنظّف القزاز متلك". وتصعد والدتي إلى التتخيتة أو تعكف على لَكَن الغسيل أو تبدأ في مسح الزجاج. كان واضحاً أنها تريد، كل حين، أن تعيدها خادمة، وأن تجعلها تنسى أنها زوجة، وأنها ضرّتها. والدتي ليست ذكية جداً لكنها لم تكن غافلة عن أن الحاجة لا تريدها أن تكون سيدة. شعورها بأنها خادمة ظل يلازمها. كانت خادمة الحاجة وبطريقة أخرى، خادمة الحاج وتريد أن تكسب ثقتهما بأن تظل خادمة لهما. كان هذا بالطبع يرهقها، لكنها لا تجد من تشكو له، فتلعن البيت الذي يظل يتفسخ ويفرز ماء وسخاً ويتوحّل وتتبقع حيطانه.

عندما ولدت حملني أبي وصعد إلى خالتي الحاجة وقال لها:

– شوفي ابنك. لاقيلو إسم.

سمتني خالتي الحاجة صلاح. كذلك سمّت إخوتي السبعة. منى، كمال، ليلى، رشيد، سميرة، حسين. أنا بالذات كنت تقريباً ابنها، في طفولتي الأولى كنت أسمّيها وأسمّي أمّي ماما. وحين أطلعوني على الحقيقة كرهت أمّي الحقيقية، فقد كانت خالتي الحاجة هي المفضلة عندي. أحب أن أشم رائحة عطرها ولا أحب رائحة أمّي. أحب أن تحملني بذراعيها المشكوكين بأساور الذهب، وأحب أن ألعب بالأساور في ذراعها. أحب أن ألقي رأسي على تلك الوردة الكبيرة

المرسومة عند صدرها على عباءتها. أحب حضنها الواسع وصوتها الأغن وإشارات يديها التي تصاحب كلامها وذقنها المطبوعة في وسطها وشعرها المضفور كالتاج وعروق رقبتها فقد كانت هذه جميعها تشي بقدرتها وسلطتها. كنت طوال الوقت في حضنها وعلى ذراعها، و لم أكن أذهب إلى أمّي إلا لترضعني أو تنظفني فقد حاولت خالتي ذلك مرة أو اثنتين ثم وجدته لا يناسب مستواها، أو أنها ببساطة قرفت من الرائحة فأوكلته إلى أمّي. وبالطبع لم تمانع أمي فقد كانت تتسقط أي شيء يعيدني إليها بعد أن أصبحت كلياً ملك الخالة. بديهي أن الخالة كانت تشتري لي ثيابي أنيقة وغالية كثيابها فيما أمي تدور في البيت بثوب تسقطه على جسمها كالكيس ولا يظهر أياً من تقاسيمه، وتسدله على بيجاما خضراء وشبشب مقصّف. كانوا يقولون عن الحاجة "ست" ولا يقولونها عن أمّي التي بقيت في أعينهم الخادمة القديمة. تعهدت الحاجة أختي منى التي صارت مدللتها أيضاً وظلت معها حتى بعد أن تزوجت، وكانت وحدها معها في نزعها. أوصت لها الحاجة بالطابق الأعلى فيما أوصت لي بالطابق الأسفل، فالدار كانت لها في مهرها. رضي الإخوة بهذه القسمة بعد أن نالوا مقابلها من ميراث أبي.

بعد ولادة رشيد تعبت خالتي، مرضت و لم يكن لها قوة لتعتني برشيد ولا بسميرة ولا بحسين اللذين ولدا بعده. بقيت أنا ومنى ولديها المفضلين. لا أعرف إذا كان هذا سبباً في أنني ومنى صرنا شيوعيين. إذا كان هذا من شعور بالذنب لأننا أنكرنا والدتنا الخادمة في داخلنا، ولأننا هكذا نستردها أو نسترد أنفسنا لها.

والدي الحاج خلع القمباز بعد أن تحسنت تجارته. وتأخر حتى خلع الطربوش. لكنه ومنذ ذلك الحين صار عضواً في البلدية، واحداً من وجهاء المدينة، كان والدي ملتهياً بتجارته سعيداً ببيته وزوجتيه. ما إن يصل حتى تهيئ له الحاجة مقعداً في الشرفة إذا كان الوقت ملائماً أو في غرفة الجلوس، وتحمل إليه الخادمة النارجيلة ويجلس وهو يشرب الشاي ويدخن. لم تلبث الحاجة أن تعلمت من جاراتها أن تدخن فصار لها أيضاً نارجيلتها. كان أبي مرتاحاً في بيته الذي سلمه بكلّيته للخالة. كانت الخالة تغض في البدء عن أنه يترك سريرها ويتسلل أحياناً إلى الطابق السفلي، حيث ينزعني عن ذراع أمّي وينقلني إلى سريري، ويرقد مع أمّي وقتاً قصيراً ثم يعجل بالصعود. لكن الخالة بعد أن أحست بالعمر والمرض لم تعد تتناوم حين تجده يحوص ليذهب إلى فراش أمّي. صارت ترفع رأسها وتقول له حين تشعر به يتسلل من سريرها.

- لوين يا حاج؟

في البدء تلعثم الحاج وعاد إلى السرير لكنه في المرة ثانية عاد له عرق الرجل وقال لها بصراحة:

- نازل لتحت.

تركته الحاجة ينزل، لكنها لم تطق ذلك بعد وقت، فصارت تجادله وتضطره إلى أن يرفع صوته عليها، أو ترسل خادمتها وراءه تستدعيه. وفي يوم سمعنا طرقاً على الباب ثم رأيت خالتي الحاجة نازلة بقميص النوم الأزرق السماوي، وهي تدخل بسرعة بعد أن فتحت لها أمّي. قالت لها على الباب وينو ووقفت أمام غرفة النوم تناديه "يا حاج".

خرج الحاج بعد هنيهة. قالت له بصوت مكسور لم يكن أبداً صوت الحاجة الرنان الذي أعرفه:

- ما وعدتني يا حاج. أنا مرتك، بنت خالك.

وتندّت عيناها بالدمع فأمسكها والدي من كتفها وعاد معها.

أنا ومنى خصوصاً كانت لنا أمّان. واحدة عليا والثانية دنيا. كنا ننتقل بين الطابق الثاني والطابق الأول وكأننا ننتقل بين عالمين. كنا أبناء الخادمة في الطابق الأول، وأبناء الست في الطابق الثاني. في الحقيقة لم نكن هنا ولا هناك ولا حتى على الدرج الذي يصل بين الطابقين. تعبنا لنجد لنا مكاناً. في الحقيقة كنا بلا مكان.

والدي الذي ينتقل بسهولة بين الطابقين، كان سيداً في الأعلى ويتسرق ليصل إلى الطابق الأرضي، وكنا نحن الأبناء ثمرة ذلك. لسنا أكثر من سرقات ليلية بلا هوية وبلا كيان. كان والدي سيداً في الطابق الأعلى وشبحاً في الطابق الأرضي، لا نصل إليه نحن أبناؤه لا هنا ولا هناك. يومها كان الشارع يربي أكثر من الأهل والأبناء يتربون في الطريق، نحن تقريباً لم يربنا أحد. كان أبي سيداً في الأعلى وحين يتمرغ في فراش خادمته ولا يعود سيداً وهو في هذه الحضائر. لم تكن أمي تشكونا إليه، ترى نفسها أقل من ذلك. لا تقول له إن أحدنا لم يطعها فمن هي حتى تطاع، وكيف يطيعها أبناء السيّد ولو صادف أنها أمّهم. خالتي لا تشكونا أيضاً لأنها السيدة وكلمتها كلمة السيدة وهي معودة على أن تطاع.

ليس أفضل من أن لا يربي الشخص أحداً. هكذا كنا مجتهدين في دروسنا، وأحياناً أوائل في صفوفنا، نعرف كيف نتدبر أمورنا.

بالطبع تفاوتت حظوظنا. أنا من معلم ثانوي إلى أستاذ في الجامعة. منى طبيبة، كمال في المخزن وليلى ربّة منزل. رشيد كان وحده نشازاً، بدأ بالسرقة من جيوبنا ومد يده إلى جيب أبيه ومصاغ خالته. عندئذ وجد من يشكوه إلى أبيه الذي ربطه إلى رجل السرير ونزل عليه بالحزام. تملص رشيد وهرب واختفى أياماً. ثم طرق بابنا شرطي أبلغنا أنه في المخفر، لقد شرط أحدهم بسكين وعثر في جيبه على ساعات مسروقة. قال له أبي دعوه في السجن كي يتربى. لكنه ما لبث بدافع من نفسه أو إيعاز من الخالة أن توجه إلى المخفر وتفقده. ثم عوض على الولد الذي جرحه واسترضى والده فأسقط دعواه، واستطاع هكذا أن يطلقه. لكن مشاكل رشيد لم تنته وتتابعت بسرعة: اعتداءات وسرقات (خاصة من مخزن أبي) وتحرشات بصبيان وعندما أهان أخته الطبيبة أمام الجميع، نفض أبي يده منه. كأنما استنفذ أخي رشيد كل شرّه في هذه الفترة إذ ما لبث أن توقف وكأنما انطفأ من نفسه. صار ساهماً متوحداً متبلداً يقضي وقته بين جدران حجرته. وعندما أشفق أبي عليه ورضي بأن يشتغل معه في المخزن، صار يهذي بأن عمال المخزن ينوون به شراً وأن والده يحرضهم عليه. في النهاية عاد إلى حجرته، ثم ترك إلى الضيعة حيث بنى عرزالاً في شجرة ينعزل فيه عن الناس ولا يغادره إلا ليقضي حاجته والوالد وأمي وحتى الخالة يدسّون له نقوداً ليستطيع أن يطعم نفسه. سميرة تخرّجت من مدرسة التمريض وحسين في المخزن.

أنا ومنى الأثيران لدى الخالة. كنا نمضي نهاراتنا في الطابق الأعلى ونذهب إلى النوم في الطابق الأرضي. كنا موزعين بين الاثنين،

نقضي نهاراتنا سادة وننام خدماً. لم نستطع أن نعرف من نحن. من هنا مررنا نحن الاثنين بأزمات عاطفية. لكنّ تفرُّدَنا أفادنا في أننا أكملنا دروسنا وصرنا مفخرة أبينا وخالتنا. أمّي، حتى بعد أن كبر أولادها وصارت لهم مراكز وأعمال، وحتى بعد أن توفيت الخالة، لم تسع إلى أن تغيّر موقعها. بالرغم من أن كثيرات بدأنَ يعاملنها كربّة المنزل، وبالرغم من أن منى استقرت في الطابق الثاني، بقيت أمّي في الطابق الأرضي تحفّ الجدران وتلعن البيت. ما تغير من غياب الخالة أنها اضطرت إلى صناعة أكلها. الخالة كانت تقوم بالطبخ وحده من أعمال المنزل لاعتبارها أن الطبخ لا يترك للخدم وأن السادة ينبغي أن يأكلوا مما يطهونه بأيديهم. كان الطبخ إذن مهنة السادة، في هذه ظلت والدتي خادمة. كانت تلقي في الطنجرة كل ما تجده في برادها وتغليه مع قليل من ربّ البندورة ثم تأكله وتريدنا أن نأكل معها، لكننا نتأبى ذلك ونفضل عليه طعام الخادمة التي بقيت تطبخ لوالدي ومنى في الطابق الثاني. كنا لدى كل وجبة نترحم على الحاجة ونتذكر مهارتها في الطبخ والمذاق الطيب لمآكلها.

في طفولتي كنت متديناً جداً. وجود الله لم يكن مسألة بالنسبة لي. أي شيء، حتى سقوط المطر، حتى مرور النسيم، حتى اليقظة صباحاً كان دليلاً لا يدحض على وجوده. أنا نفسي، لم يكن لي وجود إلا بهذا الشرط. العالم، السماء وكذلك الأرض والمخلوقات جميعها كانت الله. كنت أعيش. أنام وأنهض، أذهب وأعود، آكل وأشرب في الله. لم أفكر أن في وسع أحد أن يكون ملحداً. إذا احتاج الملحد إلى دليل فهو أحوج إلى دليل على وجوده. أول مرة صادفت فيها ملحداً

شعرت بعدها بأن وجودي نقص أو بات لا شيء. عندما قرأت عن الفناء في الله لم أجد جديداً. كنت أتنفس الله وهو الذي ينبض في قلبي. الحلول كان هو الكلمة التي التقطتها فوراً، الذوبان والتلاشي في الله. ما زلت إلى الآن أحتاج إلى أن أنحل، إلى أن ينحل وجودي في قوة أخرى. لم أعد متديناً لكني لم أتحول إلى عدو للدين، أظن أننا يمكن أن ننقله إلى شيء آخر، أن نبحث عن الحلول والفناء والذوبان في طاقة أخرى. ماذا عن التاريخ، ألسنا نؤلهه نحن الشيوعيين، ألسنا نذوب ونتلاشى فيه، كيف نغدو قوة بغير هذا الشرط، كيف نتحول إلى عنصر تاريخي بغير هذا الحلول. عندما أعود إلى البيت وأرتدي عباءتي ودشداشتي وأجلس أشرب الشاي لن يشك أحد في أني درويش. لا يزعجني هذا بل أفكر أحياناً أنني أتظاهر به. أفكر أحياناً أنني في هذا الجلباب شيوعي أكثر. أن الحزب يحتاج إلى دراويش وإخوة في قاعدته. لا يزعجني أن نكون نساكاً وأن نستغني عن أي شيء سوى الحزب. فتنتني قصص هؤلاء الجوالين الذين يعيشون مما يتصدّق عليهم به الناس، لن أقترح بالطبع على الحزب أن يعد جيشاً من المتسولين. مع ذلك أفكر أننا سنكون قوة هائلة، إذا نحن تخلينا عن كل شيء سوى الحزب. ألا يحوّل الحزب هذه الطاقات اليومية، هذا الوجود اليومي والعادي إلى طاقة تاريخية ووجود تاريخي. ينبغي إذاً أن نمر من أجل ذلك في شيء يشبه الدين. إذا كان الحزب هو المعدّ ليكون قوة تاريخية فإن علينا أن نذوب فيه. أن نتنفسه، وأن يكون بالكامل سيداً حتى على أجسادنا. لا يكفي أن نمنح عقولنا للحزب، ينبغي أن نعانيه كتجربة جسدية. علينا، في تجربة عليا، أن

نمنحه أجسادنا أيضاً. أن نتنسك له. أن نجعله، على نحو ما، خبزنا وماءنا، أن نأكل جسده ونشرب دمه، أن نحلّ فيه. الحزب، لن نكون حقاً حزبيين إذا لم نكن إخوة ونسّاكاً فيه. أسوأ شيء هو أن نعتبره متعة عقلية فقط، أن يكون لنا ككأس خمر أو وليمة، الأسوأ من ذلك هو أن نعتبره امتيازاً. حلم المساواة هو ما يجعلني أحلم بدراويش وإخوة في قاعدة الحزب.

أحياناً ألتقي بشيوعيين لا يخطر لهم ذلك على الإطلاق، حينما يزورني نائب الأمين العام ويطلب مني أن أضيّفه أفضل ويسكي وأفضل طعام، حين أراه معتداً بثيابه وحين يتناول مشطه في وسط الطريق ليعيد ترتيب شعره. عند ذلك أشعر بتجويف في داخلي وبجوع في نفسي، مزيج من الاشمئزاز والحزن. أظن أن شيوعياً صالحاً ينبغي أن لا يكون دنيوياً إلى هذا الحد. أن يهتم ببطنه وجسده إلى هذا الحد. إذا كان يطلب أفضل أنواع المشروب فلأنه يظن أن الحزب هو فقط للاجتماعات وأنه يستطيع خارج الاجتماع أن يكون نهماً ومدعياً وطالب فخامة. الحزب يتحول بذلك إلى عمل تقني، إلى مهارة، إن لم يكن حيلة وأداة. كيف يمكن أن يكون المرء شيوعياً بدون أن يقتل في داخله كل هذا الجوع إلى الأشياء الفخمة. ستكون شيوعيته عند ذلك مرادفه لطمعه، لنهمه وجشعه. حين لا يربي الشيوعي جسده فإن هذا الجسد سيكون وحشاً مثلما هي أجساد البرجوازيين. حين لا يربي نفسه على النسك والزهد واحتقار الدنيا فأي فرق سيكون بينه وبين الملّاكين والبرجوازيين الذين هم أيضاً يطلبون أفضل مشروب وأفضل ثياب. لا أطيق هؤلاء الشيوعيين الذين يظنون أن المادية تعني

الإفحاش والاستغراق في الملذات والإسراف في تدليل الجسد، هذا ما أظنه الوقاحة ليس إلاّ، أننا عند ذلك نربي وحوشاً حقيقية. لن نختلف عندئذٍ عن أعدائنا الذين هم أيضاً غارقون في الإفحاش. سيكون الاستغلال حينها مفهوماً ومبرراً إذ لن يكون شيئاً آخر غير هذا الاستغراق في الملذات وبأي ثمن.

* * *

البيت الذي استأجرناه في بيروت كان في الطابق الأول. استأجرنا في "رمل الظريف" في مبنى ضخم، تعجبت حين علمت أن نهايته على تقاطع شارعين، فيما كان هذا التقاطع يبدو من شرفة شقتي بعيداً، ولم أتخيل أن المبنى واصل إلى هناك. سرّ الولدين أننا لم نعد في الطابق الأرضي فقد ارتقينا هنا طابقاً واحداً. صرنا بهذا العلو البسيط نشرف على الطريق ولم نعد امتداداً لها. افترضنا أننا ارتحنا من الحشرات، وبالفعل كانت الشقة نظيفة منها. لم يعد الشارع بمصابيحه وزمامير السيارات المارة فيه ونداءات الباعة يملأ المنزل. خرجنا من الشارع وصار الفضاء لنا.

عدت من الجامعة فوجدت البيت هائجاً. كانت هالة تحاول إقناع الولدين بالنزول عن الكنبات، وهما متشبثان بالبقاء فوق، فقد مرّ أمامهما في المطبخ جرذ ضخم بحجم هرّة صغيرة كما قالت هالة. كانوا يعتقدون أنه ذكر بسبب لونه الأبرش وحجمه. قالت البنت إن له أنثى عرفتها أيضاً من لونها الفاحم وحجمها الأصغر منه. دخلت إلى المطبخ وتحسست بعصا المكنسة خلف البراد وفي جوارير

الخزانة لكني لم أجد شيئاً. قالت هالة إنهم يبيعون لهذه الحالة قمحاً مسموماً، ذهبت واشتريت منه. في البيت احترنا في توزيع القمح على البواليع والجوارير وفي النهاية نشرنا القمح في ثلاثة أماكن. في اليوم الثاني ابتهج الولدان حين نهضا صباحاً ووجدا الجرذ الأبرش ميتاً. قالت سارة إنه الذكر وبقيت الأنثى. خلت أن الذكر والأنثى حكاية فحسب وأن خيال سارة عمل في اختراعها.

مرّ يومان لم أسمع فيهما بحكاية الجرذان. فكرت أننا ارتحنا لكن هالة أيقظتني في صباح اليوم الثالث وقالت إنها تسمع طحشة الجرذ. قالت إنه يتحرك في الجارور. ليس سمعي رهيفاً وصعب عليّ التقاط أصوات من هذه المسافة. ذهبنا إلى المطبخ أشارت إلى أحد الجوارير في خزانة المطبخ وقالت إنه يتحرك فيه. أمسكت عصا المكنسة وفتحت لها الجارور. لم ألاحظ شيئاً لأول وهلة لكني بعد هنيهة رأيت الأكياس الموضوعة في أرض الجارور تتحرك وتنفرج وثمة شيء أسود ينفذ من بينها. كان هذا جرذاً كبيراً لكنه أقل امتلاءً من الجرذ الميت. لمسته بعصا المكنسة، لم يخطر لي شيء آخر كأن أضربه بالعصا. قفز من الجارور واختفى في المطبخ وربما نفذ منه إلى البالوعة التي على شرفته. إذ لم نجد له أثراً.

في اليوم الثاني أيقظتني هالة مذعورة، قالت إنها تسمع طحشة في الحمام. ذهبت إلى الحمام وفتحت بابه ومنذ دخلت رأيت الجرذ في ماء المرحاض. يرفع رأسه وينفخ في وجهي صفيراً أرعبني، خفت أن يصل الصفير إليّ فهو مشحون بما يشبه السمّ. ذهبت هالة وأحضرت دورقاً ملأته بالماء الساخن الذي مزجته بالأو دو جافيل وألقته فوق

رأس الجرذ الذي صفر مرعوباً. أحضرت الدورق ثانية مملوءاً بالماء الساخن الذي سكبته مجدداً فوق الجرذ. غاص الجرذ في ماء المرحاض واختفى. هنيهة ولاحظت أن غطاء البالوعة يتحرك، كان من تحت يحاول الخروج. ما لبث إزاء دهشتنا، التي شغلتنا عن أي حركة، أن رفع غطاء البالوعة وقفز أمام أعيننا وركض إلى المطبخ حيث اختفى ثانية.

استشرنا أصدقاءنا الذين أخبرونا أن الجرذان ذكية جداً، وأن موت جرذ بالقمح المسموم يحوشها عن أن تأكل منه ثانية، بل علينا أن نحترس ونحن نضع الطعام المسموم من أن نلمسه، فهو عندئذ يحمل رائحة الإنسان التي يتعرّف عليها الجرذ فيمتنع عن أكله. قالً حسن إنهم أرسلوا إليه من أميركا جهازاً يطلق إذا وصلناه بالكهرباء ذبذبات تجعل الجرذان تهرب من المكان. قال البواب إنه يعرف دكاناً يبيع سمّاً للفئران فأرسلناه لشرائه وحمل لنا هذه المرة حَبّاً برتقالياً قال إنه يقتل بل يهرب الجرذان وضعناه في الجوارير وعلى البواليع فاختفت الجرذان ولا نعرف متى تعاود الظهور. هالة تقول مازحة إننا جلبنا الجرذان معنا من المدينة، إن هذه اللعنة سترافقنا إلى كل مكان. فنحن نسافر وحشراتنا تسافر معنا. تقول إنه إرث الخدم الذي نحمله في دمنا. أنا لم أمزح، تشاءمت حقاً من هذه البداية، لم يكن أمراً لا يحسب له حساب أن ننتقل في المجارير الداخلية وأن نبحث عن أنفسنا في البواليع وأن نبدأ حياتنا هنا بهذه الكتل السوداء الخارجة من تحت الأرض. وأن نبدو بلا قوة حيالها، بينما هي قادرة على أن تختفي وأن تظهر على راحتها، وأن تعرف عنا أكثر بكثير مما نعرف عنها.

* * *

توقعت بالطبع زيارة نديم لكن ليس بهذه السرعة. خطرت له هذه الفكرة باكراً على الأقل. ما إن تخطر فكرة لنديم حتى يبادر إلى تنفيذها، لا يستطيع أن يصبر على رغبة. فواز مثلاً لا يكفيه أن تعنّ له فكرة، سيحسب بالتأكيد إذا كانت ملائمة وإذا كانت في وقتها. لن ألمح له وجهاً قبل أسبوعين، بعد أسبوعين تكون الزيارة في محلها. لم يكن مضى أسبوع على رحيلي إلى بيروت، حين سمعنا الجرس، لم يكن النجار، كان نديم على الباب. نديم وحده لم يجرّ معه بيار كعادته. نبيل وسارة استيقظا منذ برهة قصيرة للفطور حين سمعنا الجرس. رأينا نديم بجاكيت جلد سوداء تصل إلى وسطه وكاسكيت كحلية. لم يكن يرتدي كممثل في فيلم إيطالي فحسب بل يحرك حاجبيه وفمه كممثل. فاجأنا على الباب بحاجبين مرفوعين وابتسامة بنصف فم كأنه يندهش بذلك بدلاً عنا. قال "يا الله، جينا هيئتي ما ضعت، وصلت دغري عَ العنوان" ودخل. بدا أطول تحت السقف المنخفض بالقياس إلى سقف بيتنا في المدينة. كان لا يزال يتحرك كممثل وهو يمشي إلى أن وصل إلى الصالون واستقرّ على كنبة.

حين أخبرت نديم بأننا سنغادر قال إن المدينة هكذا ستصير أنظف. كان يرمي جملاً من هذا النوع ليفاجئ بها، يقولها غالباً بصوت مرخم عال وكأنه يؤدي دوراً. قال إن المدينة ستصير أنظف بدوننا، وسكت واستقر في جلسته ليتأمل كيف تبدو البغتة على وجهي، وحين لم يلاحظها قال "يا الله فلّوا". لم أسأله فوراً عن بيار فأنا أعلم

أنه لا يحب أن يُسأل فوراً عن بيار وكأنه متمم له ورؤيته وحده مستغربة. مع ذلك حين سألته عن بيار وليس قبل أن أسأله عن عائلته، أبيه وأمّه وأخويه وأخته، أجابني:

– زهقت منّو.

وحين لم أعلّق استطرد:

– بعتو لعند إمّو بركي بتعطيه حنان. هيئتو ناقصو.

دعونا نديم إلى الفطور معنا فاعتذر لكنه قبل كأس شاي، وحين رأى أن الإفطار يتضمن فولاً مدمساً بالإضافة إلى رزمة مناقيش وصحن أجبان قال إن فطورنا يكفي عائلة سوفياتية لأسبوع، وإن بيتنا الجديد يتسع لخمس عائلات سوفياتية. أراد أن يكون استفزازياً بالرغم من كونه خبر أنني لا أعلق على نقد للاتحاد السوفياتي وأحياناً كثيرة أشارك فيه. أراد أن يكون فظاً ربما ليداري بذلك حرجه من كونه استعجل زيارتي. سألته عن فواز فقال:

– مين فواز أسعد عم يكفّي اعتذاراته. بيعتذر من أهل المدينة فرداً فرداً. بيعتذر من التلفزيون إذا بدو يطفيه. بيعتذر من راس البندورة إذا بدو ياكلو. بيقلو يا أخ بندورة اعذرني لأنو رح دمّيك. بيعتذر إذ جارو كذّب، إذا خربت غسالة الجيران. إذا طلع الهوا بيعتذر، بيقول المرة الجايي رح خليه أروَق. المرة الجايي رح أخلق ناس عاقلين وابعت ولاد مرَبّايي. مفكر حالو الله ومستحي من هـ الكون.

كان في وسع نديم أن يبني على مسألة كهذه ساعات من الكلام، سألته تحسباً لذلك إذا كانت هناك أخبار عن "اليقظة" قال:

- اليقظة إيه. بيقولو إنو دنيا من كتر حزنها على صفوان التجأت لايدين أمين. بيقولو إنو كانت هيي وأمين قبل ما يخطفوه.

- ليش خطفوا أمين؟

- ما حدا عارف شي، علمك إنو اليقظة فرطت وكل واحد رجع لمطرح ما كان. بعد شوي بتسمع إنو الشيخ أحمد متخفي هربان وبيجي خبر إنن كمشوا أمين وبيوقف كايد مسؤول فتح وبيقول بخطاب إنو هَوْ مدعيين الدين. بيوقف الشيخ عبد الباقي بنص المخيم وبيقول إنن ما بيعرفوا بالإسلام والإسلام بريء منهن. هيئتها قصة اليقظة عم تجر وما عاد نعرف شو هيي اليقظة. في حكي إنو القصة أكبر وإنو الشيخ أحمد صورة مش أكتر وإنو ورا اليقظة ناس كبار، يمكن أبو فاروق أو أبو كفاح وإنو في صراعات بأعلى مستوى. الأفكار أكيد أفكار الشيخ أحمد. هذا رجال فهمان ومطّلع بس مين بيحميه. وشو صار حتى تخلوا عنّو.

كنت متعجباً. لم يبدُ على نديم حتى الآن أنه مهتم بقصة "اليقظة"، كرهها منذ البداية. لا يتحمس نديم للأشياء الجديدة، شكوكه كبيرة فيها، أول ما يخطر له أنها مدبّرة. أنها غير حقيقية. هو أكثر ثقة بالأمور التقليدية، يراها طبيعية أكثر. لو كانت اليقظة مجرد تنظيم إسلامي لما ارتاب فيها. هذا الكلام عن إسلام معاصر، جعله يرتاب. لا بد أن هناك غشاً، لا بد أن هناك ادعاء، شيء آخر بالتأكيد يتغطى به. نديم يظن أن الكلام آلة خداع، أن علينا أن لا نَصدق لنبدو أذكياء، علينا أحياناً أن نخدعهم قبل أن يخدعونا. كان يثق أكثر بالتقليديين، يراهم ورثوا شيئاً واستمروا عليه، لم يبتكروا ولذلك لم يكذبوا. لا

أعرف إذا كان نديم في قرارته تقليدياً، مظهره غير ذلك. يتقصد أن يبدو غريباً، أظن أنه هكذا يقلد الفنانين، السيرياليين خصوصاً. لا أعرف أن لنديم فناً أي فن. البعض يقولون إنه يرسم لكنه لا يبرز رسومه. البعض يقولون إنه يكتب، لكنه لا يعلن قصائده. أنا لا أصدق أنه رسام أو شاعر. ربما يرسم أو يكتب فعلاً، لكنه أدرى منا بقيمة ما يفعله، لا بد أنه يخفيه لأنه بلا قيمة.

تدرجنا بالحديث إلى الوضع اللبناني، قال نديم ساخراً:

– الطبقة الإسلامي بتحارب الطبقة المسيحيي. الطبقة الفلسطينيي متحالفة معاها.

كان واضحاً أنه يستفزني. بالنسبة لي الصراع الطبقي هو المفتاح، هو المبدأ الأول. ما لا يبدو أنه هكذا هو بالتأكيد يتموه، حتى لو لم يكن واعياً لذلك، فإنه يتموّه. الصراعات الطبقية تتحايل باستمرار وتقدم نفسها بمظاهر عديدة خادعة، علينا أن لا ننخدع وأن نبحث عن الأساس. لا بد من هذه المعرفة لنعرف كيف نتحرك إزاءها، قلت لنديم:

– قولك إنو الإسلام بدهن الدولي منشان صلاة الجمعة والمسيحيي بدهن ياها منشان قداس الأحد. هَوْ عم يختلفوا على الدولي، على شي ما إلو دين. ما بتظن إنو لازم نفتش عن المصالح الحقيقيي ورا هـ الصراع.

كنت أيضاً حائراً. أعرف أن الصراع الطبقي هو الأساس لكنني لا أعرف كيف أجد ذلك في الحرب الأهلية اللبنانية، أقول إن هذا يحتاج إلى معرفة بالاقتصاد غير متوفرة لي. يحتاج إلى جداول أرقام ودراسة غير جاهزة للطبقات اللبنانية. مع ذلك فإن القول بأن الحرب

اللبنانية حرب طائفية هو بالنسبة لي يعادل الكفر. إنه عمى كامل، لا يغطي فقط على الصراع الطبقي ولكنه يغطي أيضاً على السياسة. حين نتكلم هكذا لا نختلف أبداً عن المشايخ والقسس والرهبان. إننا عندها نشيع ما هو شائع تماماً ولا نزيد عن أن نردد ما يقوله العوام. المسيحية ضد الإسلام، حين نقول ذلك نكون أغفلنا أن الاقتصاد اللبناني كومبرادوري، أن الدولة اللبنانية تمثل بالدرجة الأولى مصالح هذا الاقتصاد الكومبرادوري، أن الاقتصاد لا دين له. وحين يتموه بدين من الأديان فإنه يفعل ذلك ليخفي طبيعته.

نديم سمعني أقول له ما كان ينتظر سماعه. ما سمعه مني مراراً وما هو مدرب على الرد عليه. قال:

– الدولة صحيح بلا دين. بس الناس إلهن دين. بيفكروا دين وبيفهموا دين. هذا وَعْيهن. ليش عمتقول إنو هذا مش وعي. أول شي بيخطرلهن هو الدين. لأنو مشرِّش بوعيهن، لأنو هوي الشي اللي بيفسرلن الأشيا، هُوّي اللي بيخليهن يتحركوا، هوي بيعطيهن دوافع. بدك يكون عندهن دافع طبقي. هذا ما بيخطرلهن فوراً. هذا لازم يتعلموه بالمدارس. يعني وعي مصطنع، وعي مش غريزي. شو باك ما بتشوف اللي قدام عينك وبتروح تفتش على قطبة مخفيي ما حدا شايفها. مش عاجبك الدين، إيه، شايفو مش كافي، إيه، الأساتذة مش شايفينو كافي. الناس بيكفيهن.

كان هذا نقاشاً طالما خضناه وبالتأكيد بذات الحجج. قلت لنديم:

– إذا بدك تفهم الأشيا متل ما بيفهموها الناس بتكون ضيعت فهمك. الناس بيؤمنوا بالخرافات. إذا بدك تؤمن بالخرافات آمن

فيها. إذا ما بدك لازم تفكّر غير شكل، لازم تقيم الناس من حسابك. الناس ما بيتغير وعيهن بالمدارس ولا بالقراية، التجارب بتعلمهن. في غيرن أوعى منهن بينقلولهن الوعي. الدين نفسه في بذرة وعي. الدين بيقول الناس متساويين وبيؤمن بالعدل. بيجي وقت هـ الشي بيصير فعال وبيأثّر.

لاعب نديم الولدين. كان في طوله بالنسبة إليهما لعبة ضخمة. وجدا بالتأكيد متعة كبيرة في تسلقها. ذهبت إلى الحمام ولما عدت وجدت نبيل يصهل ضاحكاً على كتفي نديم الذي رفعه وثبته حول رقبته. كان رأسه يكاد يلامس السقف وهو يخفق برجليه على صدر نديم شاعراً من هناك بعلوه. أنزل نديم الصبي بنعومة على الكنبة وأبلغنا أنه مغادر. ألحّت هالة عليه ليبقى للغداء لكنه اعتذر وغادر. رافقه الولدان حتى الباب، ومنعتهما هالة من الخروج معه.

بقيت وحدي أفكر باليقظة. هل صحيح أنها محمية من مسؤول في أعلى الهرم. هل هي فعلاً ضحية خلافات بين الزعماء. الشيخ أحمد من هو. الطبيب الذي يحمل لقب شيخ هل يحمل اسماً ثالثاً: عميل أبو كفاح أو أبو فاروق. هل كان صفوان يعلم وهل يعلم أمين وخالد. تجدد حزني على صفوان، هل كان ضحية رشق عشوائي أم أن الرصاصة التي أصابته مقصودة. تذكرت ما كنت سمعته عن صافي ونعمة اللذين جرى تصريفهما بهذه الطريقة. هناك بالتأكيد عشرات تم تصريفهم هكذا. مضى أكثر من عام على مقتل صفوان. الآن نفهم أن الأمر لم يكن بريئاً، كان هناك مكلفاً بقتله، هذا الشخص كان أيضاً مكلفاً بقتل سليم حومد. قبل يومين من الانسحاب الإسرائيلي

تقع هذه المجزرة الصغيرة، هل كان انتشار اليقظة بعد انسحاب المنظمات عفوياً أم مدبراً. هل هناك جماعات منظمة للقيام بعمل انتحاري. هل هناك في رأس الهرم من يريد أن يتحكم حتى بأفعال الجنون، من يريد أن يضع هامش الخطأ تحت إرادته، من يتحسب سلفاً للعشوائيات والفوضى والشطحات المثالية. يريد أن يجعل كل ذلك جزءاً من نظام أعمى، نظام مخيف لا نعرف له رأساً من قدم. لا يفوته شيء لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يستبق شيئاً. معرفته الشاملة لا تفيده ويستنفدها في نزاع رؤوسه ومؤامراتهم.

نزلت صباحاً إلى فناء البناية الأرضي حيث سيارتي. لاحظت على زجاج واجهتها لطخة فأخرجت من جيبي ورقة كلينكس ووقفت أنظفها. لفتني أمام محل الحلاق المواجه للبناية شاب نحيل يلبس نظارتين سميكتي الزجاج ويلبس كنزة جاكيت خضراء على بنطلون أسود وحذاء رياضي، كان وجهه منمشاً وشعره كثيفاً. صعدت إلى سيارتي وقدتها حتى كلية الآداب المبعثرة بين بنايات عدة متجاورة. أوقفت سيارتي ونزلت منها. لاحظت على بعد أمتار شخصاً يدلف بسرعة إلى باب المقهى ويختفي فيه، استطعت أن ألمح خطفاً كنزته الخضراء وبنطلونه الأسود وصفحة وجهه بالنظارتين السميكتي الزجاج. استعدت وأنا على الدرج صورة الشاب النحيل الذي شاهدته أمام الحلاق. نزلت بسرعة وقصدت إلى المقهى. دخلته، كان تقريباً فارغاً و لم أجد سوى تلميذتين متواجهتين حول طاولة. حين عدت إلى البيت. خرجت إلى الشرفة وتطلعت إلى أمام الحلاق، لم أجد أحداً. كان الحلاق أغلق محله وانحسرت الشمس وغمر الظل

المكان. خرجت مرة ثانية إلى الشرفة ومرة ثالثة لكني لم أجد الشاب. هدأت نفسي وجلست في غرفتي أقرأ على مكتبي. في الصباح نزلت إلى سيارتي. تلفتت حولي فخيل إليّ أنّي أرى في سيارة بيجو زرقاء على جنب الطريق ذا الوجه المنمش والنظارتين السميكتي الزجاج والشعر الأشقر الغزير، كان يرتدي هذه المرة جاكيت رمادية. خرجت بسيارتي من الفناء الأرضي و لم أكن بحاجة إلى أن أنظر إلى الخلف لأرى البيجو الزرقاء خلفي. هذه المرة كنت متأكداً من أني مراقب وأن هناك من يلاحقني.

كلمت نائب الأمين العام عن ذلك فنصحني بأن لا أتصرف وأن أترك الموضوع له. قال:

- اترك لي يومين وأنا بجبلك خبر.

بعد ذلك لاحظت أن الشاب فقد احتراسه، صرت أراه أمامي أمام الحلاق أو في الزقاق المقابل. أصعد إلى سيارتي فيصعد هو إلى البيجو الزرقاء، أسير فيسير، نصل معاً إلى الجامعة فيوقف سيارته ويبقى فيها وينتظر إلى أن أصعد إلى المبنى. بعد يومين لم يأتني الخبر، لم يتصل بي نائب الأمين العام. صبرت يوماً واتصلت به فقال لي إنه لم ينسني وإنه اقترب من معرفة شيء، وسيتصل بي بمجرد أن يعرف. مضى أسبوع و لم يفعل في بداية الأسبوع الثاني. يوم الثلاثاء، قالت لي هالة إن نائب الأمين العام على التلفون. سألني:

- شو بعدو عميلحقك؟

- إي بعدو.

- اليوم كمان؟

- اليوم لأ. ما شفتو بعد.
- اليوم لأ. يعني صدقوا وعدوني إنهن يسحبوه.
- شو القصة؟
- ما في شي، هذا الشيخ أحمد مختفي. بدن يكمشوه، عميدوروا عليه، مش عارف منين إجاهن إنو ممكن تكون عمتشوفو، لاحقوك كم يوم وتأكدوا إنك، بيتك وجامعتك، ما عم تروح لمطرح تاني.
- مين العم يلحقوني؟
- هَوْ جماعة أبو كفاح.
- بعلمي إنو حاميهم.
- إيه. بس هيئتو فلت منهن. في شي بينهن مش عارف شو هوي. هلق بدهن يكمشوه ويمكن يصرّفوه.
بالفعل لم أعد أرى الشاب النحيل ذا النظارتين السميكتي الزجاج والوجه المنمش.
كما حسبت أمضى فواز أسبوعين كافيين لأرتّب أموري وأستقرّ تماماً وجاء لزيارتي. هذا فواز الذي أعرفه، لا يستعجل شيئاً. أتى صباحاً، في التاسعة كان على الباب. كان شعره يخف بسرعة وقشرة الرأس تملأ ياقته وصدر الجاكيت الضيقة التي ارتداها. كانت إحدى المرات القليلة التي أراه فيها يرتدي طقماً. جاء حاملاً في علبة بلاستيك مغلقة قدراً من الفول المدمس الذي اشتهرت به المدينة، قال إنه جاء ليفطر معنا. كنت أعرف أنه بين أصدقائي الأقرب إلى هالة والولدين اللذين ملآ البيت ضجة لحضوره، نزلت إلى المحل المقابل واشتريت بضع مناقيش زعتر وجبنة، جلسنا نأكل. سألته:

- شو عميصير. مش فاهم شي.

رويت لفواز قصة مطاردتي. قال إنه تعرّض للشيء ذاته. لكن المدينة صغيرة ولا مجال فيها للملاحقة، قال:

- المدينة. بتقطعها بتلت ساعة. لقيت واحد ناطرني براس الشارع، مشيت مشي ورابي، وصلت عَ البيت وقف بعيد. كان متقصد شوفو. بدو يخوفني بس. تاني يوم دقوا عَ الباب تنين. قالوا إنو كايد ناطرني بكرا الساعة عشرة بمركز القيادة. رحت. أول ما سألني كيفك إنت والشيخ أحمد. قلتلو من سنتين ما شفتو، مش عارف وينو. حابب شوفو. إذا فيك تدلني عليه بكون ممنون. ضحك وقاللي إنت دلنا عليه. رجعت عَ البيت. كانوا كامشين قبلها أمين، انشا الله ما يكونوا صرّفوه. وقت السلاح بيلعب، ما في جزا أقل من الموت، القتل هو القصاص الوحيد. إذا أنت مش فاهم شي. أنا كمان مش فاهم.

كان فواز ترك الحزب في الفترة التي انتميت إليه فيها، كنت أعتمد كثيراً على وجوده لكنه فاجأني بتركه. لم أحاول أن أثنيه فأنا أعرف أنه لن يرجع عن قراره. أمضيت معه أياماً في المتين حيث كان مسؤولاً عسكرياً في حين أنني أقوم بسياحة حزبية. كان شجاعاً وقادراً وصاحب هيبة على الرفاق الذين بدأ السلاح يغرهم ويقلب مقاييسهم، وبالطبع كان متفانياً في عمله. لكني حين أعلمته بأني أريد الانتماء إلى الحزب، أعلن لي أنه يفكر بتركه. سيتركه بالتأكيد ولن يحضر مؤتمر المنطقية القادم وسيكون سعيداً بدخولي إلى الحزب. لم يقل لي لماذا يترك الحزب و لم يقله لأحد. غادر الحزب وكأنه أنهى مدة

خدمته وتقاعد أو تخرّج. خرج من الحزب و لم يعد مرة للسؤال عنه، كأنه لم يكن فيه، كأنه مسرّح منه، لا كلمة لا اعتراض، لا سؤال. يزورني مرة كل يومين ويقضي ساعات معي ومع هالة، نتكلم في السياسة لكنه لا يتكلم عن الحزب ولا يكترث لأي من شؤونه. كان في الحزب منذ مراهقته وشبّ فيه لكنه غادره بدون أن يترك له أي ذكرى أو أي أثر، كأنها لم تكن حياة تلك التي أمضاها فيه. هذا يثير تعجبي لكنه يخيفني أيضاً. لا بد أنه قنوط هائل، هذا الذي جعل فواز يترك بدون أن يلتفت مرة إلى الخلف. لا بد أنها جوفاء تلك الحياة التي أمضاها فيه بحيث لم يجد فيها ما يحمله، على الأقل، للذكرى. كان محاطاً بالشيوعيين الذين ظلوا أصدقاءه بدون أن يتبادل معهم أي كلمة عن الحزب الذي أعطاه عمره. يخيفني أن أكون أنا في المضيق نفسه، أن لا تكون هذه المتوالية من الاجتماعات وقراءة الجريدة وحضور المناسبات الحزبية حياة وأن نخرج منها صفر اليدين ليس لدينا حتى ما نتذكره. يخيفني أكثر أن يكون الحزب الذي وظفت فيه كل وجودي ليس أكثر من حائط متداع، أن لا يكون بالفعل حقيقياً. حين دخلت إلى الحزب اكتشفت أنه منذ أشهر لم يشهد اجتماعاً واحداً. تكفلت بالدعوة إلى اجتماعات وفي وقت قصير انتظمت الدورة الحزبية، بقليل من الجهد عاد الانضباط الحزبي، أعدنا له الروح بجهد قليل. فكرت أنا أن التربة صالحة والمهم البناؤون. لم يخطر لي أن كل هذا قد يكون هراء، أن الدورة الحزبية قد تكون طحناً في الفراغ، أن الاجتماعات قد تكون شعائرية وليست أكثر من طقس أسبوعي. يخيفني أن لا يكون الحزب سوى وهم، وكل

هذا الكلام عن الوعي والصراع وحتى عن التاريخ لا يساوي شيئاً، ثرثرة فحسب. لست مستعداً للخروج من الحزب لكني لا أعرف ما الذي استنزف فواز إلى هذا الحد، ما الذي قتل الحزب فيه. أنا لست مستعداً للخروج من الحزب، لا أعرف كيف أكون موجوداً بدونه. ما أخافه أن لا يكون هو موجوداً.

أول مرة قابلت فيها الحزب، لا تتعجبوا فلا شيء يدعونا لنكون حزبيين أقل من مقابلة شخصية، لا بد أن نجد فيه صديقاً أو قريباً. كانت الفتاة الشقراء الخضراء العينين التي وجدتها في الصف تبدو وكأنها جاءت إليه من بعيد، حين قلت هذه الملاحظة، أمّن عليها تلميذ قائلاً لي إن هذا صحيح فأبوها شيوعي. ربما كان يقصد أن عندها لذلك سحنة روسية. لم أكن لعوباً لكني سألتها إذا كان والدها حقاً شيوعي، فار الدم في وجهها و لم تجب فوراً ولأسهّل عليها الأمر قلت لها إن أبي أيضاً شيوعي. لم أستفد من هذا التحرش إلاّ أنها لعبت مع الجميع عداي. المقابلة الثانية كانت مع فتى يكبرني بقليل ظهر فجأة في السوق وبدا يوزع مناشير بسرعة وبخطى عجولة، كنت في أول السوق عندما لاحظت حركته. لا أعرف بماذا شعر حتى بدأ يركض وعندما صار بمحاذاتي رمى المناشير في وجهي وأكمل ركضه، وصل إليّ واحد انحنى والتقط عن الأرض منشوراً ورفعه إلى عينيه وبدا يقرأ، لمحت كلمة "ريجي" في رأس المنشور. كان رجلاً قصيراً جمع المناشير عن الأرض وسألني إذا كنت أعرف الفتى قلت لا فنظر إليّ بشكّ وقال "هذا شيوعي" وحمل رزمة المناشير وسواها بعضها على بعض وأدخلها في مغلف بيده وتركني وهو يكرر "شيوعي،

شيوعي". أكملت طريقي وفوجئت بالفتى ينفد من إحدى عطفات السوق ويقف قبالتي ويسألني "شو لمّ المناشير" وسألته "مين" وأجاب بلا اكتراث "مين... المخبر، في غيرو". التقطت كلمة "المخبر" التي بالإضافة إلى كلمة "شيوعي" كانت بالنسبة لي لغزاً. لم أسأل أبي من هو الشيوعي، كنت أشعر أن مسألة كهذه بعيدة عن العائلة. أتوقع أن يجيبني بأنه الكافر، كلمة كهذه طرقت سمعي مراراً وبالقدر الذي تأكدت معه أنها ليست كافية.

لم تبقَ الكلمة بعيدة عن العائلة. صارت في وسطها. ابن عمي جورج وهذا اسمه الحقيقي، سماه عمي على اسم زعيم شيوعي مجلٍ، صار شيوعياً. عمي سمى أيضاً غاندي وفيديل وأمية. عمي أبو جورج اشتغل بالنقابات مع الشيوعيين لكنه لم يكن شيوعياً. كان اسمه أبو جورج وهو يصلي مع ذلك ويصوم ويؤدي الفرائض كلها. جورج أول شيوعي في العائلة، جرّ إخوته معه وأخواته أيضاً. ورغم أن أبو جورج عاد من مكة حاجاً فإن البيت انشمس واعتبر مستعمرة للشيوعيين. جورج كان هو الشيوعي يتكلم كشيوعي ويلبس كشيوعي ويستعمل يديه كشيوعي ويهجر البيت كشيوعي ويعود إليه كشيوعي ويحب ويجامع كشيوعي. كانت ضخامته وقوته العضلية تليقان به كشيوعي وتفلحان في التصدي لكاسري الإضرابات. كان "قبضاياً" مشهوداً له في المدينة، هذا ما جعله أحد "أسياد" الحزب لكنه، فضلاً عن معشره الحزبي، كان يحب مخالطة القبضايات ويتصرف حتى داخل الحزب كقبضاي. يستشيط غضباً بسهولة، ولأي طارئ، ويحكّم ذراعه لدى أقل خلاف، ولا يكترث

إذا كان الآخر رفيقاً. يؤنب زوجته بأعلى صوت، ويقال إنه أحياناً يمدّ يده إليها. كانت الحرب فرصة جورج ليرتقي في الحزب، سافر في أول دفعة أرسلت إلى الاتحاد السوفياتي للتأهيل العسكري، عاد من هناك مسؤولاً عسكرياً. جسده الكبير لكن المصبوب كتمثال برونز كان لائقاً جداً في الثياب العسكرية وهو، المعتد جداً بها، كان ينظر من فوق كتفه بنظرة مشبعة بالكبرياء والتنازل معاً، ويرشق الآخرين بابتسامة طيارة فيها سحر نعسان لا يتناسب مع ضخامته الجسدية. بالطبع بدّل اسمه من جورج إلى "أبو الجبل". و"أبو الجبل" زرع نجمة حمراء على كتفيه ومنجلاً ومطرقة على صدره. وكاستراتيجي معتبر فرش مكتبه بالخرائط التي كان بمجرد دخول شخص يتظاهر بالتمعن فيها. صارت له سمعة في أوساط الحزب كعبقرية عسكرية إلى أن نظم حملة لاحتلال بسوس التي كانت في الوادي تحت القماطية التي تمركز فيها الحزب. قاد الحملة من مكتبه والنتيجة أن المهاجمين علقوا في تحصينات بسوس، حصدتهم نيران المدافعين وتركوا على أرض القرية 11 قتيلاً. توجب عليّ أن أبلغ أهل أحدهم بمقتله وذهبت برفقة اثنين من الرفاق إلى بيته، وجدنا الأخ مريضاً راقداً في فراشه لكنه تناول الكلاشنكوف ونهض من فراشه وأطلق رشقاً في الجوّ. بعد هذه الحادثة لم يبقَ لجورج مكان في البلد فتسلل إلى البرازيل واختفى هناك.

غادر جورج لكن عائلته زادت تشبثاً بالحزب. أصبحت العائلة من بيوت الحزب ومن منازله، الإخوة والأخوات رفاق بالجملة. لم يبقَ بيتنا بعيداً، بدأت المسألة مع مني. لاحظت أن أختي التي تصغرني

بعام بدأت تحضر إلى فراشها كراسات لتعليم الماركسية وتنساها أحياناً في الفراش. كنت أرى على وجه اللحاف "**المادية الجدلية**". ثم صرنا نرى جريدة الحزب في البيت، وتسرّب إلينا أن منى تحضر اجتماعات للحزب وأنها ترشّحت باسم الحزب في انتخابات اتحاد الجامعة. لم تسرّ هذه الأخبار والدي المتديّن لكن منى قالت إن حريتها ملكها فتراجع والدي الذي لم يتوقع أن تواجهه ابنته بحريتها. كان هذا بالنسبة له أشبه بانفصال عن العائلة فضّل أن يتجمّل عليه بالصبر. اجتذبت منى ليلى وسميرة اختيها وشكلت الثلاثة نوعاً من خلية للحزب ضمن العائلة. لكن نشاط الثلاثة الحزبي جعل البيت بكامله مدموغاً بالحزب، كان يوشك أن يصير أحد بيوته. لم تجد منى صعوبة في اجتذاب حسين الذي كان منذ طفولته يلحق بها في كل شيء، وجد فيها من ولادته أمّاً صغيرة. كانت الخالة الحاجة في مرضها الأخير، وأمّي التي اعتادت أن تترك الأمور لها لم تستطع أن تستدرك ما فاتها منذ البداية. قامت منى الأثيرة جداً للخالة الحاجة عنها بالتزاماتها تجاه الولدين الأخيرين التي لم تسعفها صحتها على العناية بهما، كانت منى تقريباً خالة حاجة صغيرة. تشربت في الحقيقة طباعها ومزاجها ونبرتها وما ألاحظه بقدر من التعجب هو أنها كلما كبرت صارت أشبه بها، حتى جسدياً، كأنها ولدت منها.

بقي كمال وبقيت أنا خارج الحزب. أما كمال الذي حلّ محلّ أبي في محله فهو من صغره أشبه بأبيه. في طفولته كان يوفر مصروفه لدى الخالة الحاجة، وحين يتجمّع من ذلك مبلغ يشتري به أغراضاً صغيرة يبيعها لنا ولأولاد عمّه. ولما صار مراهقاً عصي على الذهاب

إلى المدرسة وصار يلازم المحل. وجد فيه والدي معاوناً حقيقياً فاتكل عليه، وصار مع الوقت يزيد في اتكاله عليه ويزيد من تبعاته، بحيث صار المحل تقريباً في يده. أما أنا فتأخرت عن الالتحاق بالحزب، كنت أجد أعضاءه أغراراً وقليلي ثقافة وأتعجب من جهلهم بالماركسية نفسها. أجد نفسي أهم منهم وأجدهم عاميين ورديئي الذوق حتى في ملابسهم، ولا أتنازل بسهولة لمعاشرتهم. حين سافرت إلى فرنسا انتميت فوراً إلى الحزب الشيوعي. ورجعت من هناك شيوعياً. كان الحزب هناك لائقاً وليس فيه ما يثير خجلي. صرت في فرنسا شيوعياً نشيطاً وصارت لي صداقات مع أساتذتي الشيوعيين ومع وجوه الحزب. تأخرت عن الانضواء في الحزب لكن هذا بات حجر حياتي. منذ تلك اللحظة صار الحزب كل دنياي، صار نافذتي وميزاني وعمود وجودي.

* * *

أنزل إلى الفناء الأرضي فأجد على الطريق اثنين، أحدهما طويل مقوس الحاجبين بشعر أسود وشاربين رفيعين ويرتدي سترة كحلية على بنطلون أسود والسترة مجعلكة فيما البنطلون أجرب اللون مما يجعلهما بوضوح غير متناسبين، أما الثاني فأقصر منه ورغم صلعته يبدو أفتى وأفضل هنداماً. لست متأكداً من أنني لاحظت أحدهما (الأقصر) يشير إليّ، قد أكون توهمته. وجدت الاثنين في الغد في المكان نفسه تقريباً، هذه المرة بادر الأطول إلى تحيتي ورددت التحية بشيء من التحفظ فقد كانت حادثة ملاحقتي من قبل جماعة أبو

كفاح لا تزال طرية في ذاكرتي. ما زادني توجساً هو أنني لاحظت أن شخصاً يشبه الأطول مرّ قربي في الجامعة، كان هذه المرة أفضل هنداماً لكنني شككت في أنه هو. التقيت بالأقصر في سوبر ماركت وحاولت أن أردّ الأمر إلى الصدفة لكن هذا لم ينزع قلقي. صرت أشك في أني أتوهَّم، في أن ذاكرتي تخرج هذين الشخصين وتضعهما أمامي. كان الاثنان يغيران هندامهما وحتى ملامحهما. خيّل إليّ أن شارب الأطول أسمك مما رأيته بعد ذلك وأن صلعة الأقصر أوسع، فقد لاحظت في المرات الثانية أن ثمة خصلة خفيفة في مقدمتها. جعلني هذا أتصل بنائب الأمين العام الذي جاوب بعد يومين بأنه راجع جماعة أبو كفاح وجاوبوه بأنهم أوقفوا، منذ ذلك الحين، ملاحقتي.

مضى يومان لم أصادفهما فيه، ارتحت وتوقفت عن التفكير في المسألة. صباح أول أيار، كان يوم عطلة وبقيت في منزلي، رنّ جرس الباب وسمعته وأنا في مكتبي. بعد قليل جاءت هالة وقالت إن هناك واحداً يسأل عني. خرجت إلى الصالون فوجدت الأطول في بابه. حيّاني من بعيد مع ابتسامة كبيرة، كان يريد أن يقول إنه صديق. ذهبت وسلمت عليه وهو في الباب. قال:

– بقدر فوت.

دعوته إلى الدخول، كان هذه المرة يرتدي جاكيت جلدية بنية وبنطلون جنز أزرق غامقاً. جلس على كنبة مفردة وجلست على كنبة طويلة فقام وجلس إلى جانبي، تكلم بصوت منخفض غصّ بالكلام فكحّ واستعاد صوته. قال:

– أنا جايي من يمّ الشيخ أحمد. أظن بتعرفو.

كنت لا أزال محترساً وذكرى ملاحقتي عادت إليّ:

- لأ ما بعرفو.

بدا مرتبكاً لم يستطع أن يتجاوز سوء التفاهم الذي حلّ بيننا. تأتأ وقال أخيراً بلهجة تشبه التوسّل:

- شو، شو، شو بدي قلك، صدّق أنا جايي من يمّو. جايبلك مكتوب منو.

لم أكن أعرف خط الشيخ أحمد. قد يكون هذا فخّاً. وإذا لم يكن ماذا أستطيع أن أفعل. قلت وكأني أقتلع الكلام اقتلاعاً:

- ما بعرفو، وما بدي شوف المكتوب. خليلك ياه.

صفن وبدا لهنيهة وكأنه غاب عني. ارتفعت يده إلى شاربه. مسح عليه بأصابعه ثم كأنما انتبه:

- الشيخ أحمد بضيقة، طالب إنو يشوفك، اقرا المكتوب بالأول.

- ما بدي إقرا شي. مين هوي الشيخ أحمد. حدا باعتك لعندي؟

- أنا جيت من حالي، صار لي جمعتين عمدوّر. جمعتين حتى استهديتلك. الشيخ أحمد متخبي. عندو شي بدو يقلّك ياه، هوي طلب يشوفك. من بين كل الناس بدو يشوفك إنت.

قررت أن أعاند إلى الأخير. كان شكّي بالرجل يتضاءل، لكني لم أنسَ ملاحقة جماعة أبو كفاح، من الأفضل أن أخرج من المسألة كلها. ماذا أستطيع أن أفعل، لا شيء سوى أن أرمي بنفسي في النار. التفتّ إليه:

- اسمع يا أخ...

- مازن.

– يا أخ مازن اسمع. إذا صاحبك بضيقة أنا ما فيي إعملّو شي. هذا شغل عصابات وأنا مش قدرتو. يكون بعلمك إني مراقب. من يومين كانوا عم يلاحقوني وأنا مش أكيد إنن بطّلوا. إذا ظهرنا سوا في احتمال قوي إنن يلحقونا. هيك بنكون وصّلناهم بأيدينا.

كان كلامي مقنعاً حتى كدت أنا أصدّقه. سكت الرجل وعاد يحكّ شاربه. غاب مجدداً عن المكان وعني. ولما رجع إلى نفسه بدا مستسلماً.

– طيّب. خوذ المكتوب. أنا بردّ خبر عليك بيومين. عطيني نمرة التلفون وأنا بتلفنلك.

لما خرج، عجلت إلى فتح رسالة الشيخ أحمد. كانت مطابقة لكلام مازن.

"أخي صلاح

تحية وبعد...

أنا في ضائقة كبيرة. لا أبالغ إذا قلت إنني في خطر. هناك أشياء مهمة للغاية أريد أن أنقلها إليك. أشياء يجب أن تعلم بها، وأنا سأكون مرتاحاً إذا أودعتها عند شخص أمين مثلك. سيأتي يوم يعلم بها الجميع. أنا مهدد، أظن أنهم لن يرحموني. قتلوا صفوان وخطفوا أمين ولن يكون جزائي أقل من القتل. لا يريدوننا أحراراً ولا يريدون عقولنا حرة ومنفتحة، إنهم يخدمون الظلام. تذكر يا أخي حينما قلت لك إن الدين لا يعارض العدل. هؤلاء يريدون ديناً لا يعارض العدل فقط بل يخدم الاستبداد ويؤله بشراً فانين. لا تحرمني من رؤيتك، أريد أن ألتقيك في أسرع وقت، عجل إلى زيارتي. مازن مخلص اعتمد عليه وهو يوصلك إليّ".

اتّصلت بنائب الأمين العام وقلت له أشك في أني مراقب. كلمني في اليوم الثاني وقال لي إنه راجع جماعة أبو كفاح وأكدوا له أنهم رفعوا الرقابة عني، لكن هذا لم يطمئني. رسالة مازن أثارت خوفي، إنه في خطر وليس من المستحسن أن أدسّ نفسي في مشاكل ليست لي ولا أعرف نهاياتها. يجوز أنني هكذا أرمي بنفسي في الخطر أو أنجرّ إليه، أفضل لي أن أحترس وأن أبتعد. سيطر عليّ وسواس بلبل حياتي. لم أخرج منه إلا بأن قررت أن أبتعد. كنت مصمماً على ذلك حين تلفن لي مازن. قلت له إن من الأفضل أن نتقابل فأنا أتخوف من التلفون. جاءني صباح اليوم التالي، لاحظت أنه قصّر شاربه وارتدى طقم سهاريان أزرق، قلت له:

– أنا مراقب ويمكن إنت مراقب. إذا رحنا، في احتمال يلحقونا، أحسن نستنّى كم يوم.

كنت أعرف أني أتحايل، ليست المراقبة سوى ذريعة. أنا باختصار خائف وخوفي يركب عقلي ونفسي ويبتلع إرادتي. مضى الوقت الذي كنت أستحي فيه بخوفي، أنا إنسان أكثر عندما أخاف. لكن هناك شخصاً آخر يناديني، لا أعرف ماذا أستطيع أن أفعل له. لا نسأل شخصاً مهدداً بالموت عن أسبابه. لا نستطيع أن نهمل رغبة قد تكون الأخيرة.

في داخلي بدأت أغضب من الشيخ أحمد، إنه يختارني أنا البعيد ليسلمني السر الذي قد يؤدي إلى قتله. بالكاد يعرفني، مع ذلك يورطني في هذه المسألة. من بين الجميع يحمّلني سرّه، لماذا يحمّلني أنا هذه التبعة. أنا الذي لا يستطيع أن يبعد عنه أي شيء، لماذا يقحمني

في أمر قد لا يكون سوى موته. يناديني ولا أستطيع شيئاً، لست أختلف عنه من هذه الناحية، أنا عاجز مثله فما الجدوى من مناداتي. ألا يعذب أن نسمع هذا النداء ولا نستطيع شيئاً.

لم يحاول مازن أن يقنعني. الذين يتربون في المنظمات الفلسطينية يملكون تخوفاً مقيماً من الأرصاد، هذه حجة لا يستطيعون دحضها. تركني وذهب. أنا الذي بقيت ساعة أفكر، ذهبت إلى المطبخ وضعت قهوة وجلست أشرب، أزحت المسألة عن قلبي، استرخيت.

حين مرّ عليّ مازن بعد يومين قلت له، هذه المرة، بصرامة:

– أحسن ما نتحرك، ما نروح ولا نجي، أكيد نحنا مراقبين. إذا رحنالو بنضرّو. أنا شو فيي اعملّو. بدها وقت.

لم يحاول مازن أن يثنيني عن رأيي. سمعه فقط وانتظر حتى شرب قهوته، وخرج. كانت هذه المرة الأخيرة التي أراه فيها.

بعد ثلاثة أيام كان خبر مقتل الشيخ أحمد في صحف الصباح مع صورته ميتاً. خدش في الوجه وتورّم في العين اليمنى وبيجاما صينية ومشاية قديمة. كان حنكه الصلب متيبساً وذقنه مجروحة والرصاصة التي اخترقت قلبه تركت ثقباً في البيجاما ونقطة دم. كان هناك ثلاثة ثقوب في الضهر وكثير من الدماء على الأرض. تقول جريدة المشير إن الجثة وجدت في خراج قرية "الشيخ علي" الحدودية في عكار. تطلعت في الصورة، شعرت بأنها تنظر إليّ. التورم والخدوش طمست الملامح، لم يعد هناك شيء من العينين النفاذتين، مع ذلك شعرت بأن الصورة تنظر إليّ. لمعت في رأسي عبارة من رسالته "لا تحرمني من رؤيتك"، استمرت تعبر رأسي حتى أخرستها. حاولت أن أرقّد الشعور بالذنب،

نحجت في طمره لكني لم أدفنه تماماً، ظللت أحسُّ به تحت الركام، لم تستطع الحجج الوجيهة أن تنفيه، كنت أشعر به كجرح في الفكر.

اتصلت بنائب الأمين العام لأفهم منه ماذا جرى فطلب مني أن "أعطيه يومين". بعد يومين ذهبت للقائه في مكتب الحزب. كان يرتدي طقماً ذا تشكيلة من الأزرق والبني، لون مبتكر. أناقته لم تتأثر بسنه. جلسنا في غرفة المكتب فبادرني:

– على شو مهتم، هاي قصة صعبة ومعقدة أحسن تنساها، عم تغمّق لتوصل لشي. لوين بدك توصل. أحسن تطلع منها.

حين قلت له إني أريد أن أفهم لأحترس ولكيلا أنجرّ وأرتكب أغلاطاً. ارتاح وقال:

– عنا أكتر من احتمال. أبو كفاح اللي كان متبنيهن وانقلب عليهن. بس أبو كفاح، لعلمك، من بلد الشيخ أحمد وكان عم يفتش عليه ليحميه. أبو كفاح احتمال بعيد، بيبقى احتمالين. شباب اليقظة اشتغلوا بعكّار مع جماعة الاجتهاد، فاتوا من بابن. ما سألوا الشيخ أحمد، بس في ناس اعتبروه مسؤول ويمكن جازوه على هـَ المسألي. احتمال تاني في جماعات إسلامية حرفية كفرتو واعتبرتو مرتد، يمكن يكونوا أقاموا الحدّ عليه.

– طيب ليش بعتلي مازن وليش المكتوب؟

– مازن يمكن يكون عميل لجهة من هـَ الجهات. المكتوب أكيد مزوّر. كان بدن ياك تروح معو لعند الشيخ أحمد ولمن توصل تلاقيه مقتول. ساعتها بحطوها بظهرك وبظهر الحزب. بس منيح إنك ما وافقت.

"المكتوب أكيد مزوّر"، هكذا قال نائب الأمين العام. هذا الكلام الذي سمعته في داخلي بصوت الشيخ أحمد، الذي بدا نداء رجل خائف وملهوف، الذي كان رسالة لي وللآخرين، مزوّر ومجرد تقليد. إذن لم نسمع صوت الشيخ أحمد، لم نسمع كلامه، لقد انتهى بدون أن يتكلم. هذه الرسالة لا تساوي شيئاً. "لا تحرمني من رؤيتك" كتبها شخص وهو يسخر. هذه العبارة التي عذبتني كانت سخرية مني ومن الشيخ أحمد. الرسالة التي حسبتها خلاصة الشيخ أحمد، وصيته الأخيرة، كتبها، قتلته. كان هذا سبباً ليخطر لي أن كل شيء تزوير. حتى مقتل الشيخ أحمد، حتى "اليقظة" قد يكونان تزويراً، المنظمات والأحزاب قد لا تكون شيئاً آخر. تزوير نعم تزوير لغوي أو لا. هذا الكلام الذي نسمعه يتشابه إلى حد التقليد، حد التزوير. إنها الأيديولوجيا لكن للحزب أيضاً جهازه الأيديولوجي، إنه يبرر مواقف وعلاقات بلغة سائدة، لغة ليست علماً، لكنها تدعي العلمية، أليس في هذا تزوير وتقليد. أحياناً أقول لنفسي في شطحاتي العدمية والصوفية أن الواقع ما هو إلا رسوم، الواقع نفسه قد يكون مزوّراً. أحمل رسالة الشيخ أحمد وأقرأها الآن قراءة جديدة، أفرز الكذب الذي فيها. أعتبر أنّ الكلام يكون أكثر كذباً كلما كان أكثر مغالاة. تغدو الجمل العاطفية هي الأكثر كذباً. لكن الذين كتبوا هم الذين قتلوه، كانو يعرفون أكثر أنه مقتول اليوم أو غداً، ربما كان هذا هو كل الحقيقة في الرسالة. حين يقول "أنا مهدد"، يعرف القاتل الذي يكتب أنه فعلاً مهدّد. هذه هي الحقيقة.

نديم السيّد

صلاح حزين لمقتل الشيخ أحمد وكذلك فواز، يظنان أن هناك أملاً انطوى معه، يظنان أنه جوزي على مثاليته، أخشى أنهما يبالغان. المثاليون يجازون بالخيبة، باليأس، لا بالقتل، إنهم ينتحرون ولا يُقتلون. تصريف شخص يتطلب أن يكون هناك شيء رحل معه: سرّ أو خيانة أو جناية أو حتى انتهاء مهمة أو دور. المثالية لا تكون مع السلاح والحواجز والتنظيم. السلاح يستتبع أن نعرف من أين نأتي به، ولقاء أي شيء نحصل عليه، كما يستدعي دوراً ضمن منظومة علاقات لا تكفي فيها النية ولا الإرادة الخاصة. السلاح يؤدي دوراً داخل شبكة توازنات لا يتعلق بإرادة حامله. وبالطبع فإن من يوفرون السلاح أو يسمحون به أقدر على تحديد دوره. أنهم يفعلون ذلك لحاجة قد تخفى على حامل السلاح الذي لا يشك لحظة في أنهم يتلاعبون به ويظن غالباً أن حمل السلاح كافٍ ليحرر إرادته. لا يشك في أن حمل السلاح يزيدها إذعاناً بل إنه حرّ أكثر بكثير قبل حمله. التنظيمات الصغيرة كـ"اليقظة" تظن أنها لصغرها أسرع

وأخف حركة، لكنها في الحقيقة مكبلة تماماً في قاع علاقات يتحكم بها الكبار. لا أعرف شيئاً عن الشيخ أحمد لكنني لا أصدق أنه مثالي. أظن أن صلاح وفواز هما المثاليان. صلاح بشكل خاص هو المثالي. إنه يرقد في قاع الحزب خائفاً من أن تظهر له الحقيقة، خائفاً من أن يغلبه حدسه، من أن تتأكد ظنونه. أكثر ما أستغربه منه هو الطاعة، إنه يطيع أشخاصاً في القيادة يعرف أنه يتفوق عليهم. يطيع ويخاف ألا يطيع. يخاف أن يفقد أباً لمجرد عدم طاعته، يطيع ليبقى الآخر أباً، لكي لا ينزل عن أبوته، يريده أباً ويريد نفسه ابناً والطاعة شرط ذلك وقانونه. لم يكن أبو صلاح أبوه فحسب، كان أيضاً سيده. لم يتأكد من أبوته، كان يركض إلى طاعته ليتأكد لكن الأب قلما يطلب منه شيئاً، لذا كان مجرد الطلب يملؤه سروراً. حين يطلب الأب فذلك يعني أنه يراه، حين لا يطلب فهذا يعني أنه لا يرمقه بنظرة. كان الحزب بديلاً له لذا كان متأهباً دائماً ليسمع أمره ولا يهمه من ينطق بالأمر. الحزب هو الذي يراه وهو الذي يطلب منه وهو يطيع أياً كان الذي يأمر. الأشخاص كان يحسن تقديرهم كأشخاص، يعرف قدراتهم وثقافتهم وأخلاقهم، يعرف قيمتهم الحقيقية لكن بمجرد أن يتكلموا باسم الحزب فإن عليه عندئذ أن يسمع ويطيع.

كان جدي أباً طيباً، ليس لأولاده فحسب بل للعائلة كلها، وربما للضيعة بكاملها. من يتزوجون تصلهم النقوط في دورهم، من ينجبون تلحقهم الهدايا إلى بيوتهم من يتوفون يتغدى أهلهم وزوارهم من خير الحاج. هدايا الحاج ونقوطه تسبقه إلى البيوت، لكن الحاج لا يحضر عرساً ولا ولادة ولا وفاة. من يحملون عطاياه

ينقلون عنه كلمة طيبة، تهنئة أو مواساة لكنه لا يحضر. كان الجميع تقريباً يعملون في حقوله الواسعة. في الصباح يبكر الحاج إلى خيمة على مرتفع. هناك يجد نظارتيه وقرآنه وفراشاً لراحته. يضطجع في الفراش ووجهه إلى الحقل. يتمدد متجلبباً بعباءته ويضع نظارتيه على عينيه ويمرّ الجميع من أمامه في طريقهم إلى الحقول نساءً ورجالاً وفي أيديهم أدواتهم. يحيونه واحداً واحداً:

- السلام عليكم يا عمي الحاج.

وجدّي لا يردّ بل يحرّك يده داخل عباءته مجيباً فلا يراه أحد يردّ التحية. يجزم بعض الذين عاصروا جدّي بأنهم لم يسمعوا صوته، كان يأمر وينهى كما يحيي ويعطي، بدون صوت. لكنه كان أب القرية وبالطبع كان الجميع ينتظرون منه أن يأمر ليعجلوا إلى الاستجابة لأمره، ومن كان يأمره بحواجبه أو عينيه أو يده بأن يرفع شيئاً أو يحمل شيئاً، كان يفاخر بذلك ويغتبط ويشعر بالاكتفاء لأن الأب الشيخ أتاح له أن يبادر لإطاعته. لا أعرف ماذا كان جدي يفكر، لماذا كان يكتفي بهيبته ولا يحتاج إلاّ عند الضرورة إلى أن يقرنها بصوته، لماذا كان يردّ السلام من داخل عباءته. الغريب أنني منذ كنت طفلاً وهم يشبهونني بجدّي، يقال إن لي حاجبيه وعينيه وقامته وصوته. لكنني أتكلم كثيراً ولا أشعر كجدّي بأني أخسر قوة حين أتكلم.

جدّي ترك من زوجتيه أولاداً كثيرين. أبي حسين لم يكن بكره. الحاج محمد كان بكره وبعده أبي ثم عمتي افتخار ثم عبد السلام وعبد الأمير وعدنان ومحاسن وفاطمة. كانوا كثراً إذا تذكرنا أن عدداً من الأبناء ماتوا في طفولتهم. كانوا كثراً لكنهم في مجموعهم لم يملكوا

هيبة الحاج. كانوا جميعهم يتكلمون ويتكلمون أكثر من العادة بل إن كبيرهم الحاج محمد لا يكفّ عن الكلام حتى قيل إنه يتكلم في نومه.

حين عُيّن أبي معلّماً اعتبر الناس واعتبر هو أن هذا من حظه، فقد كان ابن الحاج وعيّن بسلطة أبيه ومكانته معلّماً. لم يكن سواه معلّم في الضيعة (العنابية) التي تتوسع وتكاد تصير بلدة، لذا صار معلم البلدة كما أن أباه صاحب البلدة. هذا يعني أن سلطانه لم يكن على الأبناء وحدهم، بل هو أيضاً على آبائهم، كما هو على الحقول والماشية. لكن الوضع تغيّر فقد قدم إلى البلد معلم جديد، كان ابن قرية مجاورة ثم صار المعلمون أربعة وخمسة وصادف أن أحدهم كان ابن فلاح في البلدة ذاتها تعلّم على يدي أبي وصار زميله. لم يعد أبي معلم البلدة، صار واحداً من معلميها. صحيح أنه بات بحكم الأقدمية مدير المدرسة لكن الواضح أنه في حضيض الدولة وفي أسفل درجاتها، يتحكم به المفتش وفوق المفتش هرم من المسؤولين. لم يكن أمره أهم من أمر الدركي الذي يقوم ويقعد في بيت الحاج. بل لم يكن أهم من أمر شقيقه عبد الأمير الذي لم ينجح في الدراسة فاستمر يشرف على أرض أبيه. بعد ذلك تبين أن الأرض التي كانت في طريقها إلى البوار تغلّ أفضل ما يغل التعليم. كان عبد الأمير يذهب مع المزارعين ولا يستعرضهم كما يفعل أبوه، وفي أحيان يحمل عن أحدهم معولاً أو رفشاً. اختلط بهم بحيث لم يكن له مقام أرفع بينهم إلا أنه ابن الحاج. أما الحاج محمد فأخذ عن أبيه لقب الحاج كما ورث عنه مقامه. بيته مقصد الدرك والمرشحين للانتخابات النيابية ومساحي الأرض لكنه ثرثار ليس لصمته وكلامه الوقع الذي لكلمة أبيه أو سكوته. كان

الناس يقارنون بين الاثنين الأب الذي لم يعرفوا عنه شيئاً لكونه ضنيناً بكلامه ولا يخبر عن نفسه، في نظرهم أوزن بكثير من ابنه الذي كان كل ما يخصه، وحتى حياته الأسرية، مكشوفاً للناس لأنه، يطلق لسانه بكل شيء. عدنان الأصغر والأجمل هو الألمع بين إخوته لأنه الضابط، شبابه ووسامته وحتى طرافته ومرحه تخدم نجوميته، بحيث إن الصبايا يتنهدنَ لدى مروره وبحيث إن أجملهن يتهافتنَ عليه. كانت له غرامياته السرية التي يتهامسون بها في الضيعة، لكنه منذ تزوج بنت أحد أثرياء المدينة انقطع لها ولبيته وتحول الافتتان به إلى نوع من الهيبة التي تذكر بهيبة والده وشبهه الغريب به يعززها. عبد السلام توظف في بيروت في المالية. كانت وظيفته مهمة لكنه تزوّج من العاصمة وانقطع تقريباً عن العنابية، يصعد إليها في الأعياد وفي المناسبات الملزمة كوفاة والدته. كانت حياة عبد السلام حياة موظف في دائرة حيوية وبالطبع فوجئ في أول عهده بأن كل ورقة تخرج من دائرته تكلف المواطن مبلغاً مرقوماً. ثار في البداية لكنه سرعان ما سلّم وصار يعنى بأن يتأكد من المبلغ لكنه مع ذلك يعفي منه أبناء بلدته وجوارها. هؤلاء كانوا يحسبون له هذا المعروف ويتكلمون به. صار عبد السلام ثرياً من الرشى، وصار وجيهاً بما يتفضل به على أبناء بلدته ومنطقته. وعندما فكر أسعد بك زعيم المنطقة بمرشح معه للانتخابات النيابية فكّر وفكّر أعوانه بعبد السلام. هكذا صار عبد السلام نائباً.

محاسن وفاطمة عمّتاي تزوجتا من مهاجرين في السنغال، أما عمتي افتخار كبرى بنات الحاج فردّت خطّاباً كثيرين خائبين. لم يكن

بينهم في تقديرها من يساويها نسباً، ولما أشرفت على الأربعين لم يعد يخطبها سوى أرامل أو عزّاب. كونهم وصلوا إلى منتصف العمر ولا يزالون عزاباً، يثير شبهات حول جدارتهم الجنسية والعقلية. كانت افتخار قارئة جيدة وجعلتها الوحدة تضع همها في القراءة وفاجأت الجميع بأن تحولت إلى كاتبة، أخذت تكاتب صحفاً ومجلات وترسل أقاصيص ومقطعات تنشرها باسم مستعار هو "بنت الليطاني".

لم يملك أي من أولاد الحاج مرشد سلطة اليد التي توعز وتحكم من داخل العباءة، ولم يكن فيهم من ينتظر الناس أمراً منه ليكونوا موجودين في عينيه ويهرعون إلى الامتثال ليكونوا جديرين بالطاعة. لكن كلاً منهم كان الحاج مرشد في مكانه. أبي كان الحاج في المدرسة والحاج محمد كانه في بيته وعبد الأمير كانه في الحقول وعبد السلام كانه في المجلس النيابي وعدنان كانه بين جنوده وافتخار كانته بين صاحباتها في البلدة وفاطمة ومحاسن كانتاه في المهجر. كان للجميع هذا الإحساس بأنهم لا يدينون بشيء للآخرين، للمجتمع بكامله. ليس فقط إحساس بالفرادة لكنه إحساس الحاج مرشد الذي لا يهمه أن يرى الناس تحيته. لم يكن يهمهم كيف يراهم الناس بل لا يشعرون بأن عليهم أن يؤدوا شيئاً للناس. ليس عليهم أن يجاملوا أو يلاطفوا أو يتقيدوا بالمصطلح الاجتماعي، ما كانوا يسمحون لهؤلاء الرعاع بأن يقيموهم وما كانوا نيعطوا اعتباراً، أي اعتبار لأحكامهم. ما كانوا ليعطوا للآخرين، للمجتمع، أي سلطة عليهم. كانوا أحراراً تجاه الناس. يتصرفون على هواهم فمن هم هؤلاء الذين يقيمونهم، من هم، ليسوا شيئاً ولا يهمهم بحال كيف يرونهم، بل من أين لهم الحق

بأن يروهم أساساً. لم يكونوا يتعاملون باحتقار مع الآخرين، لكنهم يتصرفون بلا حساب لهم. لم يكن الاحتقار ظاهراً في سلوكهم. هم إذا ناسبهم ذلك يبالغون في اللطف، لكنهم يتصرفون كأن الناس غير موجودين وكأنهم لا يرون أحداً. ليسوا متعالين في الظاهر ولا قساة، قد يصادقون أناساً في قاع المجتمع، ويرفضون صداقة أعيان البلدة. يفعلون فقط ما يحبونه وإذا شاؤوا أن يتظاهروا تظاهروا بما لا يحبذه الناس. الحاج محمد يثرثر أسراره الجنسية مع زوجته، عبد الأمير يبالغ بالشراب وإذا سكر يبكي أو يضحك أو يعتدي باليد على من حوله، أبي متأنق في المجالس والوردة في عروقه يروي قصصاً وأشعاراً من التراث العربي ويذهّب فمه بأحاديث نبوية وروايات عن الرسول، لكن إذا بادره واحد بسؤال يستهجنه أغرقه بالسخرية، عدنان مثل أبيه يتكلم ولا يتكلم، يمنح الموجودين ابتسامات وغمزات فيشعرون أنه واصلهم ويحبونه أكثر، لكنه أحياناً كثيرة يضحك من نفسه ومن الآخرين فيلحقه الآخرون بالضحك حتى تدمع عيونهم. أما عبد السلام النائب فهو أيضاً مثل أبيه، يكاد مثله يحييهم من داخل عباءته. يلاطف من فوق ويتواضع من تعاليه ويشير حتى لا يرخص الكلام ويتكلم بحساب، لكنه في مجالسه يعطي نفسه مداها ويضحك من كل شيء. كانوا جميعاً طريفين، هذه الطرافة التي تجعلهم قادرين على أن يخترعوا، على أن يؤلفوا باستطراد، على أن يفاجئوا جلساءهم بشيء يصدمهم لكنهم يذعنون له، شيء فوق تصورهم ولكنهم يسلمون به. كانوا طريفين يستفزون جلساءهم فيصيرون وحدهم، حريتهم تفرزهم من الجميع وتجعلهم فوقهم. حريتهم تفردهم وتجعلهم جنساً

آخر، لا يعلنون امتيازهم لكنهم يمارسونه. يفعلون ما لا يشعر أحد سواهم أن من حقه أن يفعله فيفعلون تفوقهم بدون أن يقولوه. يكونون حواة ومهرجين ووعاظاً ومعلمين، كما يحبون، فلكل ساعة ملائكتها ولكل مناسبة لزومها لكنهم فجأة يتخطون الساعة والمناسبة ويجرون الآخرين معهم إلى حيث تتفتح حريتهم، إلى حيث الهذيان الموزون والارتجال.

لم يكونوا بالطبع يحتذون حذاء بفردتين مختلفتين، ولا يرتدون بنطلوناً بلونين، ولا يعتمرون قبعة غريبة، لم يكن هذا شأنهم. والدي حسين وهو أقصرهم قامة يضع وردة في عروقه، ويرتدي سترة في عز الصيف، ويمشي كما يقولون كالهدهد. الحاج محمد يرتدي عباءة والده ويفرشها حوله حين يجلس. أما عبد الأمير المزارع فلا ينزع معطفه إلا في الصيف، يبدو في ذلك وكأن الطقس لا يعنيه. والدي وهو أوقرهم لا يمانع في أن يذهب مع خمسة من رفاقهم، منتصف الليل، إلى المقبرة، يفتحون بوابتها ويستدلون بالقبور ليصلوا إلى قبر يلتمون حوله ويضيئون شاهدته بأعواد الثقاب ليتحققوا من أبيات شعر نقشت عليه، كانوا اختلفوا على نصّها في هذه الساعة من الليل، ولا بد أن الشراب كان لعب بعقولهم. الحاج محمد يرفع صوته ساخراً من الأنبياء والمرسلين والأئمة بضحكات مدوية، ويدفع تجرؤه، غير المعتاد، في البلدة جلساءه إلى الضحك المجلجل وهم يستغفرون في أعماقهم، ثم يتركونه في معركته مع الدين إلى بيوتهم ليتوبوا عما سمعوه، أما هو فبعد أن يرمي الحريق في المكان بكلامه يعود إلى بيته ليصلي، إذ إنه منذ شب لم ينقطع عن أداء الفرائض. أما عبد الأمير،

أظرفهم، فيذكر الطريقة المثلى لمجامعة عنزة، وهي أن تحتذي جزمة طويلة الساق فتضع كلاً من قائمتي العنزة في الجزمة. كانت له دروس مماثلة في كيفية مجامعة دجاجة وهرة وكلبة وبقرة، بل يتوصل إلى أن يوصي بالطريقة المثلى لمجامعة بيسكليت وسيارة صغيرة وشاحنة وموتور كهرباء وشجرة. في حين أن عبد السلام النائب يسلي جلساءه بالسخرية من أسعد بك ومن زملائه النواب. كان أسعد بك يعلم لكن عبد السلام يسليه أيضاً بالسخرية من نفسه ومن نوابه الآخرين. الطرافة مغفورة ولو تصدّت لله، والجلساء يتواطأون معها، فهي خروج معذور عن كل قاعدة مع ضمان طريق العودة. إنها مروق مشروع يطال كل شيء بدون أن يجرح، في الحقيقة، شيئاً. في السادسة، بدأوا يدربونني على الطرافة. يدخلون إلى بيتنا ويسألون عن "ديك الحطب" والدي، تسمية لم أعرف إلى الآن دلالتها. يجلسون على الكنبات ويبدأون في أكل لحم أبيهم يوم كان حياً وبعد أن توفي. يذكرون كيف يحيي من داخل عباءته ويقيسون عليها بأنه غالباً كان يفعل كل شيء بدون أن يفعله. لا بد أنه كان يجامع زوجته هكذا بأن يحرك قضيبه من داخل العباءة. يذكرون كيف سمع صوت إحداهنّ عالياً من غرفتها فبقي شهراً لا يدوس حجرتها، كان جدي أيضاً طريفاً.

الطرافة هي الحقّ في أن تشهّر وتعتدي وتزدري وتهين بل وتشتم وتشمخ وتتعالى بدون أن تكون مسؤولاً. إنه فنك يغلي على قلبك ولا تستطيع أن تعانده. يفيض بإرادتك أو بدونها، ومهما أمسكت لسانك فإنه ينطلق به ولا تستطيع مهما حاولت أن تمنع حفلة الرجم

هذه التي يتواطأ عليها الجميع، بما في ذلك ضحاياها. الطرافة هي أن تكون حراً من الجميع في وجودهم وبينهم. لا نكون طريفين أمام من تُخشى بوادرهم، من يعاجلونك برأي فيك. من تحلهم محل ضميرك وتقيمهم شهوداً عليك.

أنا أتطارف أحياناً وأنجح لكني لست كأبي وأعمامي. الطرافة فنهم، يرتجلون بدون أن يقصدوا شيئاً، لكن الأشياء تأخذ من تلقائها معنى، تفسرهم أكثر مما يفهمون أنفسهم. لست كأبي وأعمامي، الطرافة في دمهم. تخرج منهم بدون أن يشعروا. أنا أتقصد أن أصيب لكني لا أصل مباشرة، أسلك طريقاً ملتوية لأصل إلى هدفي. أحياناً تأخذني الطريق فأتأخر فيها، وقد أضيع عن الهدف، لكني أبدأ من قصد واضح. أبي وأعمامي يريدون أن يسلوا الناس، أن يتسلوا معهم لكن التسلية تتطلب أحياناً ضحية، الارتجال يتطلب ضحية وعلى أحد أن يكونها، أنا لا أريد أن تكون الضحية أياً كان، لا أريد ضحية غير مقصودة، أختار ضحيتي وأريدها أن تعرف نفسها وأن يعرفها الآخرون. أبي وأعمامي يحولون المجلس إلى سيرك، أنا أريده أن يكون محكمة. أريد أن يشعر الجميع أنهم في محكمتي، إنني أنا من يقاضي ومن يتهم ومن يدين. تربيت في زمرة متحررة من الناس لذا لا أحسب لهم حساباً، أنا حتى لا أراهم أمامي. يمكنني أن أفعل ما أشاء بدون أن أخشى حكمهم. ليس لهم أن يقيّموني أو أن يمتحنوني. وأنا لا أفعل شيئاً لإرضائهم. قد أفعل أشياء لأريهم أنني لا أكترث، لأبيّن لهم أنني لا أهتم. أنا أطول منهم وأجمل وأذكى. قد أكذب جهاراً أمامهم لأريهم كم لا يعنونني، كم لا أبالي إذا أمسكوا عليّ

كذبة، لا أبالي إذا اعتبروني كاذباً. أخادعهم فقط ليروا أنني لا أحترم أحداً. أخادعهم ليفهموا أني لا أعطي وزناً لهم. إنني أخدع علانية ليعرفوا أنني أستغبيهم، أخادع علانية ليعرفوا أني لا أهتم إذا عرفوا أني مخادع. لا أهتم إذا عرفوا أنني كاذب. لا أهتم إذا عرفوا أني أحتقرهم، وأن هذا الاحتقار هو سبب حريتي.

تسألونني عن أصدقائي، أولئك الذين أعاشرهم وأخرج معهم وأجالسهم في البيوت وفي المقاهي وألاعبهم الورق وأشاركهم الطعام وأحضر معهم الحفلات والأفلام والمسرحيات وأحادثهم ويحادثونني. إنهم أصدقائي لأنهم يفعلون معي هكذا، لأننا نقضي أوقاتاً معاً ولأني لا أريد أن أكون وحيداً. تسألونني إذا كنت أحبهم ويحبونني، أقول لكم أني أفضّل أن نلعب معاً لعبة ورق، أن نتغدى ونشرب معاً، أن نتبادل الحديث، ما هي صلة ذلك بالحب. نستطيع أن نفعله بالحب وبدونه، فهو لا يحتاج إلى حب. نأكل معاً ونلعب معاً ونخرج معاً، نعم، أما أن نتشاكى وأن نتسار وأن يفضي الواحد إلى الآخر بأسراره، أن يبوح له بما يؤلمه، أن يفاتحه بهمه، فلا. لا أعرف كيف أنكسر أمام واحد، كيف أغدو أمامه خرقة مهلهلة. لا أعرف كيف أتركه يدوسني أو يشفق عليّ، كيف يساندني وأنا أبدو صغيراً وبائساً بين يديه. لا أستطيع أن أعترف لأحد، أياً كان، فمن يكون لأعترف أمامه. لا أحتمل أن أبدو تعيساً أمام أحد. أعرف أن هناك من يحبون ذلك، من يستجرون عطف الآخرين، أنا لا أبالي بعطف الآخرين، أياً كانوا، لا أعرف كيف أبوح همي أمام أحد ولو كان أبي أو أخوتي. أمام الجميع، أمام أهلي أيضاً، لي كبريائي

ولا أريد أن يحضنني أحد. لهذا أنا موصد على الجميع، داخلي من حجر، لا ينفذ منه شيء إلى الخارج. أتضايق أو أكتئب أو أتألم لكني أستحي من أن أقول ذلك لأحد. لا أستحي فقط ولكني أتكبر عن أن أقوله لأحد. من يكون لأستخذي أمامه، من يكون لأرتمي على قدميه. أصدقائي نعم أعاشرهم لكني لا أبادلهم أسراري، أحتقرهم إذا شكوا إليّ. جاءني أحدهم يشكو لي اكتئابه فنصحته بأن يقوم بعملية انتحارية، لقد صرفته عني بهذا الكلام، أنا لا أطيق أن يبوح لي أحد أو يشكو.

سيكون سخيفاً بالنسبة لي أن أتبادل الأسرار مع صلاح الذي يكبرني بخمسة عشر عاماً، فهو في الخامسة والأربعين و لم ينفع العمر إلا في زيادة تخشبه. إنه مثالي وإذا حككته عاد من جديد ابن الخادمة الذي لا يعرف أين مكانه. هل هو ابن الحاج محمود عضو هيئة البلدية أم ابن زهرة الخادمة. سيكون سخيفاً أيضاً أن أتبادل الأسرار مع بيار الأصغر مني بخمس سنوات والذي يحمرّ كلما زجرته بسبب من الأسباب. أظن أنّ له مشكلة مع جنسه، أفكر أحياناً أن مصاحبتي له تفسد سمعتي، لكن هذا ما لا يهمني. بالعكس قد يسرني أن تكون لي سمعة سيئة. هكذا يضيع الناس في أمري وأغدو بالنسبة لهم أكثر التباساً، وبالتالي أشد بعداً. فواز هو الأذكى بينهم. هو من عمري، ربما كانت لنا سنة الولادة ذاتها، أشعر أنه يعرف لعبتي فلا يهتم بها، أشعر أني مكشوف أمامه، هذا ما يجعلني أحس بأنه ندّ لي وأنني معه لا يجمعنا شيء. نلتقي أحياناً كل يوم ثم نفترق شهراً فلا يزيدنا اللقاء قرباً ولا الفراق بعداً. ثم إنه ليس صاحب لعب بالورق ولا حفلات

طعام وشرب عارمة، وهذه أمور لا بد منها لكسر الضجر الذي إذا اشتد يكاد يدفعني إلى الجنون وأنا أقضي اليوم في مغالبته بالكلام واللعب والمائدة. أستيقظ ضجراً ومنذ الصباح أبدأ في الدوران هرباً من ضجري. أذهب إلى المقهى حيث نعمّر لعبة ترنيب، أقترح أن نهيئ عشاء ونساهم كلنا فيه بمبالغ متفاوتة لكن متقاربة ويذهب أحدنا، في الغالب اثنان إلى السوق ويعودان بقطعة كبيرة من اللحم وكمية من البندورة والبصل وبضع قناني عرق، ونأكل في البداية لحماً نيئاً مملّحاً مبهراً وتبولة وحمصاً مهروساً بالطحينة فيما يُعمّر شواء كبير، تُصفّ الأسياخ فوق الجمر وتعبق منها رائحة مألوفة ونروح نحن لنرفع أسياخ الشواء عن النار وندسها في أرغفتنا. نأكل ونأكل ونحن نقاطع كلام بعضنا البعض ونضحك بأصوات مصهصلة ونمتدح اللحم وحذق من اشتراه ومن باعه. نأكل ونأكل وأجوافنا تظل مفتوحة ولا تمتلئ إلى أن نتعب من الأكل ونفترق وقد اكتظظنا، معدنا ورؤوسنا باللحم والعرق. إنه عيد لكنه يحصل تقريباً كل يوم ولفرط ما يتكرر يبدو وكأنه محرقة للوقت. إنه تبديد للنهار فنحن فيه ننهمك كثيراً ولا نفعل شيئاً. وننتبه في الأخير إلى أن ما نفعله هو الضجر نفسه. ليست سهراتنا أغنى فهي تنتهي في الكلام الصاخب الذي يبدو شبه إعادة لما عرفناه معاً، وحتى النكات لا تبدو مبتكرة، إننا نهرب من الضجر بأسلوب الضجر ذاته.

تسألونني عن النساء. هذا سؤال مهم. النساء مهمات بالتأكيد لدورتنا البيولوجية والامتناع عنهن يؤدي إلى أمراض، ثم إن هناك متعة لا تنكر في مواصلتهن. امرأة جميلة لا تحتاج إلى جهد لتبدو

ذكية، لتبدو حتى حكيمة. الجمال نفسه ذكي وحكيم، إنه قيمة يمكن أن نبادل بها أشياء كثيرة: الصيت، الغنى، السلطة. أنا جميل يقول عني بيار إني جميل: طولي، شعري الأسود المتموج، حاجباي المقوسان، فتحة عينيّ الطويلة وغزارة رموشي وكتفاي العريضان. بهذه القامة أشرف على الناس من فوق. لو كنت قصيراً كفوّاز لكان إحساسي بنفسي وبقيمتي أقل بكثير. أشرف على الناس من فوق وأحس أن هذا موقعي في الحياة. أن كبريائي تتعلق كثيراً بجسدي. يقول بيار إن الناس الجميلين يشعرون بشكل مختلف، بيار جميل لكنه لا يتحدث عن جماله. حين يقول عن شخص إنه جميل فهو غالباً يعنيني. يمكن أن نتباهى بجمالنا، أن نكون فخورين به. الجمال كالذكاء، كالغناء. كالفن، موهبة. الكلام مع امرأة جميلة يجعل الحديث أذكى والمكان ألطف. نقدر أكثر عندئذ على أن نكون أظرف وأكثر مرحاً. الحديث مع امرأة جميلة يشحذ مواهبنا ويجعلنا أجمل وألطف وأبرع، ذلك يكفي بالطبع فلماذا الحب، لماذا خوف الواحد من أن لا يكون مالكاً قلب الحبيبة، لماذا قلقه من أن يخامرها اسم آخر، لماذا قلقه من أن الحبيبة ليست صفحة بيضاء أمام الحبيب وأنه يتعذب لكون ذاتها لها ولكونها محجوبة عنه، لماذا الحب. لماذا الخوف الذي يجعل الواحد تعيساً أمام الحبيبة، يستدعي ظرفه وذكاءه فلا يطاوعانه ويبدو بالعكس أمامها بليداً ملحاحاً وشكّاء. لماذا القلق الذي قد يدعو الحبيبة إلى أن تراه أقل مما حسبت. لماذا الحب. لماذا هذا الذي يجعل الرجل خائراً وضعيفاً ومثيراً للشفقة.

يقال إني فظ مع النساء، لست فظاً لكني لا أقول لامرأة إنها

تلهمني، لا أقرأ لها شعراً، لا أحشد صوراً من الطبيعة للكلام عنها. لا أهرب من رغبتي على طريق أخرى تكون مأمونة أكثر لكي تعيدني هي إليها. أقول لامرأة جميلة إنها "هيجتني" أقول لها "هيّجتيني" أقول لها "نامي معي". هناك فتيات ينتظرنَ أن أراوح قليلاً عند كلام آخر قبل أن أتقدم إلى تصريح كهذا. هناك فتيات لا يردنَ أن يسمعنَ هذا الكلام حتى ولو كنّ جاهزات للذهاب إلى السرير، لكن هناك فتيات يفرحنَ به، يجدنه مختلفاً ويجدنَ صاحبه مختلفاً ولا يرونه بذيئاً أو قليل الاحترام. الغزل الرخيص الذي يموّه الرغبة هو في نظرهن القليل الاحترام، إنه يشك كثيراً في ذكاء الفتاة ويتلاعب بها. أن يفاتح الرجل المرأة برغبته فهذا يعني أنه يثق بعقلها. أنا أرى أنّ هذا الكلام عن الأزهار والنجوم لامرأة مرغوبة يعني أن مجامعتها لا تساوي أكثر من تقديم وردة لها، إنه استهانة بجسدها. حين نتعثر ونحن نطلب هذا الجسد فإننا لا نستحقه.

عندما قلت لها إنني أريد أن أنام معها انتشر الدم في وجهها واعتم صدغها. لم يكن هذا بسبب بذاءتي بل هو ما يفعله فيها كل تلميح جنسي. كان وجهها يحمرّ حين نشاهد في اللوحات صور الأبطال العراة. نهى تقيم في بيروت مع إخوتها الثلاثة الذين يدرسون في الجامعة. رافقتهم رغم أنها في صف دراسي أقل من الجامعة لتساعدهم في تدبير شؤونهم. التقيت بالإخوة في الجامعة، كنت في سنة كبيرهم الجامعية. لكن الأخ الذي يصغره بعام دراسي هو الذي بدأ مهتماً بالأدب وفاجأني باطلاعه على الشعر الإنكليزي. تحدثنا عن إليوت وأودن وانتقلنا إلى وولت ويتمان، ولما انغمسنا في

الحديث وتركنا الإخوة منتظرين، اقترح كبيرهم طارق بأن نذهب معاً إلى بيتهم. قلت له إن بيتي أقرب وبوسعنا أن نذهب إليه فأنا مثلهم أسكن مع اثنين في غرفة في بناية حول الجامعة. لكن سامي الأصغر منه قال إن أختهم تنتظر وذهبنا إلى بيتهم معاً، بقيت الأخت في الغرفة الثانية وقتاً، خمنتُ أنها علمت أنهم أتوا بصحبة شخص آخر فأخذت وقتها في الاستعداد للخروج. حين وقفت على الباب ورأتني أغضت عينيها وأطبقت رموشها الكثيفة الشقر واختنق وجهها بحمرة داكنة. كانت طويلة القامة لكن شعرها الحائم على وجهها ورمشيها الطويلين وزغب وجهها وعنقها الرفيع تجعلها أقرب إلى بجعة. كانت ترتدي روباً لكنها بعد أن حيَّت عادت إلى الغرفة حيث خلعته، وبدلت الثوب المنزلي الذي ترتديه ببلوزة خضراء نفر منها ثدياها وتنورة بيج تصل إلى أعلى من الركبة وحين نظرت إليها أتفحصها عاد الدم فملأ وجهها.

جلست معنا وتركتنا ثانية، عادت هذه المرة وفي يديها صينية الشاي. أخذت تصب. قالت والإبريق في يدها تسكب منه:

– شو مبيّن هـ المرة جايبين معكن شبّ.

ونظرت إليّ وأطبقت رمشيها وتراءى لي أن لونها تغيّر، وأجاب الكبير:

– أي شاب. هـ المرة فكرنا فيكي.

– كلك ذوق يا أستاذ. جيب البدّك ياه بس ما تبعتني لعند الجيران.

ورمقته بطرفة عين، وقالت هذه المرة وهي تنظر إليّ:

- الأساتذة بيجيبوا صاحباتهن ويبعتوني كسدر لعند الجيران، وإذا مسكّرين بروح بعيد عند قراييبنا بحارة حريك.

قال سامي وهو يستدير على الكرسي:

- قراييبنا عندن شباب كمان، شفتي عمنفكر فيكي.

- هوذي حاسبينن عليي شباب، استحوا.

نظرت إليّ وقالت:

- هالمرة جبتو شبّ صحيح.

وخيّل إليّ أن وجهها تورّد وهي تقول ذلك.

***

دقّ الباب. كنت مع رفيقيّ في الغرفة نلعب بالورق. فتحت الباب، كانت نهى، اندبغ وجهها منذ رأتني. قالت إنها كانت بالجوار واستحبّت أن تمرّ عليّ.

ترك أحد الرفيقين الغرفة وذهب الثاني إلى المطبخ، نظرت إليّ ثم فتحت جزدانها وأخرجت منه مقصاً واقتربت مني وقالت افتح إيدك:

فتحت يدي فأخذت تدير المقص على إظفر كل إصبع وتقصه بعناية. خجلت بأظافري الطويلة والوسخ الكامن تحتها لكنها قالت:

- هيئتك ما عندك حدا يهتم فيك. شب حلو متلك ما بدو مين يدلو، بيكفي تأشر بإصبعك بس يكون مرتب ونظيف ومقصوص ظفره.

دخل الرفيق الذي في المطبخ وفي يده صينية. تركها على كرسي

وقال إنه مشغول واستأذن وخرج. لم تفت هذه الحركة نهى فقالت "تركونا لوحدنا".

اقتربت منها ومررت على خدها وشعرها براحتي وقلت لها إني أريد أن أنام معها. تورد وجهها وقالت إنها ليست غبية. إنها تعرف ما يفعله إخوتها حين يختلون بصاحباتهن، تعرف ماذا يفعل الشباب مع البنات. كانت تقول هذا كمن يشرح أنه يعرف لعبة، لكن الوقت ليس مناسباً. ينتظرونها في البيت. لكن إذا كنت ملحاً تريد أن تتمدد في السرير وتريدني أن أرقد جنبها، وبالفعل صعدت إلى السرير الوحيد في الغرفة فرفيقاي يبيتان على فراشين مطويين في ركن من الغرفة. لحقتها وتمددت جنبها، طلبت مني أن أحضنها، فقط أن أحضنها، استدارت إليّ وتركتني أضمها بذراعي، أرخت رأسها على كتفي. حاولت أن أغلغل يدي داخل بلوزتها لكنها تأبت بلطف. حاولت أن أدسّ يدي بين فخذيها لكنها شعرت فنهتني بيدها عن أن أفعل. قلت لها إني أريد أن أنام معها فقالت:

– مانك نايم. أنا بين إيديك. شو بدك أكتر.

شدتني إليها وحضنتني بقوة. غرق رأسي في شعرها، وبلحظة انفتلت وقفزت من السرير. وضعت رجليها في سكربينتها التي بدون كعب وفتحت الباب وخرجت.

* * *

مضى يومان التقيت بعدهما بسامي الذي قال بسرعة وهو يتوجه إلى قاعة السنة الثانية للأدب الإنكليزي:

- نهى قالت لي جيبك معي، عازمتك على كبة بلبنية.

على الباب. ما إن أحست بدخولنا حتى خرجت من الغرفة، كانت ضفرت شعرها على شكل ذيل الحصان وارتدت عباءة منقوشة على صدرها تلتف على وسطها وتنساب على جسدها الطويل والنحيل. سارت إليّ وعانقتني وحين سمعت همهمة من طارق طالب المحاماة الذي قال:

- عمهلك عَ الرجّال.

أحاطتني بذراعها وقالت وهي تشدّني إلى ناحيتها:

- نديم صديقي.

وأجاب سامي:

- إذا حبيبك عسل ما تلحسو كلو.

- حبيبي وأنا حرة في، إنت يا كبير شو بيخصك:

قالت لي بصوت عالٍ أن آتي معها إلى المطبخ لأساعدها في حمل الأطباق. في المطبخ نقلت من خزانة المطبخ المعلقة فوق المجلى جاطاً كبيراً أعطتني إياه، وطلبت مني أن أتمسك به لئلا يسقط، وفيما كانت ترفع الطعام بالمغرفة وتسقطه في الجاط، قالت لي وكأنها تقول أي شيء، بأن مدرستها نظمت رحلة إلى الأرز في فاريا الأحد. إن زميلاتها في الصف أخبرنَ أصحابهنّ بأن يذهبوا في الوقت ذاته إلى فاريا ليلتقوهنّ هناك. قالت إنها تريدني أن أذهب للقائها في فاريا. لما كانت تعلم أنني لا أملك سيارة طلبت من زميلة لها، رجاءً، أن تقول لصاحبها أن ينقلني معه في سيارته ما دام ذاهباً. فاجأتني، لم أكن مستعداً لهذه المشقة كي ألقاها.

قلت لها بصراحة (ما عندي وقت). امتلأ وجهها فوراً بالعبوس واعتمّ صدغاها:

– كنت ناطرة تقول هيك. أنا مش تسلية حدا. إذا ما عندك وقت إلي. إذا مستكتر عليي نهار فيك تطلع هلق من عنا، بتعرف الباب.

تندت عيناها بالدموع. فحضنتها بذراعي وقلت لها وأنا أمسح دموعها براحتي عن خديها:

– مش هيك قصدي، خلص بطلع على فاريا.

أكملت هي مسح دموعها بيدها وأخرجت من الجيبة العليا في عباءتها ورقة سلّمتها لي:

– هذي نمرتو بالورقة. إحكي معو واتفقوا.

حملنا الجاط والأطباق وخرجنا إلى الغرفة. رآنا طارق داخلين معاً فقال:

– طنجرة ولقت غطاها. لايقين لبعض.

أجابت نهى:

– قلتلك نديم صديقي.

* * *

نظرت في الورقة التي أعطتني إياها نهى فوجدت اسماً في أعلاها "أحمد حشوش". ذهبت إلى دكان جارنا حيث يوجد تلفون للعموم. أعطاني قطعة نقد معدنية لأضعها في الجهاز. طلبت النمرة فجاءني صوت رخو رتيب كأنما استيقظ صاحبه من النوم. كان يجر

كلماته جراً. سألني إذا كنت طالب الجامعة الذي سيصحبه إلى فاريا. سألته إذا كان هو أيضاً طالب جامعة فقال لا أنا ميكانسيان. سألني عن كلية الآداب إذا كانت وراء صيدلية مازن. لما جاوبته قال إنه سيمر بعد غد الأحد في السابعة صباحاً "ليلمني" من أمام الصيدلية، سيكون في سيارة هوندا زرقاء.

في الطريق لم يكلمني. كان يعلق على السيارات التي تحاشره بدون أن يلتفت إليّ وكأنه يقوله لنفسه. سارت السيارة بنا وأنا ملتفت إلى زجاج الشباك وهو يدخّن ويملأ السيارة بالدخان. ظهرت الهضاب البيضاء وامتلأ النهار نظافة وضوءاً، استمررنا بالصعود إلى أن أوقف أحمد السيارة وجلسنا ننتظر. لم يطل الانتظار. جاءت نهى ومعها فتاة سمراء، كانت عادية كصاحبها وجعلتها ملابسها ومريولها المدرسي أكثر عادية. لم ترتد نهى المريول. ارتدت بنطلون جنز وكنزة وردية وشالاً أسود أحاطت به كتفيها. كانت جميلة جداً، بل وأنيقة بالقياس إلى صاحبتها التي دخلت فوراً مع صاحبها، من باب نفذ إلى صالة فسيحة مليئة بطاولات بلاستيكية ومقاعد بعضها في جوانب المكان، وتتسع لأكثر من شخص. ذهبت صاحبتها وصاحبها وجلسا معاً على أحد هذه المقاعد، فيما ذهبت أنا ونهى إلى مقعد مقابله. كان أحمد وصاحبته متناسبين ومتشابهين وانهمكا بمجرد أن جلسا في الحديث، جذبها من يدها إلى المقعد، كان هذا التماس الوحيد الذي جرى بينهما. سميتها أمام نهى الميكانسيانة فضحكت وعضت على شفتها. أحاطتني بذراعها وحنت رأسها إلى رأسي بحيث تلامس خدانا. أرادتني أن أحضنها بذراعي وأن أترك يدي تحت

إبطها بحيث اندسّت أصابعي في ثديها تحت الثوب. شدت عليّ وشددت عليها فبدونا هكذا متلاصقين أمام أحمد وصاحبته اللذين علا صوتهما وكأنهما دخلا في عتاب. كانت تباهي بذلك صاحبتها ومعها، كما قدرت، كل فتيات صفها. قلت لها "هيجتيني" فلم تتكلم لكنها سألتني:

- بتحبني.

أجبتها من بين أسناني:

- إيه بحبك.

- علّي صوتك، بتحبني كتير؟

- (بصوت سمعه الجميع) بحبك كتير.

أمسكت يدي في راحتها وأخذت تعصرها، كان وجهها متورداً وسعيداً. أفلتت يدي على ساقها الملتفة بالجنز، صرت أمسح الجنز براحتي وأعيد تمريرها عليه. تركتني أفعل لكن وجهها الذي زاد تورده ظل ساهماً عن هذه الحركة متجاهلاً لها. ظلت نظرتها ضائعة في فضاء الغرفة لا تقع على شيء، لكن عندما اصطدمت أصابعي بالزاوية التي تلتقي عندها ساقا البنطلون رفعتها بسرعة وانصرّت تحت الطاولة. أخبرتني أنها مع إخوتها سيذهبون إلى القرية في عطلة الفصح. قالت إنها لا تحب الضيعة وإنها هناك تلزم البيت.

أثناء العودة كان أحمد حشوش أكثر طلاقة. أخبرني أن صاحبته تلحّ عليه ليخطبها وهو لا غرض له في الزواج الآن. لكن انطلق على راحته عندما بدأ يتكلم عن عصافيره، كان يملك بلابل وحساسين ودواري وخاصة كنارات. تكلم طويلاً عن كنار يسميه سوسو،

يقول إن الكنار ينتبه عندما يلفظ اسمه. يغار حين يراه يدور على أقفاص العصافير الأخرى. يكرّ عندما يراه ويمتنع حين يرى أباه. قال إنه يستحم كل يوم في إناء يملؤه له بالماء في قفصه. واستطرد حتى وصل إلى أن الكنار يفعل أشياء بالنكاية ويتحايل ويتظاهر، كان أحمد بالتأكيد يتكلم مع كناره أكثر مما يتكلم مع أي كائن آخر.

كان يمكن أن تمضي أيام عطلة الربيع بدون أن أفكر بنهى، فأنا أيضاً أذهب إلى مدينتي أثناءها. أخبرتني أنها ستذهب إلى الجبل، هذا يعني أن أيام العطلة ستكون خالية منها. لم تكن قريتها بعيدة جداً عن مدينتي، هي تقريباً في محيطها، تبتعد عنها ثلاثين كيلومتراً. كانت طلبت أن أزورهم في "السيادية" فأنا صديق إخوتها، لكني فكرت أن علاقتي بالجميع لم تصل إلى هذا الحد، لم أعرف كيف سأقابل أهلها. لم أفكر بالصعود إلى القرية لكني شعرت أن الأيام في مدينتي أيضاً خالية منها. كانت العطلة عشرة أيام، في اليوم العاشر ذهبت إلى بيروت، حين التقيت بسامي في الجامعة أخبرني، كما لو كان مكلفاً بذلك، بأنها بقيت يوماً أو أكثر في الضيعة لأن والدتها مريضة. كان الانتظار (الذي لم أعترف به) تحول تمريناً، لا بأس، لنمدده يوماً أو يومين. في اليوم الثالث وجدتها أمام بابي. قالت لي:

– خذني عَ السينما ظهّرني. ضاق خلقي من البيت.

ذهبنا إلى سينما سارولا لمشاهدة "يرقص مع الذئاب"، كان عرض بعد الظهر، بدأ لكنه لم يصل بعد إلى الفيلم. أصرّت على أن نختار مقعدين على الطرف. حين وصلنا لم نجد أحداً في صف المقاعد، جلسنا وحدنا. بدأ الفيلم، سبق أن شاهدته على الفيديو

لذا جلست أنتظر مرور مقاطعي الأثيرة. كنت مستغرقاً في ذلك حين شعرت بيدها تتناول يدي وتروح تمسدها إصبعاً إصبعاً، ثم ترفعها وتضعها على وجهها وتمرّرها على عنقها. جفلت تحسباً من أن نكون مكشوفين أمام الناس، لكن المتفرجين القليلين في الصالة المديدة كانوا مستغرقين في الفيلم. كنا محميين هنا وشبه محجوبين. نقلت يدي إلى ما فوق بطنها. همست في أذني "اضغط" ورحت أمسدها فوق بطنها وأضغط وأسمع منها زفرة ارتياح. رفعتُ يدي ومسدتُ تحت ثدييها ثم اقتربت باحتراس مما فوق ثديها وصعدت بيدي إلى ما فوق الثدي وأخذت ألفّ بيدي عليه وأمسده. لم أرَ وجهها لكنّي سمعتها تنفخ في أذني. كان نفَسها عميقاً وشبه لاهث. أخذت أدير راحتي فوق الثدي وحيث توقعت أن تكون الحلمة. تسارع نفسها، ثم قالت في أذني "خلينا نطلع، متضايقة". رفعتُ يدي وجلستْ في مقعدها دقيقتين حتى استطاعت أن تمسك بأنفاسها. قامت وسارت من جانب الصالة فتبعتها. في فناء السينما لم نكن الوحيدين الخارجين من الفيلم، كان هناك شاب وفتاة يتجادلان. قالت إنها تريد أن تشرب، اشتريت لها قنينة ماء، شربت من القنينة الصغيرة وأعادتها إليّ ثم قالت لي:

– ما بعرف ضاق نفسي جوّا. شو رأيك نروح عَ المودكا.

أحب المودكا لأنها بنيت على شكل سفينة، دخلنا كانت أيضاً شبه فارغة. جلسنا معاً على المقعد المثبت في جدار المقهى. طلبَتْ نسكافه وطلبْتُ قهوة. وضعتْ يدها على يدي المسدلة على المقعد وأخذت تتفحص أصابعي وتفركها، أسلمتها يدي وكدت أنسى أنها معها. لم

تعد لي طاقة على هذه الحركة. أحست هي بابتعادي فسألتني، ربما لتجد موضوعاً للجلسة، عن أدونيس الذي سمعت شقيقها سامي يذكر اسمه. لم يكن السؤال غريباً عليّ فأنا أتردّد على درسه في كلية التربية التي يتردد على كافيتيرياها كثيرون من غير طلابها، وأنا مهتم بالشعر الحديث. رحّبتُ بالكلام عن أدونيس وأمضيتُ فيه نصف ساعة تقريباً. فوجئتُ بأنها ليست غافلة تماماً عن الشعر الحديث. سألتني عن أنسي الحاج وعن محمد الماغوط، وجدت نفسي مهتماً بأن أتكلم عنهما. كان الغروب بدأ يتسلل فيما أخذت المدينة تقفر حول المودكا. كان الناس تلك الفترة اعتادوا أن يخلدوا إلى بيوتهم ما إن يحلّ الليل. المقهى أيضاً بدأ يخلو. بقينا وحدنا مع طاولتين. قالت لي:

– صار لازم إرجع عَ البيت. تأخرت.

عندما لاحظت أني استقبلت كلامها بالوجوم قالت:

– أي. لازم إرجع. إخوتي ما تنغرّ فيهن. طارق متعصب وما بيحب البنت تتأخّر بالليل.

وعندما وجدتني لم أجب. أعقبت:

– إيه متعصب. ما تنغشّ بلطفو. نحنا ولاد ضِيَعْ. حرية البنت إلها حدود. هُوّي الكبير. هلق هُوّي مطرح بيي. إذا بيحكي كلمة بيرجعوني عَ الضيعة. إنت كمان إلك أهل وبتعرف.

عندها قلت لها الجملة الوحيدة التي كانت في رأسي:

– بدي نام معك.

– أي بنام بس مش هلّق. هلّق بدي أرجع عَ البيت.

تركتها تستقل وحدها السرفيس إلى الضاحية وأنا عدت مشياً إلى غرفتي في الظريف.

كنت غاضباً. هذه الطفلة تلعب بي، تريدني معها أمام الناس وحين نبقى وحدنا تعجّل إلى الهرب. تريدني فقط في استعراضها، أنا الشاب الذي تتهافت عليه الصبايا. لكني منذ نويت الابتعاد أخذت أعدّ الأيام، كأني هكذا أحسب المسافة التي صارت بيننا وأتفقدها كل يوم. لاحظتُ أن هذا البعد بات، بالرغم مني، شاغلاً لي، أن الأيام التي تتعبأ بغياب نهى تصير طويلة وعميقة. في اليوم الثالث جاء سامي، قال إنه بحث عني حتى صادفني في كافيتيريا الجامعة، قال إن نهى أوصته بأن يصطحبني معه إلى البيت. اعتذرت بموعد اختلقته مع أصحاب. لم يبد عليه أنه صدقني لكنه قال إن عنده درساً وتركني في الكافيتيريا. في اليوم التالي عند الظهر، فتحت الباب على رنين الجرس، كان صبي الدكان التي في أسفل المبنى يقول لي إن هناك مخابرة لي. نزلت معه، كانت نهى على الخط، هي الأخرى تتكلم من دكان في الحيّ:

– شو باك. ليش ما جيت مع سامي. مشغول مع مين؟

– مش فاضي.

– هيئتك زعلان. الحقيقة إنو عقلك زغير. شو زعلّك؟

– مش زابطة بيناتنا. أحسن ما نضيّع وقت بعض.

– شو المش زابط. عمبحكي من الدكانة. ما فيي إحكي كل شي. تعا الليلة لعنّا.

– قلتلك بيكفّي. خلص. بيكفّي.

- شو اللي خلص. مش عم بفهم. يعني مش جايي؟

- أي مش جايي.

- عخاطرك. عاملي سفرة مهولي. أنت الخسران.

اليوم التالي الخميس، كان يوماً أجوف. ذهبت إلى الجامعة لكني بقيت خارج المحاضرات الثلاث التي حضرتها، كنت بانتظار شيء آخر ليس واضحاً لي ما هو، لكني عند المساء أدركت أنه لم يحدث. يوم الجمعة وأنا ورفيقيّ ما نزال في الفراش، رنّ الجرس قفز أحد الرفيقين إلى الباب. كانت نهى ومعها سامي دخلا وحين رأى سامي الفرش لا تزال ممدودة بينما أقف أنا ورفيقي، كل جنب فراشه مستحياً من أن تراه نهى بملابس النوم. قال لأخته:

- قلتلك بعدن نايمين.

- منيح اللي فيقناهن. ما في حدا بعدو نايم. يللاّ إلى العمل.

دخلت إلى المطبخ فلحقناها نحن الأربعة وازدحم المطبخ بنا. اتجهت إلى الخزائن وسألت:

- وين القهوة؟

وجدت البن في الخزانة الثانية. ملأت الركوة من الحنفية ولقَّمتها بالبن والسكر ووضعتها على النار. انسحبنا نحن وبدلنا ثيابنا فيما نهى لا تزال في المطبخ وحين دخلت نهى كانت الفرش جُمعت ووُضبت. جلسنا نشرب القهوة. كان سامي تلميذ الأدب الإنكليزي ببنطلونه المكوي جيداً وقميصه الأبيض أنيقاً بالنسبة لرفيقيّ، اللذين يبدوان أخوين بالرغم من أنّ كلاًّ منهما من قرية. يبدوان هكذا وهما بالبيجاما ويبدوان بعد أن ارتدى كل منهما

للصدفة، قميصاً مقلّماً رغم اختلاف البنطلونين بين البني لعدنان والرمادي لعادل. كانا كذلك طالبي هندسة في الجامعة اللبنانية، طالبين فعليين وليسا مثلي أنا طالب الأدب العربي الذي يمضي قسماً كبيراً من وقته في الكافيتيريا. نهى المعتدة بقبعتها الرمادية التي تشبه قبعات الممرضات منحتها سكربينتها ذات الكعب العالي سنتين إضافيتين. لم تكتف بقيادتنا إلى المطبخ لكنها عينت لكل واحد الكرسي التي يشغلها، أعطتني الكرسي التي جنبها وقالت لي:

– اقعد حدّي. خليني شوفك. ما بدك تجي لعنا. الكبرة لألله.

وصلتنا ضجة من الشقة المجاورة. كانت هذه مناسبة ليروي سامي، تعاونه نهى، قصصاً عن جيرانهم في البناية. الجار الذي يضرب زوجته، العانس التي تطلب تدبير عريس لها. مشاكل الجيرة. ووسط الحديث، فيما كان سامي يروي عن صبي "زنخ" يضرب أولاد الجيران، قالت لي نهى:

– جايين ناخذك معنا، عنا فراكة، اللحمة من الضيعة.

ذهبنا معاً إلى الضاحية، وجدنا طارق وغسان في انتظارنا. كانا ما يزالان في ثياب النوم، بيجامتان أجدّ من بيجاماتنا وأنظف. دخلت نهى وعملت الفراكة. صنعت براحتها وأصابعها كتلها الصغيرة من اللحم والبرغل. أكلنا معها بصلاً ونعناعاً، بدأت نهى بأكل البصل وتبعناها. أكلنا أيضاً زعتراً بريّاً متبّلاً بالليمون الحامض والبصل المفروم ومجدّرة من العدس والبرغل. بعد الأكل بدأت نهى جمع الأطباق، عاونتها، سرها ذلك ودفع الإخوة إلى المعاونة أيضاً. شربنا

بعد الأكل شاياً ثقيلاً مع خبز العبّاس المحلّى. ذهبت مع الإخوة إلى الجامعة وعلى الباب ودّعتني نهى وقالت:

- ما بقى تتكبّر علينا.

اليوم التالي، السبت، يوم عطلة، لكن رفيقيّ ذهبا إلى المكتبة للدرس. جاءت نهى، وجدتني وحدي على الباب، قالت:

- خذني على الروشة، على بالي شوف البحر.

حاولت أن أوقف سيارة للذهاب بالسرفيس إلى الروشة لكنها منعتني:

- أحسن نروح مشي.

كان هذا يتطلب ربع ساعة مشياً. مشينا، كانت الحمرا شبه مقفرة، أشرفنا على الروشة، لم تكن تعجّ كعادتها بالناس. صخرة الروشة المقسومة في وسطها بدت رأس حيوان أسطوري هائل مفتوح الفم. دخلنا إلى مقهى مطل على البحر لكن الغارسون تأخر علينا بحيث تساءلنا إذا كان هناك أحد في المقهى. بعد وقت جاء الغارسون متباطئاً ووقف إلى جانبنا و لم يسألنا، نحن طلبنا قهوة. كنا وحدنا في المقهى. انسحب لكن الوقت طال قبل أن يعود بصينية عليها ركوة وفنجانان، سكب القهوة وترك الصينية على الطاولة. كان الجو ركيكاً وناشفاً بحيث شعرتُ بالمقهى الخالي أجرد، وبالصخرة نفسها عديمة المعنى. تساءلت نهى إذا كانت الفناجين والركوة مغسولة جيداً. شربنا قهوتنا بشيء من البرم وفقدنا رغبتنا في الحديث. ضاعت أعيننا في المدى البحري وفجأة سألتني نهى:

- قلّي. ليش ما بدك تجي لعنا.

- بدّي نام معك. إنتي مش مستعدة بعد لتنامي مع حدا. خلينا نوقف هون.

- حبني بالأول. ما بتقلي بحبك إلا لما بطلب منك. بدك نام معك من غير ما تحبني.

- أي بيكفي إني بدي نام معك. إني بشتهيكي. متل ما بدّك سمّيه. بس أنا بشتهيكي. هذا بيكفي.

- بيكفي كيف. بدك تنام معي لأنك بتشتهيني. في كتار بيشتهوني. بدك نام معهن كلهن.

- إي إذا بتشتهيهن.

- لأ ما بيكفي. لازم يكون بيناتنا حب.

- حب إيه. بس فينا نحب أكتر من واحد. مش لازم نكون على اسم واحد. إنو يملكنا واحد أو نملكو. هذا اسمو احتكار.

- بدك نام مع رجال تاني وبتقول إنك بتحبني. شو هالحب الفاضي.

- إنت بنت حلوي. ليش بتكوني لرجال واحد؟

- مش عمبفهم. بتقول إنك بتحبني وبدّك نام مع رجّال تاني!

- إي. ليش لأ.

- وعمتقولها ومش مستحي. هلقد أنا بسوا عندك. خليك وحدك. بخاطرك.

تركتها تنهض. كانت غاضبة فعلاً. وجهها امتلأ بحمرة داكنة. مدت يدها لتتناول جزدانها من على الطاولة فاصطدمت بالفنجان، تركته يقطر على الطاولة. أخذت جزدانها. خرجتْ وأنا في مكاني،

خرجتْ بعجلة. ناديت أنا الغارسون الذي لم أجده أمامي. سرت إلى الداخل ووجدته. طلبت الحساب فاستأذنني وذهب، عاد متباطئاً وفي يده ورقة الحساب، دفعت وخرجت. لم أجدها. كانت وجدت سيارة وعادت إلى الضاحية.

توقعت أن أجدها في الغد على بابي، لو جاءت فعلاً لكان هذا محرجاً لي وأنا لا أحب الحرج. إنه يكبّلني ويجعلني مرتبكاً ومضطراً لأن أفعل أي شيء لأتحرر من جمودي. لم تأت على كل حال. في البدء راقني ذلك، لكنني لم أكن راغباً في وضع حدّ لانتظاري. حين أيقنت بعد اليوم الثالث أنها لن تأتي شعرت أنه لن يحدث شيء، لن يحدث شيء بعد أن فقدت انتظاري، ذلك يساوي انقطاع أمل ما. بالطبع لم أفكر في أن أذهب أنا إلى زيارتها، ذلك سيكون بداية لقصة أخرى لست مستعداً لها. حين مرّت خمسة أيام أدركت أنها لن تأتي، مع ذلك استمررت أعدّ الأيام بل أكدّسها تكديساً، أشقعها فوق بعضها البعض، اعتدت على هذا الهمود، لم أعد أفكر في نهى.

لم أنتبه في البدء إلى الحكاك الذي أصابني. ظننت أنه من نوبات جسدي التي اعتدتها، وجع في الصدر، تنميل في الكتف وفي اليد، انتفاخ في المعدة. إنه جسدي يكلمني بطريقته، قد أفهم ماذا يريد أن يقول لي وقد لا أفهم، هذا ليس مهماً جداً. لكن الحكاك ظل يعاودني، وفي المواضع ذاتها، في العانة وفي شعر صدري، وهو غزير، صرت أخشى أن ينتقل إلى شعر رأسي. لم يكن عارضاً وعابراً ككل نوبات الجسد، ظلّ يلح عليّ وفي المواضع ذاتها، لم يقلقني ذلك مع دوامه وإزعاجه، أن تحك في المكان ذاته فهذا أشبه بأن تحفر في جسدك.

ثم لاحظت كما لو أن ثمة قشرة على ساق شعرة، انتزعتها بأظافري فخرجت من تحتها حشرة مجنحة. فعلت مثل ذلك بقشرة أخرى فخرجت الحشرة المجنحة ذاتها. حفرت بأظافري تحت شعرات أخرى فخرجت أيضاً حشرات مجنحة. كانت هذه الحشرات ترعى فيّ، جسدي يؤوي هذه الحشرات وهي تعشش فيه، تشاركني في هذا الجسد مخلوقات أخرى، إنه أيضاً حقلها ومنزلها. أعرف أن الجسد يغدو طعاماً للديدان بعد الوفاة، لكن أن يغدو مسكناً للحشرات في الحياة فهذا ما هالني. كان ذلك تحولاً لم أفكر به. شعرت أن هذه الحشرات هي ما يترسب من الجنس، هي ما يخرج من غريزة الجنس ومن أفكاره ومن كلامه أيضاً. كان الجنس، خفية عنا، يتحول إلى هذه البقايا الحشراتية المجنحة. هذه القذارة تأتي أيضاً من أفكاري وليس فقط من استحلاماتي. بدون أي مناسبة، شعرت أن بين هذا الحكاك الفظيع وبين قصتي مع نهى صلة ما. ساعد هذا على توقفي عن التفكير فيها. هي لم تتصل ولم تأت، كانت هذه نهاية قصتنا. ذهبت إلى الصيدلي وحكيت له عن الحشرات المجنحة التي تسكن في جسدي. كنت أظن أنها آتية من أفكاري، من انحراف جسدي عن نفسه، أظن أنها شيء جديد وخاص فقط بي، لكن الصيدلي، ليس الصيدلي نفسه بل صبيُّه قال لي إنه الطاطاي وأعطاني قارورة فيها سائل أبيض عليّ أن أدهن جسدي به بعد أن أغتسل. فعلت وللحين بدأت هذه الحشرات تختنق في أعشاشها وخلا جسدي منها. لقد استعدت جسدي وعاد منذ الآن لي وتحت تصرفي.

* * *

استيقظ الآن على كرسي الهزاز. أجد القنينة بجانب الكرسي حيث غالباً ما وضعتها قبل أن يغلبني النوم. هذه المرة لم يرفعوها من جنبي و لم يلقوا بها في القمامة كما فعلوا مرات من قبل. والدي التسعيني الذي شرب كثيراً في شبابه اهتدى في الستين وصار يحسب أن زجاجة في بيته إهانة لدينه. بهذا لا يعود البيت بيتاً بل ماخور أو خمارة. يحسب أن شربي منذ أستيقظ حتى أنام تلطيخ لشيبته. لا يفكر بالطبع في صحتي فهو منذ أن صار تقريباً بلا جسد لا يفكر إلا في دينه. بلى هو يفكر في مقامه، مقام رجل في التسعين لا ينفصل عن دينه. الشرب لا يعيب الشبان لكن بيت رجل في التسعين يهينه أن تكون فيه زجاجة وأن يكون فيه شاربون لا يتوقفون. أنا أظن أنها إهانة كبرى لي أن أعود في هذه السن إلى بيت أبي، أعود في الستين إلى بيت أبي. أن لا أكون أوجدت في هذا العمر حتى مأوى لي. تزوجت وأنجبت وها أنا أعود ولداً عجوزاً، الحياة فعلاً ورائي. زوجتي هجرتني وابنتي بالكاد تراني وأنا عبد قنينتي. لقد رميت حياتي على الطريق، لم أتعرض لنكسة، لم تقع عليّ كارثة، وجدت نفسي هكذا خاسراً و لم أفاجأ من أنني لم أفعل شيئاً. كنت وسيما وذكياً، لكنني لم أتزوج أميرة وذكائي استثمرته في تركيب أحجيات بلا حل. لقد استرسلت في جمالي وذكائي، والآن تركت الحياة ندوبها على سحنتي وصرت مجرد متحذلق لا يرضي أحداً.

* * *

عندما التقيت بمنال كان ذلك في يوم عيد، الألعاب النارية تطرز الليل، تنشره وتتكوكب فيه وتختفي - القناني المثلجة في الصناديق المفتوحة وعلب الفشار وعربات الحلوى - دوارات تلف بعرباتها الشبيهة بالشرفات وقطار يتلوى قبل أن يختفي في المغارة، وعروس من صلصال تتقلب ويتقلب معها الركاب مبتهجين. شبان يتخاصرون في الدبكات ورقصات ثنائية في الجوانب. أشخاص يروحون من ساحة إلى أخرى ويتزاحمون بالعشرات وقنانيهم في أيديهم. كان وجهها كالعيد، عينان من العسلي الغامق تشربان الوجود الذي حولهما، ضحكة غير مرئية لكنها كامنة ليس فقط في فمها وعينيها بل أيضاً في جبينها وخديها. كان وجهها صافياً كقطعة من السماء حاضر ليشارك وليستقبل. قالت إنها تعرفني، صديقاتها قلنَ لها إني لا أطاق. وحين حاولت أن أستفسر، قالت إنني حاضر بشكل لا يمكن تجاهله، وجودي بهذا الشكل يغدو مشكلة. كان العسلي الغامق في عينيها يحيط بي والابتسامة الكامنة في كل وجهها تحيط بي، كنت مغموراً بها، قلت لها جملتي الشهيرة "بدي نام معاك" لم تُفاجأ بل أطلقت ضحكة وقالت لي "وين". كان جواباً فوق ما توقعت. لم يكن عندي مكان في هذه اللحظة وتلعثمت. ابتسمت عيناها وقالت:

ما عندك محلّ وبدك تنام معي. تعا نرقص.

طوال وقت الرقص تبعت عينيها، كنت بطريقة ما تحت جاذبيتهما، لم أحد عنهما. كنت أخترقها فيهما. بالتأكيد لاحظت

لكنها تركتني أرعى في عينيها، لم تبعدهما عني. كنا هكذا، أعيننا في أعين بعض ونتحرك تحت تأثيرها. في وسط الرقصة قالت لي بشيء من عدم الاهتمام وكأنها تكمل حديثاً:

- إذا إنت ما عندك مفتاح أنا عندي. جمانة راحت عَ باريس وتركت معي مفتاحها.

* * *

أشعل سيجارة مارلبورو بقداحة، ما إن أضغط عليها حتى يرتفع لهبها ويلامس حاجبيّ ورموشي وأشمّ رائحة احتراق شعر بل أحس أن نَفَس السيجارة الذي استجرّه له طعم الحريق. أرفع قنينة العرق أملأ فمي منها وألذع حلقي وحنجرتي. يصل الحريق إلى جوفي وقبل أن يسكن أعجل إلى ملء فمي بالعرق وأشربه صرفاً. أنا هكذا من الصبح وقد قارب الوقت الظهر. جسدي الذي وجدته عند استيقاظي متخشباً يتروحن وعقلي يشف بحيث أرى أفكاري الجارية فيه. يحضر في رأسي اسم فاطمة وللحال أبحث عن رقمها في موبايلي وأطلبه، رنة واثنتان وأربع وينقطع الخط، لا تريد أن تكلمني. أطلب روز التي تجيب متسائلة عن الذي صحّاني على اسمها في هذا الوقت، أقول لها إني صادفت اسمها في أحلامي، تقول لي إن عليّ أن لا أكثر الأكل قبل النوم فتأتيني الكوابيس. أقول لها إني رأيت نفسي في الجنة ورأيتها معي، فتقول لي ضاحكة إنني كالعادة أخطأت الاسم وأخطأت العنوان وتعتذر بشيء يمنعها عن المتابعة وتقفل الخط. أفكر في فوّاز وللحال أطلب رقمه:

- شو رأيك فيي؟

– إنت صديقي من زمان.

– مش هيك بدي. إنت بتحترمني؟ قلّي، بتحترمني أو لا؟ بظن إني فقدت احترامك. أعمالي مش عم ترضيك؟

– أكيد بحترمك. أعمالك إلك. أنا ما بسمح لحالي قيّمها. إنت نديم السيّد. ما فيي إلاّ إقبل شو بتعمل.

– هيذا مش جواب. أنا عمبشرب من الصبح. شو بكون بالنسبة إلك؟ تعيس بيستحق الشفقة أو بيستحق الاحتقار. بيي مستحي فيي، إنت بتستحي فيي كمان، صداقتي بعدها بتعنيك.

– إنت نديم السيد. بتشرب أو ما بتشرب ما بيهمني. بعدك بالنسبة إلي متل ما كنت وقت تعرّفت عليك. زكي وفهمان، أنا بالتأكيد ما بستحي فيك. صداقتك ما بنكرها. هيي جزء من حياتي. إذا بنكرها بنكر حالي.

أفكر في بيار، أنتظر كثيراً هنا. أراد أن يبقى. كنا دائماً معاً. يمرّ على بيتي كل مساء، بعد أن يقفل مختبره أو يتركه في عهدة شغّيله. كنت أحياناً أثور في وجهه أو أتهكم عليه، وكان يقبل مني كل شيء. ليس بيار غبياً. إنه يقرأ بثلاث لغات. يقرأ أكثر مما أقرأ فأنا ليست لي طاقته على القراءة. أنا أقرأ قليلاً، في الحقيقة لا أقرأ كتاباً كاملاً، لا طاقة لي على ذلك، أتصفّح أكثر مما أقرأ. أبحث عن أفكار، عن عبارات تلزمني في حديثي، أنتقي من الكتاب عبارات تستوقفني. أكتفي أحياناً بقراءة المقدمة، وحين أقرأ صفحتين أو ثلاثاً عن مفكر أو أديب، أستطيع أن أقولها في نصف ساعة. هنا لا أخدع، ما يهمني هو رأي الكاتب، لا تحليله ولا محاكماته أو شروحاته. هذه لا تهمني، أستطيع أن أبتكر

بدلاً منها. بيار يفلّي ما يقرأه، يتحرى كل نقطة وكل فاصلة، لكنه في الحديث يطبق فمه. لا يقول شيئاً إلا وهو متأكد منه، يرتعب من أن يكون أخطأ، من أن يكون زوّر أو أخطأ في الشرح. يعرف بيار أني أخترع، في أحيان قليلة يصحح لي، لكنه غالباً يتبنى ما أقوله، يظنني ملهماً، لا أعرف الآن كيف يفكر فيّ. لقد سافر من عشر سنين إلى كندا وهو منذ ذلك الحين لم يعد. باع مختبر والده وسافر. أرسل لي من مونريال رسالتين لكني لم أجب، منذ تلك الحادثة وأنا أتجنب أي صلة بيننا. انتقالي إلى بيروت ساعدني على تحاشيه، بقي هو في مختبره في المدينة. في المدينة كنا نتصادف أحياناً في الشارع فألوي وجهي عنه، وجدته أكثر من مرة أمام المبنى الذي أسكن فيه فلم أكلمه. أظنه لم ينوجد هناك عفواً، أظنه تعمّد أن يكون، لكني لم أكلمه. منذ انتقلت إلى بيروت لم أعد أراه. أرسل لي سلاماً مع أخي كامل ومع أبي قبل أن تنتقل العائلة إلى بيروت، حتى بعد ذلك ظللت ألتقي بأشخاص حملهم السلام إليّ. أراد مراضاتي بأيّ ثمن و لم أقبل. رأسي الأيبس من حجر ظل متعلقاً بتلك الترهات. صدق بيار، أنا أتكلم كدليل سياسي وأفكر كفلاح. الآن أشتاق إلى بيار، لو كان جنبي لأجبرني على أن أرفع مستواي، لما كنت تدهورت هكذا وخسرت تماماً احترامي لنفسي. الآن أنا أقل من أن أخشى تلك الوصمة، لست سوى رجل يتقيأ على نفسه ويحرق أحشاءه. رجل يعود في الستين إلى بيت أبيه.

* * *

في الصالون الصغير الذي نسميه المكتب البيضاوي في بيت عمي

عبد السلام التقيت بسامر العايد. إنه الصالون الذي يفرده عمي لأخصائه. كان عمي بدون ربطة عنق. شأنه حين يكون مع أحد المقرّبين، بل إنه تحرر من سترته وألبسها لظهر الكنبة. سامر تقريباً في طولي. فوداه الأشيبان وشاربه الدقيق ووجهه المستطيل وحتى بسمته تجعله شبيهاً بكلارك غيبيل. قال عمي عنه إنه رجل لكل الفصول. ابتسم سامر لهذا الوصف و لم يعترض. أثناء الحديث فهمت ما يعنيه عمي، سامر يعرف خبايا كل الطبقة السياسية، واحداً واحداً. يعرف لمن يعمل كل واحد ويعرف التكتلات السرية داخل هذه الطبقة: الماسونيين، الدستوريين الجدد، الكتلويين الجدد. أحب هذا النوع من التصنيف لكني لا أثق به، عمدته أن الناس جميعاً على غير ما يُظهرون، الناس جميعاً أسرار، للجميع حياة سرية هي التي تتحكم فيهم. أظن أن في هذا الكلام كثيراً من الخيال والفن، على هذا النحو تكلم سامر طويلاً، بعض ما كشفه كان مهماً وأنا، في غمرة استمتاعي بحديثه، فكرت بأن ألقي عليه أحجية. ذلك اليوم أي منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً كانت حادثة اليقظة لا تزال طرية. كان الشيخ أحمد الذي رابني كثيراً، موضع تقدير من صلاح وفواز وحتى بيار، من قابله منهم خرج من عنده مفتوناً به. فكرت أن ألقي أحجية على سامر العايد، سألته عن الشيخ أحمد. قال سامر إنه سمع بالشيخ أحمد وباليقظة لكنه لم يشغل باله بهما:

– الشيخ أحمد. سمعت فيه مرة. مش داري وين وكيف. فلت من ذاكرتي بس أنا مأكد إنو سمعت فيه. اليقظة كمان مش جديدة عليي، في إلها سوابق. الشيخ أحمد كان أكيد بفتح. بس شو صار

لطلع. مش بعيد تكون تركيبة داخلها. بقلك. عطيني يومين وإلك مني جواب.

كان عمي مسروراً من كوني ألقيت سؤالاً ليس لدى الرجل لكل الفصول جوابه. كان عمي الذي لم ينجب يفكر في وريث سياسي له، بين أبناء إخوته. أظن أن سؤالي دلّ على حذاقة سياسية سرّته، ربما في تلك الليلة حزم أمره، اختارني أنا الذي أشبهه وأشبه أباه وريثاً. قال لي أن أنتظر بعد أن يفرغ الصالون. استأذن سامر العايد فرافقته أنا وعمي إلى الباب. عدنا معاً، هذه المرة، إلى الصالون الكبير الذي كان بعكس الصغير واسعاً ومكوناً من حلقة واسعة تضم كنبات وكراسي غير متناسبة كأنها اشتريت من سوق الأشياء المستعملة. وجدنا في الصالون الكبير سبعة أو ثمانية من المنتظرين هرعوا جميعاً إلى الباب للسلام على عمي الذي أعطاهم يده وهو يتوجّه من بينهم إلى صدر الصالون ويجلس على كنبة مخصصة له. حاولت أن أجلس في ذيل الحلقة لكنهم أجلسوني بالفرض إلى جانب عمي الذي أسرّ لي أنه مسرور من حديثي مع سامر العايد، يكفي أني أسكتّه وأنه لم يحر معي جواباً.

* * *

قالت لي منال إن معها مفتاح جمانة. لا أنكر أنها صدمتني بصراحتها. عندها مفتاح، هذا يعني أنها تضرب لي موعداً. استحييت من أن أقبل عرضها، شعرت أنني أهينها بقبوله، أنني أهين نفسي أيضاً. مهما يكن، لن أسمح لامرأة، أي امرأة، بأن تلتقطني عن الطريق

وتتكرم عليّ باصطحابي إلى نزهة أو مشوار. لن أقبل لمنال أن تملك مفتاحاً، وأن تؤمّن لعشاقها مكاناً للقاء. هذا، لا أعرف لماذا، يجعلها رخيصة. منال قالت لي، حين بادرتها بأني أشتهي أن أنام معها، أن هذا الكلام المباشر لا يخيفها. أن فيه حباً أكثر من ذلك الكلام الذي يستدعي النجوم والأزهار لكي لا يقول ما يريده، لكي يخفي حقيقته. الرغبة ليست شيئاً نخجل منه قالت لي. قلت لها، لا أريد أن أحرجها أمام جمانة، تعرف هي كم لسانها فالت. سأتلفن لها في مدى يومين وسأكون وجدت مفتاحاً. نظرت إليّ باندهاش بقي في عينيها العسليتين ذاتي الفتحة الواسعة والرموش الكثيفة و لم يصل إلى صوتها. لا بد أنها قالت في نفسها... أهذا الذي يبادر إلى القول "بدي نام معك، ما باله لا يقبل للمرأة أن تحمل مفتاحاً". وجدت بسرعة مفتاحاً لدى صديق مسافر، ترك شقته لي شهرين كاملين. مثل هذه الأشياء لا تعجزني، أنا معتاد عليها. تلفنت لمنال في بيتها، فهي ذلك الحين من القليلين الذين تحوي بيوتهم تلفونات خاصة. لم تخفِ ارتياحها. شرقط صوتها من بعيد. لا بد أنها ابتسمت للتلفون.

كانت الشقة في الحمرا، صعدت على قدمي إلى الطابق السادس فالكهرباء مقطوعة. سررت حين دار المفتاح في القفل وسررت قبل ذلك حين وجدته، كما اتفقنا، تحت الممسحة. حدث عجائبي كلقاء امرأة في الطابق السادس في شقة خالية لا يستبعد فيه شيء. حدث أكثر من مرة أني لم أجد المفتاح أو أن المفتاح الذي وجدته لم يدر بسهولة في القفل. دار المفتاح في القفل بسهولة إعجازية، انفتح الباب وصافحت عيناي في البدء ذلك الخلاء الساكن وراء الباب

الممتد في الكولوار الطويل المتنقل على الكنبات المغطاة بالقماش. تفقدت الصالون ثم تبعت ظلي في الكولوار، كانت هناك غرفتا نوم من الجانبين. انتهيت إلى غرفة صغيرة في آخر الشقة رُصت جوانبها بالكتب وفي الوسط منها سرير، لم تكن غرفة للنوم ولا للقراءة آثرتها على غرفتي النوم، فقد شعرت أنها للاستراحة وأنني هكذا لا أعتدي على شيء فيها.

رنّ الجرس مرتين متلاحقتين، ذهبت وفتحت الباب. أهدتني منال لحظة واجهتها ابتسامة كبيرة ضحك لها الباب والسقف. دخلت وما زالت ضحكتها تفعل. مررنا من أمام غرفتي النوم. سخرت من الشراشف المرسومة بزخارف عربية، قالت إنهما غرفتان للصلاة لا للحب. حين وجدت نفسها في الغرفة الأخيرة التي رُصّت في جوانبها الكتب قالت إنها قبر ثقافي. وقفت وتصفحت أغلفة بعض الكتب التي أعادت صفَّها في أمكنتها.

جلسنا على مقعدين متقابلين. كنت أخشى أن نستنفد اللحظة في الحرج أو أن يوقعنا الارتباك في أمور عادية تكسف هذه اللحظة وتمتصّها. خشيت أن لا نجد، ونحن نرتجل، طريقة مناسبة لإطلاقها. لكن منال لم تنتظر أي إشارة. نهضت عن المقعد واتجهت إلى السرير وهي ترفع العقد من عنقها حوالي شعرها وتتلقاه بكفها وتضعه جنبها على السرير، جلست على السرير ونزعت السترة الجلدية وضعتها بترتيب جنبها، ثم نزعت القميص المعرّق فظهر لونها القمحي، بدا ثدياها ملزوزين داخل السوتيان. كانا عارمين من فوقه فيما لونهما الأكثر بياضاً يحبحب من داخل شبكه. كانا هكذا يشرفان على خط

انحداري يكاد الظهر فيه يلتصق بالبطن، ثم يربو قليلاً عند الحوض، بينما تنفذ من تحت البنطلون إمارات الشعر التي تسرّبت من تحت مطاط الكيلوت.

أخذت تخلع البنطلون وتسحبه من وسطها. ظهرت الساقان المصقولتان ثم الربلتان الرائعتان. أنهت سحبه فرتبته جنبها على السرير. كان قفصا السوتيان وقطعة الكيلوت توزع الجسد على ثلاث مراحل متناسبة، كل منها يشغل ثلثه. فيما يتقابل انحدار البطن وانحدار الظهر الذي ينتهي بردف تفاحي ويتقابل منحنيا الخصر من الجانبين ويتقابل الردف التفاحي مع امتلاء الحوض، فتتشابك المنحدرات بالمرتفعات والمنحنيات بالخطوط المستوية.

طلبت مني أن أقترب، نزعتْ سترتي وحلّتْ أزرار قميصي فنزعتهما وألقيتهما جنب السرير. فكّت حزامي وحلّت زرّ بنطلوني فخلعته ورتبته جنب السرير. قالت انزع سوتياني وكيلوتي بيديك. فيما كنت أفكّ السوتيان من خلفها ألقت ظهرها على صدري فأحطته بذراعي وغلغلت يدي في صدرها. نزعت كيلوتها فقالت "احضني احضني بقوة". حضنتها حتى تطابق جسدانا. صارا قطعة واحدة. قالت:

– على مهلك، على أقل من مهلك. بدي ياك تكون لطيف قد ما فيك. بصراحة أنا عذرا. بس هلق بدي تفتحني. ما بدي انوجع، ما توجعني فهمت. على مهلك، على أقل من مهلك.

* * *

عندما قلت لبيار إننا سننتقل بعد يومين إلى بيروت هرب الدم من وجهه، كان يعلم أنا نتهيأ لذلك. والدي، بهمّة عمي، نقل عمله إلى بيروت وأنا نجحت في اختبار أساتذة الثانوي وعيّنت، بهمة عمّي أيضاً، في ثانوية الغبيري. مع ذلك أعتم وجه بيار حين قلت له إننا سنغادر بعد يومين. كنا جالسين على شرفة منزلنا، نشرب الشاي، لا بد أن بيار في طريقه إلى الشرفة لاحظ أن الكتب مرزومة في صناديق فقد كنا بدأنا الاستعداد للرحيل. ما إن وقعت عباراتي في أذن بيار حتى تغيّر لونه، قام من جلسته وأخذ يتمشى على الشرفة بدون أن يتكلم وبدون أن يلتفت إليّ. كان تقريباً يجرّ قدميه وحين سألته:

– شو باك حايص ومش قادر تهدا؟

نظر إليّ بطرف عينه، مطّ شفتيه بما يشبه التهكم ثم لوى رأسه بين كتفيه وعاد يجرّ قدميه ويتابع تمشّيه. كان قد خرج نهائياً من الجو و لم أعد أجد وسيلة لاستعادته إليه، في الحقيقة لم يعد هناك جوّ، أنا أيضاً صرت خارجاً. كنت أحتمي مجدداً بالشكليات شاعراً بأن التظاهر الذي حمى علاقتنا يهتزّ أيضاً ويبدو مرة أخرى مهدداً وبلا سقف. مرات اقتربنا من هذا الحد وتجاوزناه، اليوم اقتربنا أكثر من أي مرة أخرى. تركت بيار يتمشى وغرقت أنا في أفكاري. لم أنتبه إلا وبيار يتعثر بمنضدة ويقلبها أرضاً، قلت له بحدة مفتعلة:

– اهدا، اقعود.

رمقني هذه المرة بنظرة فيها من الاستغراب قدر ما فيها من الاتهام،

لكنه مع ذلك جاء وجلس. بل وضع رأسه بين يديه وأسند مرفقيه إلى الطاولة، ظل وجهه منكباً إلى الطاولة وقتاً، خلت معه أنه هدأ. إلا أنه رفع رأسه بعد قليل وحدّق بي برهة ثم وقف وهو ما يزال في تحديقه ورمى في وجهي عبارة:

- عامل حالك مش عارف. شو كذاب. كذاب ومحتال.

أنهى عبارته وهو يوارب الباب مندفعاً إلى الخارج. بعد قليل رأيته تحت الشرفة يمشي متخبطاً. رفع رأسه ونظر إليّ ثم اندفع بدون أن يلتفت إلى الخلف. لم تكن هذه المرة الأولى التي يستعيض فيها بيار عن كلام ابتلعه أو حبسه في حلقه بشتيمة لي أو لنفسه، شتيمته أراحتني. خلت أن الأمر انتهى عند هذا الحد.

اليوم التالي جاء بيار بين زمرة مودعين. كان أنيقاً بقميص أزرق سماوي وبنطلون بنّي على أسود، جلسنا في الصالون. حملت أختي الجميلة يسرى القهوة واستطاعت قامتها الممشوقة وابتسامتها أن يضيفا أنساً إلى الجلسة. أثناء القهوة سئلت عن مصير الحرب وبدأت أتكلم عن أزمات أطرافها وفجأة، وفي وسط حديثي، قاطعني بيار:

- إحكي عن أزمتك إنت. أزمتك الخاصة، بنحكي عن أزمات العالم وما بنعرف أزمتنا. أزمة نفسية، اقتصادية، جنسية. بس أزمة عايشينها وبنعرفها.

كان يتكلم بصوت عال وأعلى بكثير من وتيرة كلامي. صوّب كلامه إليّ وبدا بسرعة أنه مواجهة بيننا. قال "أزمة عايشينها وبنعرفها" وهو يصرّ على أسنانه وكأنه يفضح كذبة كبيرة. حاولت أن أعود إلى النقطة التي تركتها بسبب مقاطعته لكني لم أجدها، أحدث

بيار فجوة لا ينفع إنكارها، انتقلنا بسرعة إلى المزاح ورواية النكات، ثم أخذ المودعون في الانسحاب واحداً واحداً وبقيت أنا وبيار. كان الوقت أوائل المساء، جاء بيار وجلس بقربي. نظرت إليه، كان ممتقعاً، بل وعيناه حمراوان، نهض عن كنبته وقال:

– اسمع أنا قررت إحكي. إنت عامل حالك مش عارف. بس إنت بتعرف، ما فينا نظل بهـ الكذبة اللي صارلنا سنين فيها. أنا ما عاد فيي. إنت رايح عَ بيروت، بتقلّي بيروت مش بعيدة. صحيح. بس ما رح نكون بوجّ بعض. ما بيسوا نبعد وفي شي بيناتنا ما انقال. إنت صديقي وبتعرف قديش بتعنيلي، بس في شي ما قلتو ولازم هلق قولو. أنا بحبك مش متل ما بيحبك بيّك أو خيّك أو صحابك الباقيين. أنا بحبّك، بحب جسمك وعينيك وقامتك، بحبك وبشتهيك. إنت بتعرف إنو أنا أومو، مثلي متل ما بيقولو وبعرف إنك مش هيك، وأنا قابل. بس لازم تعرف، إنت مش أومو بس لازم تعرف كيف بحبك، أقلّو تعرف. ما بدي أكتر. خليك متل ما إنت، تطلّع فيي متل ما بدك، أنا ما بدي شي منك، بس لازم تعرف كيف بحبّك.

لم ينتظر بيار جوابي كرّر "لازم تعرف كيف بحبك" تراجع إلى الباب، فتحه، وبدون أن ينظر إليّ، خرج هارباً وسمعت دعساته على الدرج إلى أن فقدت أثرها. حرّرني بيار من الجواب. ما كنت عرفت كيف أجيب. ما كنت قادراً على أن أفكّر. خرست تماماً من الداخل والسؤال الذي لم أفكر فيه بعد هو ماذا أفعل بصداقة بيار بعد هذا الحديث. تكلم أخيراً، طالما تجنبت الوصول إلى هذا الموقف حتى خلت أنه لن يحدث. بيار مجنون، إذا كان يدرك أنني لن أجاريه فلماذا

يريدني أن أعرف. أعرف ماذا، إنه يشتهيني وإنه يفكر في عضوي فيما أنا أتكلم عن الرواية الروسية مثلاً، أو عن الحرب اللبنانية. أن أمازحه وأنا أعرف أن باله في حوضي وبين ساقيّ. معه حق، أنا أعرف أنه مثليّ وأنه يمكن أن يفكر بي كرجل، لكني ظننت أن السنين الطويلة، من المدرسة حتى اليوم كافية لإخراج هذا الموضوع من بيننا. تأملت أن تكون السنون فعلت ذلك. تأملت أن يكون السكوت عن هذه المسألة يعني أن لكل واحد طريقه وأنه حرّ فيه، لكن أن أسمع من بيار أنه يشتهيني وأن يريد أن أضع هذا في رأسي، ماذا يبقى لنا إذن لنفعله معاً، ما الذي يمكننا بعد أن نشترك فيه. كيف أستطيع مثلاً أن أخلع قميصي أمامه وأنا أعرف أن هذا سيكون تعرياً بالنسبة له وسيهيجه أن يرى عضلات صدري. كيف يسعني أن أكون موضوعاً جنسياً لرجل، مجرد هذه الفكرة تخيفني، مجرد فكرة أن رجلاً ينظر إلى ما تحت ثيابي تجعلني أتضايق من جسدي. جدي عاش مع زوجتين، لكنه تمتع بعدد آخر من الأرامل والمطلقات، في الثمانين كان يقول لي حين أدخل إلى الدار بصحبة فتاة "خليك رجّال يا جدي". أعمامي وأبي ملأوا البلدة والقرى المجاورة بغزواتهم. كنت من عائلة رجالها معتدُّون برجولتهم ونساؤها معتدَّات بأنوثتهن، رجالها فاتكون ونساؤها فاتكات. رجالها وسيمون ويعرفون قدر وسامتهم ونساؤها جميلات ويعرفن قدر جمالهن. كان الجنس موضوعاً سائغاً لدى النساء والرجال، ما كان يخطر لأحد أن يشتهيه رجل. عمي عبد الأمير الذي تزوّج واحدة من شغيلاته بعد أن أحبلها أثناء الشغل جاءه منها ولد كانوا يهمسون بأنه يعاشر الحيوانات، ثم قيل

إن شهوته انقلبت أي صار مثلياً. كان عمي عبد الأمير ينكّس رأسه إذا جاء ذكره ولا أظن أنه حزن كثيراً حينما شرب الديمول وتوفي. لم يبكه أحد في العائلة سوى شقيقته وأمّه. الجميع شعروا أن الحياة ستكون أفضل بعده. أنا صادقت بيار. لم أكترث لميوله. لم أهتم حتى لظنون الناس في علاقتنا. لكن كيف تريدني أن أستمر في صداقة رجل يشتهيني.

* * *

والدي يعتبر أني أؤثمه. في سنه هذه لا يجوز أن تلعب القناني في البيت، أن تفوح رائحة العرق من البيت كلّه. واجبه أن يطردني من بيته لكنه لا يعرف إلى أين أذهب إذا طردني. يقول هذا أمامي "ديني بيأمرني إني أطردك من بيتي، بس لوين بدك تروح. مين فاضي يعملّك بيتو خمارة". أنا أذهب إلى بيوت إخوتي، هم يشربون لكنهم لا يبدأون الشرب من الصبح ولا تتلجلج ألسنتهم في حلوقهم باكراً. أذهب إلى بيوتهم، لكنهم ما إن ينصحوني بأن أقلّل من شربي حتى أشعر أن الجو لم يعد مؤاتياً وأعود إلى بيت أبي، حيث اعتدت أن ينهرني هو وأن تبكي أمي. حين أذهب إلى مقهى أصل وأنا سكران تقريباً، أشعر أن الأصحاب يتجنبونني فلا ألحّ عليهم ليبقوا معي. أنا نديم السيد ولن أتسوّل صحبة الناس، لن أترجاهم أن يبقوا معي، لن أتصرف كرجل طردته عائلته. سأظل أتظاهر بالكبرياء، سأظل كما ينبغي لرجل في مقامي. لكن هناك الروماتيزم الذي يمنعني من أن أقف ثابتاً على قدمي، الذي يجبرني أحياناً على أن أتوكأ على عصا،

كيف يمكنني أن أظهر كبريائي وأنا بالكاد أسحب قدمي وأنا أضع ثقلي على عصا. أشعر أن هذا يهينني أمام الناس، إنني هكذا أبدو أمامهم تعيساً وكسيحاً.

* * *

قالت لي إن معها سيارة أبيها البيجو وإنها تريد أن نذهب معاً إلى فاريا. على الطريق كنا تقريباً صامتين، أنا أتأمل من الزجاج المشاهد التي تتلاحق في هذا الصباح المشرق: بضع أشجار يتيمة تتمايل وحدها في الزاوية. صفحة جبل مغطاة بشجر شائك، رواب مطوقة بجلول منتظمة، جدول صغير، دغل صغير، مساحات مغطاة بأزهار الربيع المبكر. كانت هي تقود السيارة وقد دست في مسجلتها قرص سي. دي. عليه رباعيات الخيام من غناء أم كلثوم. كنت أسمع أم كلثوم على خلفية المشاهد التي تمرّ. أوقفت منال السيارة في منعطف وقالت:

- خلينا نولّع سيجارة.

أشعلت سيجارتين، ناولتني واحدة ووضعت الثانية في فمها. عندئذٍ واتتني الفكرة التي لم أتأخر في تنفيذها، سحبت السيجارة من فمها ونزعتها من فمي، بذراعي وجذبتها نحوي. كانت تتوقع حركة كهذه إذ إنها ارتمت على صدري ومسّت شفتي بشفتيها بسرعة ثم عادت وأطبقتهما على شفتيّ. امتصّت شفتي السفلية فالعليا ثم مزجت ما بين الشفتين وأولجت لسانها الذي التقطته بأسناني التي أمسكته وضغطت عليه ضغطاً خفيفاً. كان صدرها في

صدري وجسدها مطابقاً لجسدي الذي يطوقها بإحكام فيما كان ساقاها ملزوزين بين ساقيّ. كان جسدي بدأ يفور برغبتي حينما سمعنا صفيراً وصيحات "عمهلك عليها. شو هـ المناظر بالشارع. ما عندك بيت". كانت سيارة تمرّ قربنا توقفت جنبنا ونزل منها اثنان وبدآ يراشقاننا بحبات العنب من خصلة في يد أحدهما. انفصلت منال عني وعادت إلى المقود فيما أنا ابتعدت إلى آخر المقعد. عاد الاثنان إلى سيارتهما التي أقلعت فيما منال أدارت، بصمت كلّي، المقود وتابعنا الطريق.

ظهرت طلائع الثلج، كان الثلج ينير المنطقة كما لو كانت السماء على الأرض، بضعة متزلجين كانوا ينحدرون من الأعلى أو يجرّون زلاجاتهم. قادت منال السيارة إلى وسط الساحة حيث أوقفتها. نزلنا وصعدنا إلى مقهى تعرفه. كان مقهى أنيقاً، وجدنا بضع طاولات مشغولة بكوبلات تتحدث بهدوء بحيث أحسسنا أنها هكذا تضاعف الصمت الذي يسود المكان. استدعينا بإشارة يد الغارسون وطلبنا للاثنين كابوتشينو. الحديث سهل مع منال، من أين بدأنا نجد استمراراً للكلام. بدأنا من رباعيات الخيام التي سمعناها من أم كلثوم في السيارة وانتقلنا إلى رواية سمرقند لأمين معلوف. وصار الحديث عند أبو نواس. قلت لمنال إني أحبها. نظرت إليّ بكل العسلي الغامق في عينيها وأحاطتني ملياً بهما و لم تجب. بدا وكأنني بكرت بهذا الاعتراف، وعندما سألتها إذا كنت فعلاً بكرت قالت لي إنها لا تعتبر الحب أمراً سهلاً. إنه بالنسبة لها التزام قاس وينبغي أن نبنيه ببطء وباحتراس وبخوف. نعم بخوف. إذ إنه نوع من النذر الذي يشبه نذر الرهبنة. الآخر عند ذلك يصبح قضيتك

وعليك في كل لحظة أن تتأكد من ذلك. عليك في كل لحظة أن تمارس ذلك التجاوز المتعب للذات، أن تجهد نفسك لتقوم به، إذ عليك أن تفكر بنفسك كاثنين، أن تعين للآخر محلاً دائماً في وجودك. ذلك ينفي أيّ سهولة وأيّ عفوية وأيّ استقلال. قالت منال إنها لامست ذلك مرة واحدة وهربت بمجرد شعورها أنها اقتربت منه. هربت وحسناً فعلت، إذ إنها اكتشفت أن الآخر لم يكن قادراً على تحمل ذلك، فعل المستحيل ليصل إليه لكنه كان يتراجع على الدوام. قلت لها إنني لا أفهم ما تقوله، لا أفهم هذا النذر وذلك التجاوز المتعب للذات. لا أفهم أن أفكر كاثنين وأن يكون الآخر قضيتي. الحب إذا استحق ما نفعله هذا الاسم هو بالنسبة لي تحرير، إنه طاقة تساعدنا على أن نمارس أنفسنا بسهولة وحرية، لا أفهم أن يكون عبئاً والتزاماً. كانت تسمعني والضحكة في عينيها. قالت إنها سعيدة لأنني أقول إنني لا أفهم، هي ترتاب في هؤلاء الذين يظنون أن كل ما يقال باسم الحب موجود في طبيعتهم ولا يحتاج إلى تفكير. الحب، قالت منال، لا يوجد في جيناتنا إنه تطلّع، إنه نوع من تجاوز الإنسان العادي. إن صعوبة أن نكون اثنين مفرطة، الإنسان يستطيع بسهولة أكبر أن يكون وحيداً أو أن يكون جماعة، حزباً أو عشيرة أو شعباً، لكنه لا يستطيع بسهولة أن يكون اثنين. قلت لها إنني فعلاً لا أفهم. أمسكت جزدانها وقالت "يالله نرجع".

أكلنا على الطريق سندويشات اشتريناها من المقهى. كانت منال مرحة ودغدغتني كي أضحك. لاحظت أنها حادت عن الطريق الرئيسي ودخلت في طريق فرعية. أوقفت السيارة وبمجرد ذلك ارتمت عليّ وقبّلتني في فمي وعنقي، كان المرح يداخل الرغبة في كل

ذلك، فتحت باب السيارة وأخذتني من يدي، فتحت الباب الثاني وصعدت أنا إلى المقعد الخلفي، تبعتني وارتمت عليّ. رفعت تنورتها وشعرت بها تفكّ أزرار بنطلوني سألتني:

- بتحب إطلع عليك.

و لم أجب. كنت صرت فيها.

حين نهضت عني سمعت صوتاً نحيلاً يسأل:

- شو عم تعملوا؟

نظرت فوجدت طفلاً هزيلاً ينظر إلينا بعينين مفتوحتين على وسعهما. جاء من البيت الذي كان على بعد عشرين متراً تقريباً، قبالتنا.

* * *

لم يكن عمي عبد السلام النائب يتلفن لنا إلا نادراً، يتحجج بأشغاله، نحن الذين نتلفن له. كان مشغولاً بالطبع لكن السبب ليس هنا، ليست مسألة أشغال لكنها مسألة مقام، كانت العجلة إلى أي شيء، التلفون أو سواه، تهين المقام، ترخصه. عبد السلام لم يكن أكبر الأبناء، ذلك كان والدي لكن والدي معلم بسيط مثل المئات وربما الآلاف التي تملأ المدارس. في البداية حفظوا له مقام البكر فكان من حضر من الإخوة والأخوات يلتمون عنده في الأعياد. تابعهم عمي عبد السلام على ذلك في السنة الأولى من نيابته لكنه في السنة التالية حرد ولزم بيته. حين لم يجده والدي بين زواره من العائلة قال لهم:

- هلق بنرتاح وبنشرب قهوي وبنتحلّى وبعدين بنروح سوا نعيّد

خيّنا عبد السلام. هذا نائب والناس بتجي تعيدو من الصبح. حقو يقى ببيتو.

بالفعل ذهب الجميع لتعييد عبد السلام ومنذ ذلك الحين تأتي العائلة صباحاً لتعييد والدي ثم يذهب الجميع إلى بيت عبد السلام. عندما رجعت إلى البيت في الثالثة بعد الظهر من المدرسة التي أعمل فيها، قالوا لي إن عمّي تلفن ويريدني أن أذهب إليه حين يسمح وقتي. عجلت بالذهاب فعمّي، كما قلت، قلما يتلفن ولا بد أن الأمر هام حتى يفعل ذلك. أدخلني الخادم السيريلانكي إلى الصالون الصغير حيث وجدت عمي بالقميص المقلّم ومعه على كنبة ثانية قريبة سامر العايد بشارب كلارك غيبيل. قال عبد السلام وهو ينهض لاستقبالي:

– منيح إللي جيت. الأستاذ سامر كان طالع.

الأستاذ سامر الذي ما يزال بربطة عنقه وجاكيت طقمه ابتسم بعينيه وشاربه وهو ينهض لمصافحتي، سألني عن أبي الذي أشك في أنه يعرفه. سألني عمي عبد السلام عن العائلة، ثم صمت الاثنان دقيقة طويلة هيأت للانتقال إلى الموضوع. تكلم سامر:

– شوف يا أستاذ. سألتني عن الشيخ أحمد وقلتلك عطيني يومين. هذا الحديث صارلو أسبوع. صار لازم نرجعلوا. الشيخ أحمد يا سيدي عايش بالمخيم، صحيح، بس مش فلسطيني. أصلو سوري. سنة التنين وتمانين لما فاتوا الإسرائيليي مسكوه على حاجز. حطّوه بأنصار. قعد فيه سني. في حكي عنو. بس بهالموضوع ما في شي أكيد. بيقولوا إنو من زغرو علّق عَ المخابرات. بيقولوا إنو في كتار نحطّوا بالحبس من تحت إيدو. يعني إلو إعدا كتار. بيقولوا إنو دخل بالمشاكل بين القيادات.

خلاصتو إنو ما في حدا مستغرب إنو انقتل. بيقولو إنو كان عميفرفر بدمّو. إسلاميتو في حكي إنها ستار مش أكتر. كلّن بيقولوا إنو كان كتير زكي وحكيم شاطر. بس سرّو غميق ما حدا بيقفرو.

كان عمي عبد السلام القريب من السوريين، شأن معظم نواب لبنان آنئذٍ سعيداً بأن يعرف أنه سوري. هذا يناسب صورته التهويلية للنظام السوري التي تحسبه وراء كل شيء وفي كل مكان. كان سعيداً أيضاً بكلام سامر، هذا يؤكد فكرته عن السياسة التي هي بالنسبة له دهاء وشطارة وأسرار ومكائد ومصائر مظلمة. عمي النائب، رغم صفته السياسية، كانت السياسة تبهره كما تبهر المدينة القروي، ويتأملها من بعد كما لو كان يشاهد فيلماً سينمائياً.

* * *

حين تلفنت لصلاح قالت لي هالة إنه في الحمام. لا أعرف لماذا لم أستطع أن أتخيل صلاح عارياً. كان بالنسبة لي يرتدي عويناته ولحيته التي بدأ يربيها ويشذبها لتماثل لحية لينين. لم أتخيله أيضاً تحت الدوش يلعب بالمياه كما أفعل أنا. نصف ساعة ويرن التلفون ويتحقق ظني بأن صلاح على الخط. قال من بعيد:

– كيفك. اشتقنالك.

– كيفك إنت. كيفها إجرك.

– الديسك ما تاركلي حيلة. سقّط على إجري الشمال وهات يا وجع. عمبمشي بالعصايي. خلاصتو شو عمتعمل؟

– أنا ولا شي عمشوف الناس شو عم تعمل.

- إنت مش عمتشوف شو بتعمل الناس. إنت بتخربلها شغلها، أنا بسميك عامل سلبي. يعني واحد بيشتغل كتير لحتى ما يشتغلش.

- العفو أنا مش قدّ هـَ المديح.

- شو أخبارك؟

- مبارح شفت واحد ما بعرف إذا بتعرفو، سامر العايد.

- سامر العايد أي سامع في. مش هذا عميل المخابرات؟

- مش على علمي.

- مبلا. معروف. شو عمبيقول؟

- سألتو عن الشيخ أحمد. قاللي إنو عميل مخابرات كمان.

- مش صحيح، الشيخ أحمد ممكن يكون حالم. بحلمو روّح صفوان وسليم وراح هوّي. هذا أخطر من عميل مخابرات. بس أنا شفتو، لا حياتو ولا طبعو ولا لغتو ممكن تدل إنو رجّال مخابرات. يا ريتو هيك. ما كان دهور حالو ودهور غيرو.

- بس سامر بيقول إنو هذا معروف. من زغرو معروف إنو عميل.

- شو بدّك بهـ الحكي. حدا بيصدق سامر العايد، سامر من زغرو معروف وما حدا طالو بكلمة. لو الشيخ أحمد كان عميل متل ما بيقول، كان خلص بحياتو، ما كان عمل هـ الكوارث.

* * *

أمشي وأنا أرتعد. مفاصلي لا تحملني. آخذ دواءً، حبوباً للألم، لكنني لا أعرف إذا كانت فعالة مع الكحول. البارحة ذهبت إلى الطبيب

لكنه حذرني من الكحول، قال إنها بدأت تؤثر في الكبد، قال لي بصراحة إنني إذا داومت على هذه الحال لن أصمد أكثر من سنتين. البارحة مرّت عليّ ابنتي. قالت إنها كانت في الحيّ و لم تحب أن تتركه قبل أن تمرّ عليّ. دخلت فوجدت القناني مصفوفة وطفايات السجائر ملأى، قالت إني هكذا أقتل نفسي، وبكت، بكت من أجلي أنا الذي لم أبكِ من أجل أحد. ارتعش قلبي وأنا أراها تدمع، شعرت بأنها هكذا تندبني. أجسر على أن أقول لنفسي إني منهار وإني في الحضيض وأستحق أن تندبني ابنتي. أقولها لنفسي ولا أقولها حتى لابنتي فأنا نديم السيّد حتى حين أصبح سلّة عظام ومصفاة كحول. أنا نديم السيّد حتى حين يتلجلج لساني من السكر. لن أكون معرة لأحد.

* * *

قلت لمنال "بدي أتجوزك ومش عارف ليش"، فردّت "أنا كمان، رح إقبل ومش عارفة ليش". قلت لها "ما عم بفهم عليك. ممكن هذا اللي عم يغريني فيك"، أجابت "إنت أول واحد بيقول إنو ما عم يفهم، الباقيين بيقولو إنهن بيفهمونا أكتر ما بنفهم حالنا ولمن بنصدّق بنفوت بسوء تفاهم أبدي". قلت لها، "يمكن سوء التفاهم هو القاعدة الصلبة للجواز ولكل مشروع تاني". هكذا تزوجنا أنا ومنال.

منال حسّون

عندما قال لي نديم "بدّي إتجوزك" لم يذكر أي سبب. كان هذا رائعاً. بدا الأمر نافذاً وكامل الحضور بحيث لم يحتج إلى أسباب. بدا كأن نديم استعجل الوصول إلى النتيجة لكي لا يضيع في المقدمات. كان هذا رائعاً. قاله وكأنه حتمي أو أنه إلزام من القدر والمصير ولا يحتاج إلى تفكير. هكذا إذن لم نفكر. طرنا إلى قبرص وعدنا زوجين. وجدنا بيتاً ففي سنوات الحرب لم يكن هذا شاقاً. كنت سعيدة. سعادتي هذه كفتني سنوات، ففي تلك الآونة اعتبرت أن أجسادنا أجهزة لاقطة لأصوات الكون وأن صوتاً كونياً هو الذي أوحى لنا بهذا الزواج. أمضينا أوقاتنا الأولى في الشارع وفي المقاهي والمطاعم، كنا دائماً في الخارج نتناقش مع الأصدقاء والأصحاب في كل شيء، في الدين والحب الحر والثورة والماركسية والوجودية والنسوية والأدب الحديث وسينما فلليني وبازوليني وفيسكونتي واليسار والجاز وفيروز... ونعمّر عشاءات ضخمة نشرب معها عدداً خيالياً من قناني العرق. كنا دائماً في الخارج وبين الأصحاب حيث

يتاح لنديم أن يبدي ظرفه وذكاءه وقدرته على تخريج الكلام ورصفه وبالطبع وسامته، أنا أيضاً كنت أبدي قوتي وحضوري. لم يطق نديم أن يبقى وحده ساعة، كان دائماً يقترح أن يخرج وبالفعل يجد نفسه بين الآخرين.

الأشهر الأولى من زواجنا كان طلقاً وفاتناً وجاهزاً دائماً للنكتة والمزاح. بعد هذه الأشهر أظن أنه اعتادني فلم أعد مستمعه المثالي، لم أعد جمهوره. صار يعرف كيف يضحكني ومتى يضحكني ويجدني دائماً جاهزة له. لم يعد يحتاج إلى فنه معي، صرنا نضحك لمجرد الإشارة إلى أمر سبق أن أضحكنا، صرنا نضحك على ضحكنا السابق. بدا أننا هكذا استنفدنا مخزوننا من الكلام والضحك، فقدنا الحاجة إلى الاختراع، بالأحرى فقد الحاجة إلى الاختراع، صار يستسهل ولا يقدح ذهنه. لا أعرف إذا كان بقي لديه ما يخترعه، أنا بالتأكيد لم أعد أكفيه، لم أعد أحفزه إلى الابتكار. ضجر مني، قد لا تكون هذه هي الكلمة الصحيحة، الأفضل أن أقول إنني لم أعد جائزته. بدأ يتشاغل حين نكون وحدنا معاً، يأخذ كتاباً وينزوي به. صار يصمت شيئاً ما في حضوري، ثم أخذت فترات صمته تطول، وبالطبع أعداني بصمته، صرت أنا أيضاً لا أجد ما أقوله في حضوره، صرنا نتبادل الصمت. ثم أخذ يخرج ويتركني وقتاً أخذ يطول، هكذا بدأنا نتسابق إلى اقتراح الخروج، نخرج إلى "الجندول" مقهى كان يومذاك ملتقى أصحابنا، ما إن يجلس نديم بينهم حتى تتجدد موهبته، يمسك الحديث ويقوده عاثراً كل لحظة على طرفة تلقى الإعجاب، يطلق في فضاء الجلسة ألعابه الكلامية ويتلقى عليها ضحكات مدوية. كان

هذا بالطبع يرضيه ويحسّن مزاجه ويزيده تألقاً، يجعله زعيماً ويدفع كثيرين إلى استرضائه والدوران حوله، يدفع كثيرين إلى أن يكونوا من حلقته. ذهبنا في يوم إلى الجندول وحين وصلنا لم نجد أحداً من أصحابنا، لم نجد أحداً بالمطلق. لا أعرف ما هي المناسبة، قد تكون شجاراً في الناحية. قد تكون يوم عطلة فاتنا تذكره لكننا لم نجد أحداً من أصحابنا، لم نجد أحداً بالمطلق. تكدر مزاج نديم وتبعه مزاجي وانزوينا صامتين نشرب قهوتنا وبالكاد نطيق أنفسنا. لا بد أن عبوسه جرّ عبوسي وضجره جرّ ضجري. هكذا جلسنا قبالة بعضنا البعض وكأن كلاً منّا يذنّب الآخر أو على الأقل يندّمه على أنه جاء معه.

مع ذلك كنت ما أزال سعيدة بنديم، وسامته وحدها تكفيني. كان يظللني بحاجبيه ورموشه وقامته الطويلة، يكفيني أن أنظر إليه لأهنّئ نفسي على أن لي، أنا وحدي، كل هذا الطول والوجه القاسي العظام والكتفين الصلبتين. كنت أنظر إليه هكذا كلما دبّ بيننا شيء يشبه الملل لأذكر نفسي بأن لا شيء يحرمني من هذه القامة التي تبقى لي رغم التفاصيل السلبية. بهذه القامة يستطيع نديم في أي وقت، وأي ظرف أن يجدّد سعادتي به.

* * *

نديم تربّى في عائلة كثيرة العدد، عائلة مقصودة والناس تجد دائماً سبباً لتزورها في دارها، كان هناك دائماً هذا الخليط من الأهل والزوار. قلما تذهب العائلة إلى الغداء والعشاء وحدها، هناك دائماً آخرون على المائدة، قلما يفرغ البيت من الضيوف. بالطبع لم يسرّ الأبناء

دائماً بهذه الخطة. الفتيات على وجه الخصوص كنّ لا يجدنَ في أحيان مكاناً للخلوة، وحتى لتبديل الملابس، هذا بالضبط سبب للبرم والتذمّر. لكن ما إن يفرغ المكان، لسبب من الأسباب، حتى يشعر الجميع أن البيت يصفر وأن حجماً من الفراغ دبّ فيه. ما إن يفرغ البيت حتى يحس الجميع، رغم كثرة الإخوة والأخوات، بنوع من العزلة والوحشة. هذا ما رواه لي نديم. أما أنا فنشأت في عائلة صغيرة، أخ وأخت فحسب. كان بيتنا وسط جنينتنا ولا يشاركنا فيه إلا صناديق التفاح التي ننقلها إلى الداخل بأيدينا. نستقبل في آخر الصيف عاملاً أو عاملين يقضون معنا إلى نهاية الفصل. بيتنا في طرف القرية على تلة منها وقصّادنا ليسوا كثراً وإذا زاد عددهم ضاق المكان بهم، أنا وأختي نجد إذ ذاك مشقة في تدبير خلوة لأنفسنا لنراجع دروسنا. وفي كل الأحوال، ما إن يطل أحد علينا حتى نختبئ في غرفة داخلية ونمتنع عن الخروج منها تحسباً لأن نخطر من أمامه أو نصادفه. يزورنا الناس، ليس في كل وقت، العصر هو موعد الزيارات والأبوان وحدهما يجالسان الزوار الذين يغادرون ما إن يلوح المغيب. بيت نديم لم يكن لأهله وحدهم، جعلت في أصل بنائه منامة للضيوف ومضافة للزوار، كان لأهله ولغيرهم. وبالطبع فإن خلوّه من الزوار يعني شيئاً كالكساد أو العطالة. خلوّه من الزوار، إذا طال، صار نوعاً من الحداد والفراق، صار هجراً يغمّ أصحابه ويزويهم. امتلاء البيت بالناس يحييه فهذا ربيعه وشبابه أما أن يقفر منهم فهذا يفقره ويميته. نديم كان ينغمّ إذا لم يجد أحداً بخلافي أنا التي تكفيها في أحيان خلوتها. يمكنني أن أقضي ساعات لا أفعل سوى تشرّب

الفراغ، والعوم فيه والتمتع بالخلوة. أشعر عندها بأن عبئاً زال عني وعن الأشياء، فالخلاء يجعلها خفيفة وجديدة. أستطيع أن أمضي وقتاً أتطلع فيه بالسقف بدون أن تعترض ذلك حتى فكرة.

في البداية احتفيت بهذا الوجود الدائم وسط الناس. كان ذلك يسرق الوقت فلا نشعر به ويبعدنا عن أنفسنا فلا نجرها معنا. كنا نختفي في الجو فلا نشعر بمرورنا فيه. لكني بدأت شيئاً فشيئاً أحس أني أفقد نفسي وسط هذا كله، إني أنتقل من جوّ إلى جوّ ومن جلسة إلى جلسة دون أن أصادفها، أمتلئ بكل هذا المتاع القديم من الصياح والضحك وأخرج من ذلك كله طافحة بالركام، طافحة بالفراغ، صفر الروح والنفس، بدون أن أكون في كل ذلك اكتسبت شيئاً لي. أحسست بأني أتبدّد في هذه الأجواء، إني أهرب إليها من نفسي التي أبادل مادتها الوازنة بهواء بحت. عجبت كيف تمضي أيام على نديم وهو ينتقل من صخب إلى صخب ومن تمرين كلامي إلى تمرين كلامي بدون أن يشعر بالحاجة إلى أن يلقي نظرة داخل نفسه. الكلام والأكل والشرب الكثير تتعاون على استهلاك الروح وإفقارها، هذه المآدب المتصلة تبادل المعدة بالروح وتقايض نداء الروح بكميات محترمة من الطعام.

في حياتي مع نديم سألت نفسي متى يتسنّى له أن يفكر وأن يقرأ. هو الذي له سمعة مثقف ويحشد في أحاديثه أفكاراً واستشهادات وأسماء كثيرة. لم ألاحظ أنه مشغول بالقراءة، في الأساس لا يجد وقتاً لها. لكني كنت أراه يتناول كتاباً يقلّب صفحاته ويعلّم تحت بعض سطوره ثم يطويه ولا يعود إليه. لم ينتظر حتى أسأله، قال لي

إنه يفتح صفحة، يجيل عينيه فيها، يلتقط منها سطراً يتراءى له أن فيه فكرة، يعلّم تحته، يخرج من الكتاب بمجموعة من الأفكار العائدة إلى صفحات مرقمة. بوسعه آنذاك أن يستشهد بأقوال من الكتاب مع ذكر صفحاتها، لن يشك أحد عند ذلك في أنه قرأ الكتاب. قال لي إن هذا يغنيه عن قراءة الكتاب كله بما في ذلك من التعب، لكنه أكد لي أن هذه هي الطريقة الفضلى للقراءة، فالكتاب أي كتاب لا يمكن أن نقتبس منه عدداً من الأفكار أكثر مما نجمعه في هذا التصفح السريع. كان يقول لي ذلك معتدّاً بنفسه، لقد اخترع طريقة توفر عليه القراءة، اخترع طريقة بديلة عن القراءة وتعادلها. إنه سعيد لأنه يبدو قارئاً بدون أن يقرأ، إنه اختراعه. قلت له إن هذا خداع فسلّم بذلك، لكن ماذا به الخداع؟ واسترسل في حديث طويل عن الخداع الذي هو أصل السياسة والفكر، ماذا به الخداع. الكل يخدعون قال، ليس الكل، بل هناك نخبة تخدع وجمهور ينخدع، من يصنعون الأفكار لا يؤمنون بها، من يؤمنون لا يعرفون كيف صنعت.

فهمت مع الوقت لماذا لا يقرأ نديم، لأنه لا يملك طاقة على القراءة. لا بد أنه كان يقرأ في بدايات شبابه أما الآن فهو لا يستطيع. إنه يمسك كتاباً لكن لا قدرة له على التبحر فيه، لا يملك أن يتابعه فقرة فقرة. هذا يضنيه ولا يستطيعه، تحتاج قراءة كهذه إلى تركيز شديد وهو مشتت الذهن، التركيز الشديد يؤلمه ويزيده تشتتاً، لذا يقفز من صفحة إلى صفحة. لا أظن أنه قرأ كثيراً في أي من مراحل حياته. هناك بالطبع كسل لكن الكسل ليس وحده السبب، إنه عصاب، بالتأكيد عصاب يجعله يهرب من نفسه ومن أي عمل يحتاج إلى أن يجمع نفسه فيه،

عصاب لا أعرف إذا كان دارياً به أو أنه مصاب به دون علمه. لا يلائم كبرياءه أن يعترف بمرض كهذا، إنه يستحي به كما بمشاعره كلها، لا بد أنه أحسّ بعجزه عن التركيز فتحايل كعادته على ذلك. في كل حال، نديم لا يظن أن الناس يستحقون أكثر من التحايل، إنه فخور بذلك ويصرّح به، ليس لي فحسب بل لأصحابه أيضاً، هكذا يرضي نفسه. إنه يقول للجميع أمنعكم من أن تحاكموني، قواعدكم لا تلزمني وأنا أفضل حتى حين أخترقها. لكني أظن أن نديم عندما يلتقي بنفسه أو يضطر لمجابهتها يرتجف خوفاً، لن يكون مسروراً حين يجد أنه لم يعمّر سوى الأكاذيب. أظن أن هذا من أسباب مشاكلنا أنا وهو، كان مسروراً من أن يقول لي إنه يخدع، قالها لآخرين وفي كل مرة كان يحصد مزيداً من الاحترام. أنا التي أعيش معه لاحظت أنه لا يقرأ، إنه يفكر أكثر في المآدب والسهرات التي يحركها بأصابعه ويتسلمها من أولها إلى آخرها، وحيث يكون هناك مزيد من الناس تظهر موهبته ويتألق فيها. إنه في مونودراما دائمة وحين يجد نفسه وحيداً أو معي وحدي يكتئب ويخاف. كنت في البداية جمهوره والآن صرت بطاقة وحدته، معي يكاد يواجه نفسه. أنا لم أهتمّ بأن أكون من جمهوره، صرت أتأخر عن المآدب والسهرات ولا أرافقه إليها، بل أستعجل أن يذهب وحده لأجد وقتاً لنفسي. هكذا في غيابه، صنعت حياتي، أتممت دراستي، نلت الدكتوراه في الأدب الإنكليزي وصرت أستاذة في الجامعة.

مع الوقت اكتشفت أن هؤلاء الذين يحضرون في المآدب والسهرات ويحضرون في بيتي ليسوا أصدقاء. نديم يؤاكلهم ويشرب

معهم ويلاعبهم الورق ويلتقيهم في المقهى ويخرج معهم لكنهم ليسوا أصدقاء. نديم يحتاج إلى الناس لأنه يخاف من الوحدة، لا يعرف ماذا يفعل بنفسه إذا صار وحيداً. يحتاج إليهم ليسمعوه ويرافقوه فحسب. ليست حالي معه أفضل، أنا أيضاً أشارك في البيت وأخرج وأنام معه، لكني لا أشاركه أفراحه أو أحزانه. أظن أنه لا يجد شيئاً يستحق فرحه أو يستحق حزنه. حينما توفّى ابن خالته رفيق صباه في حادث اكتأب بالتأكيد لكنه لم يقل كلمة. أرق قليلاً وتقلب في فراشه وحين سألته قال إنها الغازات في المعدة تمنعه من النوم. حين نجا أبوه من ذبحة قلبية فرح بالتأكيد لكنه لم يقل، وحين هنأته رفع يده في إشارة إلى أن الأمر لا يستحق. حتى حين ولدت ابنته لارا لم يظهر فرحاً، أنا بالعكس أنقل إليه كل مشاعري. في البداية كنت أعود من البنك الذي أعمل فيه بزوادة من الأخبار أقصّها عليه، ونحن في الغداء، فيبتسم قليلاً إذا رويت له تعثّر أحد الزملاء في شيء. أنقل إليه ما أقرأه وأحدّثه عن جيراننا في المبنى وعن صديقاتي اللواتي بدأنَ يتأخرنَ عن زيارتي، أنقل له كل ذلك وهو يسمع محترساً من أن يبدي تعبيراً، فكل ما أرويه لا يستحق، ثم أخذ يبتعد عما أنقله له فلا أدري إذا كان يسمع أصلاً. لما وجدته هكذا صرت أنقل له القليل وأروز أخباري فأنتخب المهم منها والذي يستحق الذكر، ثم توقفت مع الوقت عن ذكر أي شيء فساد بيننا صمت لا تقطعه سوى عبارة فالتة مثل "ناوليني كذا" "وين بدنا نسهر" "شو بناكل اليوم". من يحضرون في بيتي ليسوا أصدقاءه فلماذا يصيرون أصدقائي، تجاوزتهم، على كل حال كانوا جوفاً مثله. فتشت عن

أصدقاء في مقرّ عملي فلم أجد بسهولة. أخيراً وجدت واحداً بين أكثر أصدقاء نديم انزواءً وأقلّهم مسايرة له. كان، كما علمت في ما بعد، رساماً وكنت أزور ميشال خوام في مرسمه الذي أفرد له غرفة في بيت أهله، لم أفهم في البداية لطخات الحبر الأسود التي أجدها في رسوماته ولا الكائنات النملية التي تنتشر فيها. لم أفهم الأشخاص والوجوه التي تخرج من براميل ومن فوهات حنفيات ومن أكياس خيش مليئة بالحبوب. وجدته مرة مكتئباً وقال لي إنه هكذا من شهور ولا يعرف فكاكاً عما هو فيه وبكى، وحين رويت لنديم ما حدث قال لي إنه نصحه بأن يقوم بعملية انتحارية. كان هذا الكلام الأكثر فظاظة الذي سمعته من سنوات. اشمأز حين قلت له إنه بكى أمامي، أظن أنه اشمأز لأنه بكى أمام سيّدة. كان يضحك حين روى لي أنه نصح رساماً آخر بأن يغسل لوحاته لتصبح أكثر نظافة.

حين تزوجنا كانت لي أفكاري عن مشاركة الرجل والمرأة في العمل المنزلي. بدأت من الصباح في كناسة البيت بعد سهرة حافلة. تركته في الفراش وباشرت العمل، شطفت الصالون وغسلت الزجاج وانتقلت إلى الغرف، تركت غرفة الجلوس وبدأت تنظيف غرفتيْ النوم. لما دخلت إلى غرفة نومنا رأيته نهض وجلس بالبيجاما على حافة السرير، ذهبت وأحضرت مكنسة أخرى وقلت:

– يالله يا كسلان. هذي المكنسة روح على أوضة القعود. كمان رتّبها.

استلم المكنسة ونهض عن السرير وتأخر قليلاً عند باب الغرفة وقال:

– أمرك يا ستّ. أنا كمان بدي ساعدك.

– مش تساعدني، تشتغل معي. نحنا اتنين بالبيت. إنت وأنا بنشتغل برّة، لازم كمان نشتغل سوا بالبيت.

أخذ المكنسة وخرج. وبعد أن ذهبت إلى المطبخ وقمت بالجلي رجعت إلى غرفة الجلوس فوجدتها لم يتم تنظيفها، كانت هناك ورقة كلينكس على الأرض لمتها وطفايات سجائر ما تزال ملأى بالأعقاب. أغضبني ذلك وعدت إلى غرفة النوم فلم أجده فيها، وجدته جالساً على كنبة في الصالون يطالع الجريدة. قلت له:

– هيئتك ما نظفت منيح.

– مبلى. نظفت كتير منيح مش بس أوضة. نظفت أوضتين.

– شو هـ النظافة. الورق عَ الأرض والمنافض مليانة دخان، فرجيني كيف بتكنّس.

كانت المكنسة ما تزال على الأرض. نهض وحملها وأخذ يجرها بالسرعة التي تتطاير معها الأوساخ بدلاً من أن تتجمع.

– مش هيك. هيك بتنشر الوسخ بالأوضة كلها. وقاف لعلّمك كيف بتكنّس.

تناولت المكنسة منه وأخذت أجرّها أمامه. استردّها مني وكرّر حركاتي. طلبت منه أن يفعل ذلك في غرفة النوم وأن ينظف الطفايات أيضاً. ذهب وبعد قليل مررت على الغرفة ودخلتها فوجدت أيضاً ورقة على سجادة الغرفة ونظرت إلى الطفايات فوجدته أفرغها في السلة لكنه لم يغسلها. رجعت إليه، كان هذه المرة ممدداً على السرير وفي يده الجريدة ذاتها، قلت له إنه لم يحسن

التنظيف، فقال لي مع شيء من الامتعاض:

- هيك بعرف نظف. صبرك عليي. شوي شوي بتعلّم.

أدركت أن التشبث بأفكاري لا فائدة منه مع هذا الرجل. ليس عليّ أن أطلب منه أن يشاركني، الأفضل أن يكون لكل منا حياته. توقفت عن الخروج معه إلى السهرات والمآدب، وصرت أهتم فقط إذا كانت المأدبة في بيتي. صرت أستعجل خروجه ولا أهتم إذا رجع متأخراً، ولا أسأله ماذا صنع بل لا أبالي. في الحقيقة كنت أصنع حياتي، شخصيتي وحضوري وحتى جسدي، في غيابه. حين بدأت تترامى إليّ أخبار عن علاقاته مع أخريات لم أكترث، أظن أن هذا هو عاقبة انفصالنا الروحي والنفسي والذي قارب أن يكون جسدياً. استقبلت في بيتي نساءً سمعت عن علاقته بهنّ، في الحقيقة كنت أدفعه إليهنّ. السهرات التي يتركني فيها وحيدة هي الأمتع لي. كوّنت إلى جانب صديقي الرسام صداقات مع نساء ورجال، كنت أستقبلهم في بيتي فيجد هو العذر ليخرج. مضى على ذلك وقت تساءلت فيه عما إذا لم يعد لي غرض في الرجال. كان جسدي هامداً وقلما يفاجئني برغبة، أقلقني ذلك وجعلني ألقي نفسي على صديقي الرسام. كان هذا في ليلة شكا فيها من اكتئابه وبكى، عانقته وفجأة عاد لي قلقي. أردت أن أجرب، ألصقت خدي بخده وقبلته في عنقه وجذبته إليّ بحيث بات صدري في صدره. بقينا على هذه الحال إلى أن شعرت به يشدّني إليه، أنهضته وقدته إلى السرير الموجود في المرسم. كنا وحيدين فوالدته في الخارج، صعد معي إلى السرير وتعانقنا عليه. لا أريد أن أطيل إذ لم يحدث شيء، لم يكن في اكتئابه قادراً على ممارسة الجنس

وربما كان هذا العجز سبباً لاكتئابه. حاولنا أكثر من مرة فلم يستطع. منذ ذلك الحين وأنا لا أهتم بالجنس، بل عدت إلى صديقي الرسام، قبلاته وحنانه وبكاؤه حتى تكفيني. سافر صديقي الرسّام إلى الخليج وأنا أجد سلوى حقيقية في تلفونه اليومي. نديم منذ انفصلنا صار ألطف وهو في تلفوناته يصارحني بأنه مستوحش وأنه تلفان عصبياً. يتكلم مع ابنتنا لارا كل يوم ولسانه يتلجلج فهو مدمن ويبدأ الشرب منذ أن يصحو إلى أن ينام. قالت لي لارا إنه بكى في أحد تلفوناته، لكني لم أصدق. قد يكون صوته تحشرج وهو يتكلم فظنته بكى. الغريب أن لارا تؤنبني لأني تركته ولا تلومه على شيء. أظن أن أبناءنا لا يسامحوننا لأننا ربيناهم، لو لم نكن لكانت الطبيعة ربّتهم أفضل. اليتم بالنسبة لهم معلم أحسن، إنهم يحاسبوننا على أننا بقينا أحياء، فقط لننكّد عليهم، لنغرس فيهم العقد التي تحمل أسماءنا.

صلاح السايس

هالة بالتأكيد مستاءة، لكنها كالعادة تستحي باستيائها ولا تظهره، وتظل تعاملني كولد مريض تخشى عليه أن يتفاقم مرضه. لم أستطع إلاّ أن أعترف لها بقصتي مع سلوى. استمعت وخلال ذلك تغيّر وجهها مراراً لكنها أخيراً لبست الوجه المعتاد، وجه الإشفاق والانشغال، وقالت لي:

– هلق مش فاضيين نحاسبك على طيشك. لازم نشوف كيف فينا نشيلك من هـ الورطة.

فعلت هالة الآن مثلما فعلت حين توفيت ابنة خالتي وصال. كانت بين أهلها حين شعرت بصداع حاد وحملوها إلى المستشفى لكنها لم تعد. كنا تواعدنا على أن نلتقي اليوم نفسه في بيت عدنان حيث التقينا في الأشهر الخمسة الأخيرة، مرتين في الأسبوع، كل ثلاثاء وكل جمعة. توفيت وصال ولم أطق نفسي فجئت إلى هالة واعترفت لها، وهذه المرة أيضاً عاملتني كولد مريض فحبستني في البيت وطلبت من الأولاد، من سارة ونبيل وأصحابهما، أن يلعبوا

بهدوء فوالدهما لا يستطيع أن يحمل رأسه من الصداع وأشارت، للأصحاب الذين صادف أن زاروني، على الباب أنني لست في أحسن حالاتي، فدخلوا متوجسين ووجدوني منتصباً في عباءتي كالصنم. ظلوا ساكتين إلى أن غلا الكلام على قلبي فبحت لهم بالقصّة كلها. أنا أيضاً لي حياة حافلة ككبار الفنانين ومن حقي أن أحكيها. كلما مررت بمشكل من هذا النوع أركض إلى هالة، أعرف أن هذا ليس مقبولاً، أن يلجأ الواحد إلى زوجته لتساعده على تخطي غرامياته البائسة. أبو هالة جواد هو السيد "واجب"، نجده دائماً حيث يدعوه واجبه. حينما توفّى ابنه في حادث سيارة لم يفه بكلمة وبالطبع لم يذرف دمعة، وقف إلى جانب زوجته وأولاده حتى أمكن أن يتجاوزوا المحنة. بعد ذلك كان الألم تحجر في قلبه فانصدع مرة واحدة، مع ذلك لم يشك وجرجر وراءه حياة مديدة عاشها تقريباً كواجب طويل. هالة الشيوعية القديمة لم تؤاخذني على أن طيشي هذه المرة وقع على الفتاة التي تعمل في تنظيف منزلنا ثلاثة أيام كل أسبوع، نصحنا بسلوى رفيق بالحزب قال إنها تجيئهم في بيتهم ثلاثة أيام وإنها مرتبة ونظيفة وأمينة. كان عليّ أن أحضر سلوى من بيتها، حيث تسكن في مخيّم تحت جسر الكولا. ذهبت وانتظرت، كنت أتوقع امرأة سمينة ترتدي الأسود لكن المرأة التي خرجت للقائي كانت صبية ذات وجه متورّد وعينين مشروحتين وجسد نحيل. لم ترتد الأسود بل بلوزة زهرية ليست محكمة فوق كتفها وانزاحت عن لون حنطي بدا فائراً وصبياً وسط ثيابها المهملة. تنورتها الكحلية لم تكن أيضاً مستوية على خصرها، كانت فضفاضة فوق جسد بالغ

النحول وكأنها لامرأة أخرى، قدرت أنها منحة واحدة من اللواتي خدمت في بيوتهن. لا أعرف ماذا توقعت أن تجد لكنها مذ رأتني رفعت جزدانها الذي كان ظاهر التلاؤم مع ثيابها، الأرجح أنه هو الآخر منحة من بيت خدمت فيه. مذ رأتني تأبطت جزدانها وراحت تنتقل أمامي بخطوات متأنية وقد شدّت قامتها كأنها سيدة من اللواتي خدمتهن. كان نحولها الشديد يزيد في طولها، لكنه لا ينسجم مع ثقل صدرها الذي تكوّر تحت السوتيان وبدا نافراً ومكتنزاً. كما أن سمتها المهمل لا يفصح فوراً عن ربلتي ساقيها المنحوتتين باستواء وجمال. سرنا معاً إلى السيارة فقالت لي بنفس نبرة السيدة التي تتقمصها:

- إنشا الله ما كون نطّرتك.

كانت تتفرس بي وهي تقول ذلك، نظرة شرهة وكأنها تأكلني بعينيها. أنا تركت عينيّ ترعيان في شفتيها الممتلئتين وعنقها وصدرها. لم يفتها ذلك، لم تكسر نظرتها حين التقت عينانا، أنا الذي حولت عينيّ. شدّت قامتها وسارت جنبي، كادت تزحمني في الطريق واحتك جسدانا، قالت "سوري" لكنها لم تبتعد، أنا الذي ابتعدت قليلاً. سألتني ماذا أعمل. حين عرفت أنني أستاذ جامعة لمعت عيناها. قالت:

- أنا كنت شاطرة بالمدرسة. كنت حب العلم. بس بيي طلعني من المدرسة. قال بيكفي علم.

وصلت إلى البيت. كنا وحدنا فيه، هالة في عملها. أدخلتها إلى المطبخ، أخذتها إلى الشرفة الصغيرة حيث توجد عدة التنظيف، فتحت

لها خزانة المطبخ التي توجد فيها سوائل التنظيف. تركتها لتعمل ودخلت إلى مكتبي حيث فرشت أوراقي. كنت أسمع دعساتها وهي تعمل، ثم سمعت صوتها وهي تغني. كان صوتها جميلاً وهي تصدح "يا رايحين عَ حلب، حبي معاكم راح، يا محملين العنب فوق العنب تفاح"، ثم سكتت دفعة واحدة كأنها آخذت نفسها لأنها رفعت صوتها. ابتعدت دعساتها وقتاً ثم عادت فاقتربت وفجأة وجدتها تفتح الباب عليّ وتقف وسط الغرفة متأملة طاولة المكتب والرفوف المليئة بالكتب ولوحتي فان غوغ المبروزتين المعلقتين على الحائط وكذلك صورتي لينين وماركس الموجودتين في إطارين فوق طاولة المكتب. نظرت إلى صورة لينين وإلى لحيته التي كنت صنعت لنفسي لحية مثلها وسألتني:

- هذا أنت؟

قلت لها لا وشرحت لها أن صاحب الصورة صنع ثورة من أجل الفقراء أمثالها. كانت مسرورة من أني أفعل ذلك لها، وأنا، مسرور من أنني وجدت طريقة لأتكلم معها بدون حرج ولأستمر، مع ذلك، في خدمة قضيتي، لم ألاحظ أنها وقفت إلى جانبي خلف المكتب وأن جسدها يكاد يتماس مع جسدي بل إن إحدى يديها لمست يدي، خطفت يدي بعيداً عنها فيما هي لم تفعل. شعرت بحنين للعودة إلى أوراقي وبالفعل تناولت واحدة منها ونظرت فيها، لكنها بقيت و لم تتركني لعملي، لعلها لم تفهم حركتي. سألتني عن زوجتي وأولادي فذكرت أسماءهم، لكنها لم تلقَ بالاً حين صادفت نظرتي ترعى في صدرها، وبدون مقدمات أخذت تشكو زواجها:

- بيضربني. إذا حدا تطلع فيي بيضربني. إبن الجيران ولد عمرو تلاتعشر سنة. مبيِّن عليه ولد ولما شافني حكيتو ضربني. وكمان ما بيشتغل. بيبعتني اشتغل وهوي لأ. بيقضّي وقتو بيحشش، أي بيحشش. بدو ياني حشّش معاه. بيعملّي سيجارة ولمن قول لأ بيضربني. شوف، شوف.

أزاحت ياقة بلوزتها عن جانب من كتفها وأعلى ظهرها ورأيت فعلاً جلدها مدبوغاً مرضوضاً وحوالي الدمغة كان اللون الفائر المتورد والفتي هو نفسه. أرادت أن أضع يدي على دمغتها، أن أتحسّس الندبة بأصابعي، ترددت لكنها أمسكت يدي وحطتها فوق ندبتها. كانت يدي على جلدها، الأمر الذي لم أتحمله لذا خطفتها بسرعة، بينما استمرت تقول:

- شايف الملعون شو عامل، الله يكسّر إيديْه. ضربني بالقشاط، شايف كيف علّم على جلدي. الله يكسّر إيديْه. طول النهار بيفت حشيش وأنا بشتغل لطعميه. لمن برجع من الشغل بحاسبني عالقرش. ولمن ما بعطيه البدو ياه بينجن وبينزل فيي ضرب.

خرجت وعادت لشغلها وأنا عدت إلى أوراقي. ابتعدت دعساتها ثم سكتت، قدرت أنها في المطبخ، مرت ساعة بل أكثر من ساعة ووجدتها تفتح عليّ الباب. هذه المرة كانت آتية وفي يدها صينية عليها ركوة وفناجين، وضعت الصينية على المكتب وصبت لي ولها فنجانين، جلستْ على كرسي قريب واضعة رجلاً على رجل، وبحرفة انزاحت تنورتها الفضفاضة وظهرت ركبتاها المصقولتان وهامش صغير من ساقها ذات البياض الوردي الفائر الذي لكتفها.

شالت عن رأسها المنديل الذي عصبته به فانسدل شعر أسود لمّاع أحاطه بوجهها وانهمر على كتفيها. كانت صفحة وجهها تحت خصل الشعر أكثر نضارة وشعرت أن لها الآن ملمساً أحسسته بكل جلدي، نظرتْ إلى السرير الذي في جانب الغرفة وقالت:

– شو التخت. هيئتو زغير عليكن، بالكاد في يوسع لواحد، كيف اثنين.

كانت تقول ذلك وفي وجهها أنها ترمي إلى أبعد:

– كيف فيكن تحبّو بعض على هـ التخت الزغير، بس هيك أحسن. هيك بتبقوا لازقين ببعض.

ولمّا لم أجب سألتني:

– بتحب مرتك. بتضربها؟

كان دوري لكي أشرح لها أن ليس من حق أحد أن يضرب شخصاً آخر.

– أنا ما بضرب حدا لا مرتي ولا ولادي ولا تلاميذي. ما بيسوى نجبر إنسان بالضرب إنو يعمل شي. لازم يعملو بحريتو.

– بس أنا بحب قاهرو. بحب زرّكلو. هيك بيفور دمّو وبيصير حامي، هيك بيبسطني أكتر. مش سامع المتل: "ضرب الحبيب زبيب"، بكرهو بس لمن يبسطني بيصير سمن على عسل وبنتصالح.

لم تفاجئني بمزاجها الهوائي الذي يتغير من لحظة إلى أخرى، معظم هؤلاء الناس هوائيون يتغير مزاجهم بحسب اللحظة، وتتغير آراؤهم مرات في الجلسة ذاتها. ارتفع صوت سلوى مغنياً، صوت مشروخ لكنه يحفظ الإيقاع ويحسن أداءه:

"لا تضربني لا تضرب
كسّرت الخيزراني
اصار لي سنة وست أشهر
من ضربتك وجعاني"

كانت تضم شفتيها وهي تغني وكأنها تتلذذ هكذا بضربات الخيزرانة. فجأة سألتني:

- إنت ومرتك بتحبو بعض كتير؟

- أي بنحب بعض.

- كم مرة بتحبوا بعض بالأسبوع؟

- أي بنحب بعض.

- مش هيك قصدي يا أستاذ (كأنها تقول يا أبله) قدّيش بتحبوا بعض بالتخت؟

لو أن أحداً غير سلوى سأل هذا السؤال لكنت أجبته بأن هذا شأن خاص، لكن جواباً كهذا لا يعني شيئاً لسلوى لذا أجبت:

- ما بعرف.

- ما بتعرف شو. يعني ما بينعدّوا. أنا قلت إنك فحل. صحاب الدقون حاميين.

- قلّي مرتك حلوة؟ بتبسطك بالتخت؟

- ....

- عندها صدر متل هـَ الصدر (ضمت أصابع يديها ووضعتها على صدرها).

- ....

- عندها خصر متل هـَ الخصر (وملست بيدها على خصرها).

اقتربت مني حتى صار خصرها تحت نظري مباشرة. شعرت بشيء ينتصب تحت بنطلون الجنز الذي ألبسه. أظن أنها لاحظت، اقتربت أكثر وصار صدرها تحت أنفي. كانت رغبتي في أن أمسك صدرها لكن يدي وقعت على ذراعها. تركتني أمرر يدي على ذراعها، لم تتراجع لكنها اعتدلت في وقفتها. بقيت يدي تنجرّ على ذراعها. لم تبعدها. لكنها قالت فجأة:

- صار لازم أرجع عَ البيت، محمود ناطرني.

وانفتلت من أمامي وغادرت الغرفة فيما صار انتصابي كاملاً.

في اليوم التالي حضر فواز. حين سألته عن حاله، تأكد من أن ليس في المكان سوانا، وأسرّ لي أنه عالق بامرأة متزوجة وكلما زارها يقابل زوجها. قال إنه يشعر أنها تمنحه نفسها وجسدها بحرية أكبر وأنها هكذا له أكثر من زوجته. كان فواز تزوج منذ عامين ومنذ ذلك الحين وهو يبحث عن علاقة خارج الزواج. فكرت عندئذٍ بسلوى وانتعش جسدي.

بعد يومين حضرت سلوى حسب الاتفاق. قالت على الباب إن زوجها أوصلها إلى بيتنا وإنها حدثته عني، ومن يومها وهو يريد التعرف عليّ. كانت هذه المرة أكثر أناقة وفستانها الأزرق مستوٍ على جسمها وهناك لون أحمر على فمها. بدّلت ثيابها، في الحمام على الأرجح وحين خرجت من مكتبي رأيتها بشورت أسود وقميص أصفر بكمين قصيرين. كانت تعمل بصمت وحين مررت قبالتها لم تنظر إليّ. شعرت ببعض الخيبة لكن شعوري بأنها حرّرتني من

اختبار صعب كان أكبر. بقيت في مكتبي وتحاشيت الخروج وتركتها تعمل فيما كانت دعساتها وهي تنتقل تصل إليّ. كانت في الصالون تزيح أشياء ثقيلة، هي الكنبات في الأرجح. وجدتها تفتح الباب عليّ وتقول وهي بالباب إنها تريد أن تغسل وتريدني أن أعطيها بيجامتي لتغسلها. بقيت واقفة في الباب، خلعت عن قصد جاكيت البيجاما. رأت شعر صدري الكثّ خارجاً من البروتيل، غطت عينيها بيدها وقالت:

- غطي شعرك، ما تخليني شوفه، شعر الصدر بيهيّجني.

ذهبتُ إلى غرفة أخرى. أخذتُ من جارور الخزانة قميصاً وبنطلوناً وبدّلت بهما البيجاما وعدت إلى مكتبي. لم أجدها هناك، كانت عادت إلى شغلها، بقيت أسمع طحشتها وهي تنتقل وتجرّ الأغراض أو تحرك الأواني في المجلى. سكتت ضجتها بالكامل ثم وجدتها تفتح عليّ وفي يدها صينية عليها فنجانا قهوة.

جلست على كرسيّ ورفعت رجلاً على أخرى بحيث بدا قسم من ساقها. رجعت تقول وهي تعيد النظر إلى صدري:

- لما بشوف شعر الصدر بسخسخ. بجي لأوقع بأرضي. شو حلوين شعرات صدرك. فرجيني.

نهضت واقتربت منّي، فكت بيدها زراً في أعلى بيجامتي، ظهر شعر صدري، غلغلت أصابع يدها فيه وجعلت تفركه، أمسكتها من ذراعها وشددتها إليّ. مانعت قليلاً لكنها سكنت فجأة بل أحاطتني بذراعيها، أعطتني صدرها وشفتيها. أخذت أمتصّ شفتيها الممتلئتين، حاولت أن أدخل يدي في صدرها، لكنها مانعت وانفتلت من يدي

وخرجت من الغرفة. لم ألحقها. عدت بعد قليل أسمع طحشتها، لم ألحقها، اعتبرت أننا قطعنا شوطاً يكفي. جلستُ إلى مكتبي وفرشتُ أوراقي، استغرقني الشغل حتى نسيتها، ضيّعت طحشتها، لم أعد أسمع أيّ حس لها. خرجتُ أتفقّد المكان، لم أجد أثراً لها. كانت غادرت وأغلقت الباب وراءها.

حينما عادت سلوى إلى البيت، كان ذلك يوم سبت وهالة والولدان لم يغادروا فهم في عطلة. دلّت هالة سلوى على احتياجات البيت، تعاونت كلتاهما على تدبيره، بقيتا معاً طوال الوقت. شعرت أن سلوى نجحت في كسب مودة هالة والولدين. أنا بقيت في مكتبي. حملت إليّ هالة القهوة وجلستْ في الصالون تشربها مع سلوى. سلوى لم تكلمني إلا حين فتحت لها الباب، على الباب قالت لي "وين شواربك" كانت لاحظت أني، وأنا أسويهما، نزعت قسماً من شارب فاضطررت إلى أن أفعل ذلك بالآخر. الأمر الذي لم تلاحظه هالة. فهمت من هالة أن سلوى حدثتها عن قسوة زوجها وكذلك عن مهارته في الفراش، قالت هالة إن سلوى أخبرتها أن زوجها "بيبسطها". بالطبع لم تبادلها هالة أخبارها و لم تحدّثها عن علاقتنا، لم تنتظر منها سلوى ذلك و لم تطلبه.

الاثنين تأخرت هالة حتى خرجتْ، في الساعتين الأولين، ليس لديها صف، لم يكن مضى وقت على خروجها حتى رنّت سلوى الجرس. على الباب أخبرتني أنها تشاجرت مع زوجها لأنها التهت مع ابنتها وتأخرت عن حمل الفطور له. لم يطق أن تقول له "البنت عم يطلعوا سنانها وموجوعة إعمل إنت ترويقة"، كلمة كهذه

استحقت عليها صفعة قوية وحين لم تسكت له وقالت "الله يكسّر دَيْكِ" تناولها بالحزام الذي وقعت قبضته المعدنية على جسمها. كان أثر الصفعة ما يزال على وجهها. دخلتْ بسرعة وحين أغلقتُ الباب كشفت عن كتفها وأرتني أين وقعت قبضة الحزام، كانت الدمغة واضحة. جلست على أول كنبة في الصالون، و لم أصدق حين رأيتها تبكي. لم يكن بكاءً عادياً، كان نحيباً موجوعاً حاولت أن تحبسه، لكنه كل مرة يقارب فيها أن يهمد يعود فيتجدد أقوى من ذي قبل. كانت تستدرّ دموعها أمامي وحينما أحطت كتفيها بذراعي، في حركة تعاطف، اندفقت دموعها وعلا نحيبها إلى الأوج. لم أبالغ في احتضانها، خفت أن يبدو هذا استغلالاً لحالتها، بقيت واقفاً قبالتها أنظر إليها متحيراً ماذا أفعل لها. بدأ نحيبها يتراجع وتحول إلى نهنهة بكاء وانطفأ، حينئذٍ وجدتُ مناسباً أن أحيط كتفيها بذراعي. أمسكت بيدي المدلاة علَى كتفها وشدّتها بقوة إلى جسمها، بقيت على هذه الحال وقتاً أطول من المعتاد بحيث تجرأتُ على سحب ذراعي. منحتني أول ابتسامة هذا الصباح وفجأة استرسلتْ في الضحك بصوت عالٍ وعيناها ما تزالان نديتين بالدموع، أحضرت لها علبة الكلينكس فتناولت واحدة ومسحت عينيها.

تركتها تذهب إلى المطبخ وشرفته التي فيها الغسّالة، أحضرت السطل وعدة التنظيف بعد أن بدّلت ثيابها وعصبت رأسها وارتفع صوتها "يا رايحين عَ حلب، حبي معاكم راح". تركتها تسكب الماء الممزوج بالصابون على بلاط الأرض وتطرده بالمكنسة. ذهبتُ إلى مكتبي، كان عندي ما أحضّره للجامعة لفترة بعد الظهر، فرشتُ

أوراقي وبدأت العمل. استغرقني العمل حتى أنني لم أنتبه إلا بعد وقت إلى أن صوت سلوى ظلّ يتباعد إلى أن سكت.

كأنّ بؤس سلوى، نحيبها وقبضة الحزام التي دمغت ظهرها، طردا الرغبة من نفسي أو نقل سلوى إلى مجال محمي من الرغبة. لذلك أخذت أعمل بدون أن أنتظر شيئاً منها، بل كان انتظار كهذا استغلالاً لا أريده لنفسي. صرت أعمل وقد شفيت من رغبتي ولم أعد أعير أذني إلى وقع دعساتها في المنزل. أغلقتُ الباب عليّ وكنت من قبل أتركه مفتوحاً، كانت هذه إشارة واضحة. استغرقني تحضير محاضرة عن المتنبي وقتاً، وجدتُ بسرعة أفكاراً وانتشيت بها، اخترعتُ بسهولة وتلاحقت اختراعاتي. أظنني كنت وجدت خطاً فاصلاً حينما دارت قبضة الباب فانفتح ورأيت سلوى في وسطه تحمل صينية وفنجاني قهوة. قالت قبل أن تخطو إلى الداخل:

- صارلك تلات ساعات مسكّر على حالك. خفت إنو يكون صابك شي. رنّ التلفون. نطرت إنك تجي تردّ بس ما شفتك جيت ردّيت. هذا واحد إسمو فواز بيقول إنو ببيروت وحابب يشوفك. شو ما سمعت؟

لم أكن سمعت بالفعل رنين التلفون. وضعت سلوى الصينية على المكتب. أعطتني فنجاناً وجلستْ على كرسيّ جنبي تشرب فنجانها. كنت ما أزال في البيجاما وأزرار جاكيتها مفتوحة، امتدت يدي تزرّر الجاكيت، أكملتُ زرين. قالت سلوى:

- ما تبكّل البيجاما. بحب شوف شعر صدرك.

أوقفتُ تزريرها، لكنني لم أقم بحركة أخرى. كانت قريبة من

يدي لكني لم أمدها إليها. انزاح شورتها الأسود عن ركبتيها اللتين كانتا لامعتين كما بدت ذراعها ممتلئة ورخية من خلال كمها القصير.
عادت سلوى إلى قصة الصباح مع زوجها. هذه المرة روتها بشكل - لا أعرف الكلمة - كاريكاتوري. مثلت كيف رقصت عينا زوجها وارتجف شاربه. كيف وقعت عليها كفه فاندفعت بنتها إلى البكاء، كيف أمسكت بحزامه وحشرته في الزاوية. كانت تضحك وتبالغ في الضحك كأنها تريد هكذا أن تطوي القصة بكاملها. فجأة وكانت لا تزال تضحك نهضت وارتمت على السرير، كأنما هذه الحركة تكمل القصة. زاد ضحكها وهي تلقي رأسها على الوسادة. موهتها هكذا بحيث لم أدرِ أنا ماذا أصنع إزاءها. سمعتها بعد قليل تقول:

- تمدّد حدي. بس ما تقرّب إلا لمّا قلّك.

بقيت برهة مرتبكاً لكني سمعتها تردّد:

- تمدّد حدي. شو باك صفنت، تمدّد حدي بس ما تعمل شي.

تمدّدتُ جنبها واستلقيت على ظهري فيما هي ممددة على جنبها في مواجهتي. مدّتْ يدها وغلغلتها في صدري وأخذت تفرك شعره. قلبتني بيدها إلى جنبي. هكذا صرت في مواجهتها تماماً. شددتها إليّ لكنها أوعزت إليّ أن أتريّث. بقيت وقتاً تغلغل أصابعها في شعر صدري. ثم شدّتني إليها قليلاً بحيث غمست رأسها في عنقي وترددت أنفاسها عليه ثم نفخت في أذني وأخذت تلوك حلمتها. عادت بيدها إلى صدري لكنها هذه المرة انزلقت حتى سرّتي. حملتْ يدي وأدخلتها في شعرها. أوعزتْ لي أن أمسد رقبتها وكتفها، كان لكل حركة وقتها، شدّتني أكثر إليها فتقاطعت أنفاسنا. مسّت

بشفتيها عنقي ثم رفعتهما إلى فمي وأخذتْ تلوك شفتي السفلى، لكل شيء وقته. فتحتْ فمي بلسانها... حين دخلتها صعدت منها شهقة عالية، ثم بدأت الأصوات تكركر في حنجرتها، وصل صوتها إلى السقف ثم بدأت تبتلعه ويحتبس في حنجرتها. لحظة أخرى وعاد يزغرد ويعلو ويحلق ثم يتراجع ويحتبس، لينبعث من جديد في غضون لحظة ويشتعل وثم ينطفئ ويتغرغر في حلقها. إنها دورات هبوب وانطفاء، دورات عدة، لا تزال تشتعل وتخمد مرة بعد مرة. تتوالد نشواتها من بعضها البعض وتتكسر في بعضها البعض وأخيراً عند النشوة النهائية اقتلعتْ من داخلها صوتاً أخرجت فيها مهجتها كلها. كان مضى على هذا التمرين وقت طويل، بعده مالت برأسها جنبي وغفت.

المرة التالية. أفتح الباب فأجدها عليه ومعها شاب طويل أقرب إلى النحول. يرتدي بنطلون جنز مكوياً بعناية وما تزال طيته واقفة كالسيف كما يقولون ومع البنطلون تي شرت أزرق سماوي. قدمتنا أحدنا إلى الآخر: الأستاذ صلاح، جوزي محمود. دخلا وجلسنا في الصالون، رغم اضطرابي، استطعت أن ألاحظ أنه تقدم إلى الصالون وبقي واقفاً فيه إلى أن طلبت منه أن يجلس. لاحظت أنه يتكلم بصوت منخفض. لم يكن في وجهه أي من إمارات العنف، وجه بيضاوي بعينين سوداوين دافئتين وشامة في وسط الخد الأيمن وشاربين رفيعين وفم مرسوم بشفتين ممتلئتين وذقن مطبوعة. أكاد أقول إن صوته وهيئته ينمّان عن أدب حقيقي. جلس وجلست جنبه سلوى على الكنبة نفسها. قال إن حديث سلوى عني وعن هالة شوّقه

إلى معرفة "الدكتور" وعائلته (كان آنذاك يشير مراراً إلى سلوى) فهو يحب عشرة الناس المتعلمين ولولا الحاجة لكان أكمل تعليمه. كالعادة تحدثنا عن الغلاء والفلتان الأمني والانقسام الداخلي. كانت آراؤه معتدلة موزونة وتدلّ على اطلاع وذكاء. لا أعرف كيف وصل بنا الحديث إلى أن سمعته يقول:

– المهم العرض، الإنسان عرضه، إذا ما بيحافظ عليه لشو حياتو. الإنسان بيخسر شرفو مرّة واحدة. بعدين هيهات يرجعلو. الحياة هيي الشرف، متل ما بيقولو المصريين، الشرف زيّ عود الكبريت بيولع مرة واحدة.

شعرت بقشعريرة شملت كل جسدي، لم أعرف كيف وصل إلى هذا الحديث، تراءى لي أنه جاء إلى هنا من أجله. ظل يتحدث عن العرض والشرف اللذين يستحقان أن يراق الدم في سبيلهما. ثم لمّا انتهى، قال إن سلوى لا تستطيع أن تعمل اليوم لأن ابنتها مريضة. غادرا معاً وصوته ما يزال يدور في أذني "الشرف يا أستاذ، العرض يا أستاذ". تركاني في اضطرابي وظلّ هذا الموضوع يغلي في رأسي إلى أن جاءت هالة فأخبرتها وسمعتني، محاولةً أن لا تظهر استياءها، ثم قالت:

– لازم نشوف كيف نشيلك من هـَ الورطة.

في الغد جاءتني سلوى، رنت على الجرس ودخلت بسرعة. قالت لي ما إن أغلقت الباب، إن محمود يشكّ، لا تعرف ماذا لاحظ عليها عند عودتها من بيتي. إنه ذكي وهي لا تعرف كيف تخفي ما في داخلها. لاحظ خاصة عند عودته من زيارتي. ما إن وصل إلى البيت

حتى انهال عليها ضرباً. أرتني مواضع الضرب في جسدها، كانت دمغتها واضحة. قالت إنها فقط تستطيع أن تشتريه بالمال، أعطيتها ما وجدته في جيبي: مئتي ألف ليرة. أخذتها وعادت مسرعة، لكنها قبل أن تغادر أطبقت شفتيها على شفتيّ وامتصّتهما.

بعد يوم رنّ التلفون، كانت سلوى على الخطّ. قالت إنها تتلفن من دكان. خطفت رِجلها من البيت وجاءت مسرعة لتتلفن لي قبل أن يعود محمود. قالت إنه يمنعها من العمل عندي. أعطته المئتي ألف فأخذهما ووضعهما في جيبه لكنها انتبهت إلى أنه عرف مصدرهما، وضعهما في جيبه وقال لها إنه يعرف من أين أتت بالمال، لا بد أنه من ذلك الأستاذ الفاجر، أعطاها إياهما ليسكته لكنه لن يسكت، لن يبيع شرفه بمئتي ألف ليرة ولا بملايين الليرات.

بعد يومين رنّ التلفون، قالت إنه ذهب إلى مكان بعيد وتريد أن تراني، لكن ليس في بيتي، تخاف أن يباغتها هناك. تلفنت إلى عدنان، صديق يعيش في شقة وحده، قلت له إني أريده أن يعيرني شقته. بعد قليل عادت سلوى تتلفن. قلت لها أن توافيني إلى شقة عدنان. دللتها بدقة على المكان: مار الياس، في بناية الأزهار الطابق الثالث في مواجهة الأسانسور. ذهبتُ إلى الشقة وانتظرت هناك. بعد ربع ساعة سمعتُ الجرس يرنّ، كانت على الباب، شدّتني إليها وعانقتني وبكت لكنها استعجلت الذهاب إلى غرفة النوم. كان الوقت ضيقاً، لكنها هذه المرة أيضاً حلّقتْ مرات عدة وانطفأت ثم اقتلعتْ في النهاية ذلك الصوت من أحشائها وغفتْ، أيقظتها فجمعت نفسها وعادت مسرعة إلى بيتها.

في اليوم الثاني تلفنت لي في الثامنة صباحاً. كانت هالة ما تزال في البيت، على التلفون قالت لي إنها لدى عودتها، وجدتْ محمود سبقها إلى المنزل، لم يقتنع بعذرها رغم أنها أحكمته. اتصلت بصديقة لها واتفقت معها على القول إنها كانت عندها، لكن حيلاً كهذه لا تمرّ على محمود. ضربها بقسوة. هذه المرة لم ينقذها من الضرب أنها ارتمت على حذائه. حين سمعتها تقول لي ذلك، انعصر قلبي. كنت فكرت بأني ورّطت نفسي، قد أكون خطرَ لي أنها تواطأت مع زوجها على إرهابي، لكن جسدها المدموغ بالضرب لا يكذب، لا يمكن أن تصطنع دمغة قبضة الحزام على كتفها. أقول لنفسي إنه السحر المزعوم والأسطورة الجنسية لذلك الصنف الشعبي، عندئذٍ فقط أتذكر أني ابن الخادمة ولست بعيداً جداً عن هذا الصنف. أستعيد ذلك التفجر النووي لنشواتها وذلك الصوت المقتلع من أحشائها فيشتدّ عضوي، أستعيد ذلك التلمس الأعمى في ليل جسدها واللوبان في داخلها فيشتد عضوي. أنا وهالة نتجامع كل ليلة سبت ونصل معاً إلى نشوتنا لكن ليس لذلك الذكرى نفسها، ليس له أي ذكرى على الإطلاق ولا أعيشه ثانية وأنا أستعيده، لا تستمر رغبتي بعده وإن بطريقة أخرى. لا أستعيده بجسدي وعضوي أكثر مما بفكري ومن اللحظة الأولى يبدأ جسدي وعضوي بالتذكر. يكفي أن أفكر كيف تملس على عضوي وكيف تلتقمه بفمها ليهبّ جسدي ويتابع وحده. انعصر قلبي وأنا أسمعها ثانية تقول لي إنها ارتمت على قدميه، لقد سبّبتُ لها ذلك ولا أستطيع من أجله أن أتخلى عنها كما كنت فكرت مراراً. قلت لنفسي إن عليّ أن أتخلص من هذه الورطة كما قالت لي هالة،

لكنني الآن لا أجد في ذاتي القوة لأفعل ذلك.

حين اتصلت بي سلوى بعد يومين تقول إن زوجها ذهب إلى قريته ليشارك في مأتم وإنها حرة معظم ذلك النهار، تلفنتُ إلى عدنان الذي قال إن أخته معه في زيارة ولا يستطيع أن يخرجها. هالة أيضاً عائدة إلى البيت في مدى ساعة، أحسست أنني مطوق وأنّ وجهي على الجدار. يرنّ التلفون فأظن أنها هي لكنني أجد عدنان على التلفون يبلغني أن أخته عزمت على العودة إلى بيتها والبيت خلا منذ قليل. انتظرت تلفون سلوى لأطلب منها أن توافيني هناك. حين وصلت شددتها إليّ بقوة، أخذتها فوراً إلى غرفة النوم وهناك كنت أنا الذي لعب بصدرها ولاك حلمتها ودفن رأسه بين ساقيها. هذه المرة لست فقط طالب متع، أنا أيضاً العشيق، هذه المرأة الجميلة لي، وأنا سعيد بذلك. وجدت في جيبي مئة ألف ليرة أعطيتها لها لتسلمها إلى زوجها.

نلتقي عند عدنان كلما غاب محمود عن البيت وهو رغم رقابته يغيب كثيراً. إنه رجل لا يطيق أن يبقى طويلاً في البيت. يذهب إلى أهالي بلدته وأصحابه، يلاعبهم الورق ويشرب معهم، يغيب كثيراً لأنه لا يطيق قعدة البيت وقعدة النسوان كما لا يليق برجل أن يكون. لا يعمل لكنه يعيش كرجل، بل هو رجل أكثر حين لا يعمل، إنه عندئذ رجل فحسب وامرأته تعمل له لأنه رجلها. أرسل له مع سلوى مبلغاً من المال من وقت إلى آخر، سلوى تبلغني أنه يأخذ المبلغ لكنه يعرف بسرعة مصدره، يقول لها دائماً أن لا أغتر فهو رجل لا يبيع شرفه بالملايين، وأنه لا بد أن ينتقم في يوم ليس بعيداً.

تخيفني هذه الأخبار لكني لا أستطيع ترك سلوى، صرنا نتقابل تقريباً كل يوم أو يومين، نتلاقى في بيت عدنان. لم يعد ضرورياً أن يخلي لنا البيت، فنحن نتلاقى في حضوره. نزوره حاملين أحياناً معنا ترويقة نشتريها من الحي ونفطر معه، نحمل مناقيش من الفرن القريب أو كبداً نيئاً من اللحام الذي تحت بنايته. تصل سلوى فأفتح لها وأنزل لأشتري وأصعد فأجدها هيّأت السفرة، قامت بجلي الصحون التي تجدها عادة وسخة في أرض المجلى، ملأتها بالزيتون والزعتر واللبنة التي تجدها في المراطبين التي على الرفوف. تكون السفرة اكتملت فأذهب إلى الغرفة وأوقظ عدنان الذي يسهر إلى ساعة متأخرة ويستيقظ عند الظهر، نأكل ثلاثتنا مغتبطين بالصباح وبتواجدنا معاً. صارت سلوى أحياناً تسبقني إلى بيت عدنان وتتلفن لي من عنده، أوافيها هناك فأجدها صنعت القهوة لهما معاً وجلست مع عدنان تروي له حياتها، أظن أنه بات يعرف عنها أكثر مني. لذا اندهشت حين انفرد بي ذات يوم في مقهى الويمبي، كان واعدني بالتلفون وحضر يلبس كعادته بنطلوناً من الجنز وقميصاً من مربعات. كان شعره الكستنائي بالكاد مرتباً وعيناه الزرقاوان وفمه المزموم يشي بالتعب. اندهشت لأنه جاء كي يحذّرني من سلوى، قال لي إنها آتية من وسط قذر لا يُستكثر عليه أي شيء. زوجها، قال لي، لا يؤمن له ويبدو أن له ماضياً وسخاً. كان عدنان ترك الحزب منذ سنوات لكنه بقي صديقاً له، قال لي إنه يخاف أن يستغل أعداء الحزب زوجها. حذّرني، قال إنه غير مرتاح إلى هذه العلاقة، ثم ما هي هذه السلوى لرجل في مثل ثقافتي. أي شبه يوجد بيننا، كيف يمكن لرجل له امرأة

مثل هالة أن يتدندل في علاقة كهذه. يتعجب من أنني أتدهور إلى هذا الحد. يفهم هذه الحماسة للشعب، وجميعنا جئنا من أصل شعبي، لكن هذا الحنين مجرد أكذوبة على النفس. يأتي يوم نعرف فيه أننا لا نستطيع أن نقيم علاقة خاصة مع أناس من هذا الصنف. الفرق الذي بيننا لا يمكن تخطيه.

عدنان قاطرجي

شاهدت إلى الآن نساءً من مختلف الأصناف يأتي بهنّ صلاح إلى شقتي: جميلات وعاديات، صبايا ومتقدمات في السنّ، متزوجات وعوانس، مثقفات ومدّعيات ثقافة، ثريات وفقيرات. جميعهنّ مع ذلك ينتمينَ إلى وسطه الحزبي أو السياسي أو الثقافي. جميعهن مبهورات باسمه، بشهرته، بوزنه الثقافي. إنه الفيلسوف، المفكر، النسخة الأخيرة من ماركس. أما هذه السلوى فلا أعرف ما الذي ألقاها عليه، إنها بالتأكيد لم تسمع به و لم يخطر لها في يوم أن تقرأ في جريدة أو تقلّب كتاباً. أشك في أنها تحسن القراءة. لاحظتُ أنها تجمع الحروف بصعوبة في البطاقة التي تحمل اسمي وعنواني والتي دسستها لها. واضح أنها لم تسمع بالحزب أيضاً ولا تفكر في السياسة. إنها سوقية من الصنف الذي يستحل كل شيء ويحتال على الجميع لكي يعيش. لا أشك في أن السرقة، الابتزاز، الكذب، عادة عندها. القتل قد يكون عندها أسهل من شرب الماء. أنا واثق من أنها تخدعه وهو أيضاً تنتابه شكوك في ذلك. هو أيضاً يخشى

أن تكون لفقت له حكاية الزوج الغيور الذي يُشترى سكوته بالمال.
قد تكون هذه القصة بلا أصل أو يكون كل شيء تم بالاتفاق مع الزوج الذي يعاود التهديد كلما تأخروا عن مدّه بمئة ألف جديدة. لقد وقع صديقنا المفكر بين أيديهم وهم يواصلون ابتزازه. سلوى، كما يحكي لي، تحمل له كل يوم خبراً من محمود زوجها فيه أنه سيريق دمه، يهدد كل يوم بأنه سيغسل شرفه بالدم ويستمر هو في حشو جيوبه بمئات الألوف. صلاح ليس ساذجاً لكني لا أعرف ماذا جرى له، إنه يحوص في انتظارها وعندما تصل يشرق وجهه ويضحك لكل ما تقوله، خصوصاً لأكثره سوقية. إنها تجعله شخصاً آخر. ما يسمعه منها قد يكون سمعه في مكان آخر، قد يكون حنينه إلى أجواء مضت هو الذي يفعل. روى لي أن أمه كانت خادمة في بيت أبيه وأن زوجة أبيه هي التي ربّته، لا بد أن ولعه بخادمة يعيد القصة. روى لي أنه كان يتعالى على أمه ويحتقر أهلها، أنه لم يعترف بأخواله الذين كانوا إذا زاروها استقبلتهم في المطبخ وأطعمتهم كما يفعلون مع المتسولين. هي الخادمة كانت تتعالى على أهلها ولا تخفي ضيقها بزياراتهم. كان مكانه الطابق الثاني مع أبيه السيد وزوجة أبيه السيدة. كان سيداً قياساً على الطابق الأول ومن فيه، أمّه وبعض إخوته. هو وأخته منى تربّيا بين السادة والغريب أنهما صارا شيوعيين، أكان هذا دَيْنهم، الذي انتبهوا إليه متأخرين، لأمّهم الخادمة وأخوالهم - إخوتها - الذين كان الطعام الطيّب يجذبهم إلى بيت ابنتهم في المدينة.

هل علاقة صلاح بسلوى هي أيضاً دفعة متأخرة من هذا الدَيْن. لا تشبه سلوى أمّه التي، روى لي، أنها كانت خانعة ومطيعة. سلوى

بخلاف ذلك فاجرة ووقحة ومتمردة لكن لغتها هي لغة التراب الذي جاءت منه والدته. هل هم أناس الطابق الأول الذين يجتذبونه. لا أريد أن أسترسل في هذا التحليل، لا أريد أن أقرر أن سلوى هي، بطريقة ما، الجسر الذي يعود عليه صلاح إلى أمّه. أنا لا تضحكني كلماتها، أراها فظة وسوقية وغبية أيضاً، لا أجد أي طرافة في فجورها الكلامي. هذه الأقوال التي تنقلها إلى صلاح تخيفني، أشعر أن ثمة مؤامرة في الأفق، لا أستبعد شيئاً. أخاف حتى على نفسي، كيف أستقبل هذه الحية في بيتي. سلوى، لسبب ما، تبالغ في محاسنتي، أتوجس حين تسألني عن غرامياتي. أتوجس حين تقول لي إني وسيم وميسور وإن أجمل النساء تتمناني. لا أعرف إلى ماذا تلمح بهذا الكلام، هل تلمح إلى نفسها، هل توعز إليّ بأنها مستعدة لاستبدال صلاح بي، أم أنها هكذا تمهّد لابتزازي. هذه امرأة فاسقة، لا أشك في ذلك، جاءت من وسط كل شيء مباح فيه. الإخوة ينامون مع أخواتهم، الرجال يتعاركون على النساء والنساء يتعاركنَ على الرجال. إنها تريد غالباً معركة بيني وبين صلاح، سيسرها ولا شك أن نتعارك عليها. ربما تفعل ذلك بالاتفاق مع محمود الذي قد لا يكون زوجها بل قوادها، ربما تريد أيضاً أن تجعلني تحت ابتزازها وأن تبدأ هكذا في جرّ مئات الألوف من جيبي. لقد وجدت فيّ موضوعاً مناسباً، لماذا إذاً تناديني يا حلو وتستدرجني لأبوح لها بغرامياتي، أنا في هذه المسائل سكوت عادة فكيف أكون مع امرأة من صنف سلوى. لو خرجت في فمي كلمة واحدة أو اسم واحد لكنت جررت على نفسي كارثة، لذا أحاذر أن تلتقي في شقّتي مع أي من صديقاتي. أحاذر أن تعرف أين

أضع قدمي وأين أذهب وأروح. صلاح يخاف أيضاً، يخاف منها ولا يعترف. يريد أن يكون مديناً لها، يريد أن يكون عشيقها، لكنه في قرارته يخاف. حذرته منها فامتقع وجهه، كأنما بكلامي صادقت على مخاوفه، امتقع وجهه لأنه يرتاب فيها، لأنه لا يريد أن تصدق ظنونه، لأنه يخشى أن تكون صادقة، وأن تخطر لواحد غيره فهذا يعني أنها حقيقية وأنها ليست أوهاماً.

فوّاز أسعد

حضرت أمس الذكرى السنوية لنجاة الرفيق صلاح السايس الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني – القيادة المركزية من الاغتيال بعد أن ألقته رصاصة معتدٍ مجهول بين الميت والحي طوال شهرين على سرير في مستشفى الجامعة الأميركية وخرج معافى وإن زعم بعض الخبثاء أن ذاكرته وذكاءه تأثّرا. صلاح ما يزال ممشوقاً وما تزال عليه لائحة من الشباب لكن شعره تساقط وفار الشيب في لحيته وما بقي من شعره. كان جالساً في الصدر يصغي إلى الخطب التي تهنّئ البروليتاريا العالمية بهذه النجاة التي ردّت كيد الإمبريالية والرأسمالية ويبتسم من دون أن تظهر على وجهه بادرة استهجان. بل إن واحداً من الخطباء الشبان أكد أن هذه النجاة كان لا بد منها فهي ردّ التاريخ الموضوعي على قوى الظلام. حين انتهى الحفل اقتربت منه محيياً وتسلّمت يديه الاثنتين وقلت له بتواضع شديد إنني أهنّئ البروليتاريا العالمية بل حركة التاريخ، غير أنه وقد تميز السخرية في كلامي نفض يديه مني والتفت إلى من ورائي. كانت الرفيقة هالة نائبة الأمين العام تجلس جنبه،

حييتها صامتاً كما حييت ولديه عضوي القيادة المركزية وخرجت.

بعد انهيار الشيوعية السوفياتية تساقط الحزب الشيوعي وتكوّنت منه تيارات ما لبثت أن انشقت عنه وصارت أحزاباً مستقلة: المكتب السياسي الذي تبنى النضال التدريجي في سبيل الديموقراطية والدولة الحديثة، اللجنة المركزية، التيار الذي سار بما بقي من الحزب وهو يحافظ شكلياً على تراث الحزب دون أن يحرك إصبعاً واحداً يحول دون نسيانه و لم يبق له منه سوى معاداة الإمبريالية الأميركية. أما القيادة المركزية التيار الذي قاده الرفيق صلاح السايس، فهو كما يدعي تيار ماوي لكنه مع ذلك يماشي الصين وكوريا وفييتنام وكل ما بقي من العالم الشيوعي والحزب الذي نتج عنه يجدد واعياً كل ما نسب إلى الماوية، فهو ينقب عن ماضي أعضائه حتى الجد الخامس وغالباً ما يصدر قرارات بفصل أعضاء تبين أن جدّهم الثالث كان ملاكاً كبيراً أو أن جدّهم الخامس كان من حاشية أحد الإقطاعيين. ثم إنه واعياً كرّس عبادة الفرد فهو يحيي كل عام عيد مولد أمينه العام ويحيّي بهذه المناسبة والدته الخادمة الثورية، ويحتفل كل عام بذكرى نجاته من الاغتيال وانتصاره على الموت وعلى كيد الإمبريالية.

أنا الوحيد الذي بقي في المدينة. في حين غادر صلاح إلى بيروت وكذلك نديم بينما هاجر بيار إلى كندا حيث التحق بطائفته. استمررنا نلتقي معظم الأحيان في بيروت، فأنا لا يمضي أسبوع إلا ويصحّ لي مشوار إلى بيروت. أمرّ على صلاح الذي كان تلك الأيام لا يزال يفكر في التصوف الحزبي. كان ما يزال يتكلم عن الفناء في الحزب وعن التكريس التام والكامل له وعن إماتة النفس والزهد والبعد عن

الملذات والشهوات في سبيله، لكن عندما تعرض لمحاولة الاغتيال دار كلام عن تهتكه وعن العدد المرتفع لعشيقاته، بل إن هناك من ردّ محاولة الاغتيال نفسها إلى ثأر زوج غيور. بعد ذلك بدأ صلاح يترقى في المراتب الحزبية، صار في عامين عضواً في اللجنة المركزية وفي المكتب السياسي. كثرت أشغاله فلم يعد الوصول إليه سهلاً، صرت أتلفن له فلا أجده. لما تواترت المرات التي لا أجده فيها ولا يكلمني، أحسست أن في الأمر ما يريب، وأنه في الغالب يتمنع عن لقائي ومكالمتي. انقطعت بدوري عنه وصرت أذهب إلى بيروت فأكتفي بلقاء نديم الذي لم تكن صلتي به حميمة حين كان في المدينة، بل كنا آنذاك نتفادى بعضنا وقلما نتواعد. في بيروت صادفت مرة نديم في "بب"، كنت وحدي على طاولة وكان على البار لكنه ما إن لحظني حتى حمل كأسه وجاء إليّ. كان كلامنا الأول عن صلاح. لم يكن نديم مجروحاً منه كما كنت بل منشرح لأنه حقق نظريته التي تذهب إلى أن كل الناس أوغاد وأنهم جميعاً خادعون أو مخدوعون. نديم مع ذلك هذه المرة أقل إصراراً على نظريته أو أقل ابتهاجاً بها، إذ لم يطلق وهو يتكلم عن صلاح أيّاً من ضحكاته التي أعرفها جيداً. بدا عليه، لا أدري كيف، ما يشبه السأم من تلك الحلقة المفرغة. إنه سأم من الخادعين والمخدوعين، أظن أن الاثنين يكربانه كثيراً، لم يعد يجد لذة في تأملهما. على الأرجح لم يعد له مكانه الأول بينهما. اعتبر نفسه دائماً من الخادعين، الآن لم يعد أكيداً من ذلك، لم يعد يثير حماسته أن يكونه، صار هذا معقداً بالنسبة له ولا يطيق أن يفكر فيه. إنه يفهم الآن أن ذكاءه لا يضمن له شيئاً، أن ثمة قوانين أخرى

لا تتعلق بالذكاء هي التي تقرر. يقول إن الحمقى يواتيهم الحظ بقدر الأذكياء، وإن الذكاء يبدو حظاً ثقيلاً على صاحبه، بل عبء عليه. في إحدى المرات قال لي إنه خسر لكنه يخجل من أن يقول ذلك، لا يعرف أن يقوله. ماذا يفكر الناس إذا سمعوه يقول هذا، هل سيظنون أنه يطلب إشفاقهم، أو أنه يظن نفسه أقل منهم. ماذا يقول الناس إذا سمعوه يقول ذلك؟

بيار مَدْوَر

أمس وصلني خبر وفاة نديم، كتبت لي منال التي استمرت تراسلني وأنا في كندا أنه توفّى بعد أن تشمّع كبده من الشراب. ينبغي أن أسجل هذا التاريخ، كانون الأول 2009 الذي سيدمغني لبقية حياتي. قلت في نفسي لا بد أن هذا التاريخ لم يقع مرة واحدة، لا بد أنه حدث على مراحل. فكرت أنه ظل يتردد طوال سنوات ما بعد الألفين. فكرت أن كل أشهر كانون الأول في هذه السنوات حملت، على نحو ما، نذيراً به. لقد ظل يتكوّن من كانون أول إلى كانون أول حتى اكتمل في هذا التاريخ. فتشت في كل كانون أول عن علامة، راجعت أوراقي، توقفت عند كل كانون أول لكنني لم أجد شيئاً. لقد كنت لاهياً كل هذا الوقت بينما كان حبيبي يتآكل كبده ويقطع مسافة أخرى إلى موته.

حبيبي نعم، رغم أنه أنكر ذلك، منذ أن قلته له. ردّ بأنه لا يستطيع بعد أن يستمر في صداقتي ما دمت صرحت بأني أشتهيه. قال إنه، بعد أن عرف، لا يمكنه أن يبقى صديقاً لي فنحن لا نتبادل

المشاعر نفسها. لوى رأسه عني كل مرة وجدني أنتظر أمام باب بيته. لحقته إلى بيروت، كنت أطرق بابه فلا يقابلني. يتركني أنتظر في صالون بارد حتى أضجر وأخرج. أنتظر خروجه فيراني ولا يكلمني، أراسله فلا يجيب. حين ركّبوا تلفوناً في البيت صرت أتلفن له فيغلق الخط بمجرد أن يتميز صوتي. كتبت له من كندا رسالة كل أسبوع طوال السنوات الثلاث الأولى من إقامتي فيها لكني لم أتلقّ جواباً. لقد أهانه اعترافي له لأنه كان يعرف طوال الوقت ويظن أن التجاهل يكفي لطيّ المسألة. أراد أن يبقى التجاهل بيننا لكي لا نرفع الستار عن الموضوع. حين صارحته عرف أنه كان شريكاً طوال هذا الوقت وإذا استمر في ذلك فسيبقى شريكاً. لقد رفض هذه الشراكة ومنذ ذلك الحين لم يكلمني. أراد أن يقطع كل ما بيننا لأن بقاء خيط واحد يكفي لتستمر الشراكة وليكون مسؤولاً، خيط واحد كاف ليتهم نفسه.

في مونريال وجدت في الحيّ اللبناني كل ما صار مفقوداً عندنا، وجدت أشياء لم تعد على مائدتنا من سنين. لكن هذا لم يكن كافياً. وجود الصعتر والزوفا والكشك لا يخلق الأمكنة نفسها، الأمكنة لا يمكن نقلها. على الأقل لا يمكن نقل الحضن الأمومي الذي هو كالماء بلا لون ولا طعم ولا شكل ولا حجم وحين نفكر بنقله يتبدد من تلقائه. إنه النسيج العنكبوتي الذي نودع فيه شيفرة وجودنا، ذكريات جنينية وغشاء حليبي وفجر مفارق سابق على الذاكرة وعلى سقوطنا المفاجئ فوق عشب العالم. الأمكنة لا يمكن نقلها، تمكن سرقتها فقط. نستيقظ في يوم فلا نجدها، تكون اختفت أو لم

تعد لدينا طاقة على اختراعها. صار نديم بالنسبة لي روح الأمكنة، كان الوقت الذي يحوك ويجمع ويفصل ويصل. كل هذا الغشاء العنكبوتي كان مصنوعاً بخيطه، كان النسيج وجهه وعمري معه والأمكنة التي حضنتنا معاً. في السنة الأولى كنت أبحث عنه، أسعى لإيجاده. أنسج من كلماته وقسماته وذكرياتي عنه. حين التقيت بسليمان لم أصدق، كانت له قامته وشعره وعيناه. شعره كان أشقر لكنه كان شعره، عيناه كانتا زرقاوين لكنهما عيناه، قامته مديدة لكنها قامته. انتظرته طوال هذا الوقت، نظرت إليه بالطريقة التي لا ينظر بها إلا مثليّ. فهم عليّ ما لا يفهمه هكذا إلا مثليّ، اقتربت منه واقترب منّي. قال لي "كم أنت جميل" وقلت له "كم أنت قوي"، صرنا عشيقين. اليوم حين وردني خبر وفاة نديم تذكرت أني التقيت بسليمان في كانون الأول، إنه ولد في كانون الأول من أب لبناني وأمّ كندية. كان عليّ أن أتذكر هذا على الفور لكني تأخرت حتى تذكرته. يمكن أن أسترسل: "أنا أيضاً ولدت في كانون الأول وكل كانون الأول لا بد أنه حدث فيه شيء، لماذا لا أتذكر وفاة والدي، كانت أيضاً في كانون الأول، جدتي التي طالما أحبتني توفيت أيضاً في كانون الأول. أنا متأكد أن كل شيء مهّد لهذا التاريخ الذي سيدمغ حياتي 2 كانون الأول 2009. لا ننقل الأمكنة لكن نديم لم يعد في بيروت، هو على الأقل لن يطردني من أمام بيته، لن يمتنع عن مراسلتي. أريد أن أتخيل أن كانون الأول أعاده إليّ، هذا بالطبع جنون لكني من طائفة تؤمن بالتقمص. كل هذه المصادفات لتقول لي شيئاً. كل هذه التواريخ لتعين لنا موعداً.

كانون الأول كان باستمرار شهر مواعيدي، هذا التاريخ لم يقع عبثاً. وقع بقصد. اكتمل شيء ظل يظهر ويختفي عاماً بعد عام. انتقلت الأمكنة. انتقل نديم إلى هنا".



في المدينة اللبنانية المتاخمة للشريط الحدودي، يشعر بيار وصلاح ونديم وفواز وبقية الرفاق اليساريين بالهزيمة والعجز. فالجيش الإسرائيلي يستعدّ للدخول والمنظّمات الفلسطينية انسحبت نحو العاصمة.

جماعة متطرّفة تطلق على نفسها اسم «اليقظة» تفرض سيطرتها على الشوارع، معلنة التصدّي لقوات العدو. شبان الساعة الأخيرة قبل الاحتلال ينشغلون في حروبهم الصغيرة، حيث يختطف سليم حومد، أحد أبناء المدينة، على يد تنظيم منشقّ. وفي محاولة تحريره تدور معركة طاحنة بين رفاق السلاح، يسقط فيها قتلى وجرحى.

تتأرجح شخصيات الرواية بين الأوهام الكبرى والهزائم الشخصية.

عباس بيضون شاعر وصحافي لبناني ومسؤول الصفحة الثقافية في جريدة «السفير». صدر له في الشعر عن دار الساقي «ب.ب.ب.»، «بطاقة لشخصين»، «الموت يأخذ مقاساتنا» الحائز «جائزة المتوسّط»، وفي الرواية «مرايا فرانكنشتاين» و«ألبوم الخسارة». ترجم شعره إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية.



ISBN 978-1-85516-928-9



DAR AL SAQI
دار الساقي